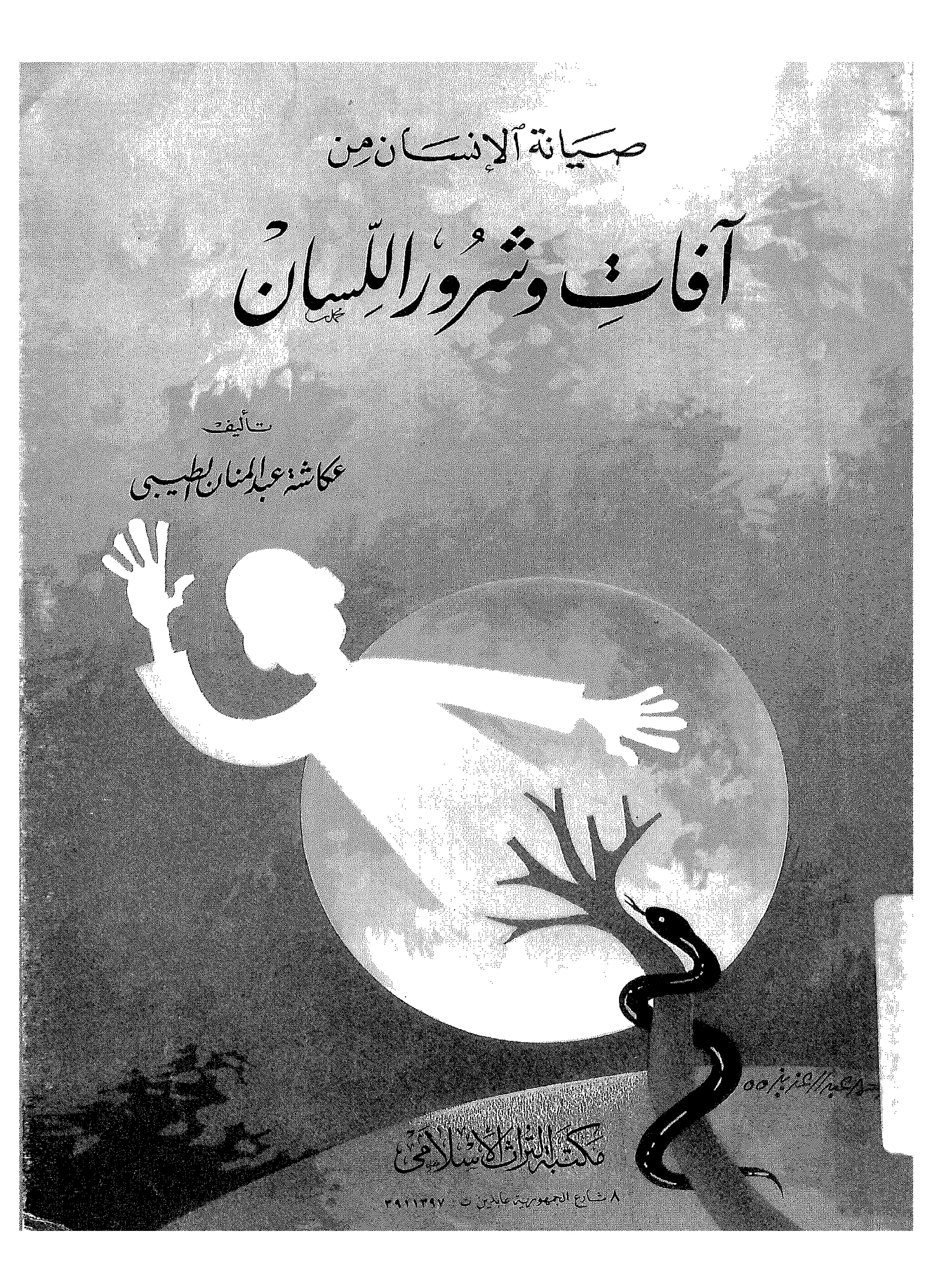


صيانة الإنسان من
آفاتِ وشرورِ اللّسان
تأليف
عكاشة عبد المنان الطيبي
مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

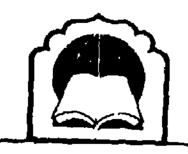
الاسكندرية

صيانة الإنسان من

آفات وشرور اللسان

تأليف
عكاشة عبد المنان الطيبي

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين ت . ٣٩١١٣٩٧





٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

قال تعالى : ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلًا كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار * يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ . [: إبراهيم : ٢٤ — ٢٧] .

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد للهِ نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ باللهِ من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالِنا ، من يَهْدِه اللهُ فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هاديَ له ، وأشهَدُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تُقاته ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يا أيها الناسُ اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة * وخَلَقَ منها زوجَها وبَثَّ منهما رجالًا كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام * إنَّ الله كان عليكم رقيباً ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولًا سديداً يُصلح لكم أعمالكم * ويغفر لكم ذُنوبَكُم ومَنْ يُطِعِ اللَّهَ ورسولَه فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ [الأحزاب : ٧٠] .

وبعــد ..

فإن اللسانَ أحد آيات الله الدالة عليه ، «وهو ترجمان ملك الأعضاء يبين عنه ، ويبلغ عن مقاصده ومراداته ، فجعله سبحانه ترجماناً لملك الأعضاء الذى هو القلب مبنياً عنه كما جَعَلَ الأذنَ رسولًا مؤدياً مبلغاً إليه ، فهى رسوله وبريدُه الذى تؤدي إليه الأخبار ، واللسان رسولُه وبريدُه الذي يؤدي عنه ما يُريد ، واقتضت حكمته سبحانه أن جعل هذا الرسولَ مصوناً محفوظاً مستوراً غير بارزٍ مكشوفٍ كالأذن والعيْن والأنف ، لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدى من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ، ولما كان اللسان مؤدياً منه إلى الخارج جُعل مستوراً مصوناً لعدم الفائدة من إخراجه ، لأنه لا يأخذ من خارج إلى القلب .

واللسان من أشرف الأعضاء بعد القلب ، ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره ، ضُرب عليه سرادق يستُره ويصونه ، وجُعل فى ذلك السرادق كالقلب فى الصدر » .

ولَمَّا كان اللسان هذا حاله وأنه المبين عما فى داخل القلب من خير وشر ، كان له اهتمام بيِّنٌ فى آيات القرآن وأحاديث الرسول الكريم ﷺ فى التوقى من شره ، ومحو أثر تلك النزعات الشيطانية منه ، وجُعِلَ علاجُه الانشغال بذكر الله تعالى ، وقراءة القرآن ، والاتعاظ بأحاديث النبى ﷺ ، والانصراف إلى العبادات التى من شأنها أنها تنسى وتقضى على آفات اللسان العظيمة ، التى تُوعِّدَ بها ناراً فى الآخرة ، جزاء ما يكون منه من خروج عن مقتضى ما أمر الله به ورسولُه .

نحن الآن فى زمن كثير الفتن والمساوىء التى حَذَّر الرسولُ الكريمُ ﷺ منها ، ونحن بحاجة إلى تذكير دائم بالآخرة ، وما أُعِدَّ لنا فيها ، ومعرفة ما يجب أن نكون عليه من الالتزام التام بآداب الإسلام التى من شأنها تكون مع الذين رَضِيَ الله ورسولُه عنهم .

إذا أردنا أن نُحذر من اللسان فلن يكون هذا التحذير إلا مفتاحاً لمحاذير كثيرة لو أردنا إحصاءَها لكانت فى مجلدات كثيرة يصعب على القارىء أن يتحمل فيها المشقة فى قراءتها وتدبر معانيها ، لذا لجأنا إلى لفت الأنظار من قريب وبعيد معتمدين على نصوص الكتاب والسنة ، لإدراك ما يجب علينا عملُه مع اللسان الذى قد يكون مصدر خير وشرٍّ .

فاللسان هو مصدر كلمة تخرج من فى الرجل لا يُلقى لها بالا تُلقيه فى جهنم سبعين خريفاً ، ومصدر كلمة تُقال للمكيدة بالإسلام والمسلمين ، ومصدر كلمة تُقال فى مداهنة الكافرين ومعاونتهم علينا ، ومصدر كلمة تخرج لتكون خصاماً بين طائفتين ، ومصدر كلمة تكون سيفاً وحرباً على صاحبِها ، ومصدر كلمة يُكذب فيها على الله ورسوله ولا رادعَ لصاحبها .

وأمثال هذه الكلمات التى هى مصدر هدم لتشريع الإسلام وآدابه الجمة التى نحن أكثر ما نكون فى ابتعاد عنها ، لانصرافنا عن الالتزام الذى يجبُ أن نكونَ أولَ من يعملُ به ويتخذه نبراساً لكثير من الحقائق .

فمثل هذه الكلمات تخرج لتكون تمهيداً لما هو أعظم وأبلغ منها ، لتكونَ كياناً وحيزاً فى سيئات الأعمال الشيطانية التى كثيراً ما حُذِّرنا منها .

وإذا استعرضنا كثيراً من الآيات والأحاديث وجدناها تنص على الحفاظ على اللسان ، لأنه مصدر قد يؤدى بصاحبه إلى قرار بئس القرار .

والأحاديث متنوعة فى بابها إلا أنها تحت شعار لصالح المسلمين ، ولكثير من المصالح الإسلامية العامة التى بها نكون من الذين سمعوا اتطهير القلب ، وتزكية النفس وتنقية الضمير ، وتكاليفها فى السلوك ، ومحاولة الثبات على المرتقى العالي الذي يتطلبه الإيمان ، وتكاليفها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف ، وتكاليفها فى الجهاد لحمايتها ونصرتها وعزتها ، والسهر عليها من كيد الأعداء .. وهي تكاليف لا تنتهي ، ولا يغفل عنها المؤمن ، ولا يعفي نفسه منها ، وهي مفروضة عليه فرض عين أو فرض كفاية ، وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشري ، والطاقة البشرية محدودة ، وهي إما أن تنفق في هذا الذي يصلح الحياة وينميها ويرقيها ، وإما أن تنفق في الهذر واللغو واللهو ، والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته إلى إنفاقها في البناء والتعمير والإصلاح .

« المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمونَ من يده ولسانِه » .

وقوله ﷺ :« لا تَقُلْ بلسانِكَ إلا معروفاً ، ولا تبسط يَدَكَ إلا فى خير » .

وقوله : « مَنْ كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وقوله : « أمسِكْ عليك لسانَك وليَسعك بيتُك ، وابكِ على خطيئتك » .

وقوله : « شرار أمتى الثرثارون ، والمتشدقون المتفيقهون ، وخيار أمتى أحاسنهم أخلاقاً » .

وإذا أردنا أن نُحصى تلك المناهى التى مصدرها اللسان ، فإنَّ ذلك يطولُ كثيراً ، وقد استطعنا بالاستعانة بالله أن نبوب لها أو لمعظمها فى هذا الكتاب المتواضع ، فكانت أبواب الكتاب متنوعة فى تلك المساوىء التى مصدرها اللسان كالكذب ، والنميمة ، والحسد ، والسباب والتكلم فيما لا يعنى ، والغيبة ، والسخرية ، والاستهزاء ،

والجدال ، والمخاصمة ، والهمز واللمز ، والتناجى بالإثم ، والافتراء ، وقول الزور ، والنياحة ، والشعر المذموم ، وإفشاء السر ، وغيرها والذى يحذِّرُها يكونُ كما قال النبى ﷺ : « **مَنْ يَضْمَنُ لى ما بين لحييه وما بينَ رجليه أضمَنُ له الجنةَ** » .

ولذا تَوَعَّدَ اللهُ بها ، وجعل اللسان مما يُسأل يوم القيامة ، فقال : ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانُوا يعملون** ﴾ [النور : ٢٤] .

وكان مِمَّا أوصى به النبىُّ ﷺ حينما سأله سفيان بن عبد الله بقوله : يا رسول الله ، ما أخوفُ ما تخافُ عليَّ ؟ فأخذَ النبىُّ ﷺ بلسان نفسه ، ثم قال : « **هٰذا** » .

وما اتبعتُ هذا المسلك إلا لِأُحَذِّرَ المسلمين اليوم من شَرِّ اللسان العظيم ، وأنصحهم بالابتعاد عنه قدر المستطاع ، لأنَّ عاقبته وخيمة جداً .

فاجعل ــ أخى المسلم ــ الخيرَ يَشْرَحُ على لسانِك بالأدعية المأثورة عن النبى ﷺ ، والإكثار من قراءة القرآن ، والأحاديث النبوية التى تهذب النفس ، وترغب فى الجنة ، وتحذرك نار الآخرة .

ولا تجعل وقتك فيما هو شرٌّ لك في يوم تندم فيه على ما حَصَّلْت ، واجعل قول النبى ﷺ نصبَ عينيك : « **رَحِمَ اللهُ عبداً قال خيراً فَغَنِمَ ، أو سكت عن سُوء فسَلِمَ** » .

وفى الختام نرجو أن يكون عملنا هذا مما نبتغي به وجه الله تعالى ، ونكون من بلغنا ونصحنا ، فعسى اللهُ أن يوفقنا لما هو خيرٌ ، واللهَ نسألُ القبولَ .

الأمر بحفظ اللسان

قال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ [المؤمنون : ١ — ٣] .

قال سيد رحمه الله[1] فى قوله تعالى : **﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾** ... لغو القول ، ولغو الفعل ، ولغو الاهتمام والشعور ، إن للقلب المؤمن ما يشغله عن اللغو واللهو والهذر له ما يشغله من ذكر الله ، وتصور جلاله وتدبر آياته فى الأنفس والآفاق ، وكل مشهد من مشاهد الكون يستغرق اللب ، ويشغل الفكر ، ويحرك الوجدان .. وله ما يشغله من تكاليف العقيدة : تكاليفها في تطهير القلب ، وتزكية النفس وتنقية الضمير ، وتكاليفها فى السلوك ، ومحاولة الثبات على المرتقى العالي الذي يتطلبه الإيمان ، وتكاليفها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصيانة حياة الجماعة من الفساد والانحراف ، وتكاليفها فى الجهاد لحمايتها ونصرتها وعزتها ، والسهر عليها من كيد الأعداء .. وهي تكاليف لا تنتهي ، ولا يغفل عنها المؤمن ، ولا يعفي نفسه منها ، وهي مفروضة عليه فرض عين أو فرض كفاية ، وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشري ، والطاقة البشرية محدودة ، وهي إما أن تنفق في هذا الذي يصلح الحياة وينميها ويرقيها ، وإما أن تنفق في الهذر واللغو واللهو ، والمؤمن مدفوع بحكم عقيدته إلى إنفاقها في البناء والتعمير والإصلاح .

ولا ينفي هذا أن يروح المؤمن عن نفسه في الحين بعد الحين ، ولكن هذا شيء آخر غير الهذر واللغو والفراغ ..

وقال تعالى : **﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كرامًا ﴾** [الفرقان : ٧٢] .

---

(١) « في ظلال القرآن » ٦/١٠ .

قال سيد رحمه الله(١): وعدم شهادة الزور قد تكون على ظاهر اللفظ ومعناه القريب ، أنهم لا يؤدون شهادة زور ، لما في ذلك من تضييع الحقوق ، والإعانة على الظلم ، وقد يكون معناها الفرار من مجرد الوجود في مجلس أو مجال يقع فيه الزور بكل صنوفه وألوانه ، ترفعاً منهم عن شهود مثل هذه المجالس والمجالات ، وهو أبلغ وأوقع ، وهم كذلك يصونون أنفسهم واهتماماتهم عن اللغو والهذر : ﴿ **وإذا مروا باللغو مروا كِرامًا** ﴾ لا يشغلون أنفسهم به ، ولا يلوثونها بسماعه ، فللمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر ، وليس لديه من الفراغ والبطالة ما يدفعه إلى الشغل باللغو الفارغ ، وهو من عقيدته ومن دعوته ومن تكاليفها في نفسه وفي الحياة كلها في شغل شاغل .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين** ﴾ [القصص : ٥٥] .

قال رحمه الله : واللغو فارغ الحديث ، الذى لا طائل تحته ، ولا حاصل وراءه ، وهو الهذر الذي يقتل الوقت دون أن يضيف إلى القلب أو العقل زاداً جديداً ، ولا معرفة مفيدة ، وهو البذىء من القول الذى يفسد الحس واللسان ، سواء : أَوُجِّهَ إلى مخاطب ، أم حكى عن غائب .

والقلوب المؤمنة لا تلغو ذلك اللغو ، ولا تستمع إلى ذاك الهذر ، ولا تعنى بهذا البذاء ، فهي مشغولة بتكاليف الإيمان ، مرتفعة بأشواقه ، متطهرة بنوره : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه** ﴾ ...

ولكنهم لا يهتاجون ولا يغتاظون ولا يجارون أهل اللغو فيردون عليهم بمثله ، ولا يدخلون معهم في جدل حوله ، لأن الجدل مع أهل اللغو لغو ، إنما يتركونهم في موادعة وسلام . ﴿ **وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم** ﴾ ..

هكذا في أدب ، وفي دعاء بالخير ، وفي رغبة في الهداية .. مع عدم الرغبة في المشاركة : ﴿ **لا نبتغي الجاهلين** ﴾ ..

---

(١) « في ظلال القرآن » ١٨٦/٦ .

ولا نريد أن ننفق معهم وقتنا الثمين ، ولا أن نجاريهم في لغوهم أو نسمع إليه صامتين !

إنها صورة وضيئة للنفس المؤمنة المطمئنة إلى إيمانها ، تفيض بالترفع عن اللغو ، كما تفيض بالسماحة والود ، وترسم لمن يريد أن يتأدب بأدب الله طريقه واضحاً لا لبس فيه ، فلا مشاركة للجهال ، ولا مخاصمة لهم ، ولا موجدة عليهم ، ولا ضيق بهم ، إنما هو الترفع والسماحة وحب الخير حتى للجارم المسيء .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً** ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

قال رحمه الله : وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجاً كاملًا للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً ، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة !

فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق ، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة ، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل . ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم .

ان الأمانة العقلية القلبية التى يعلن القرآن تبعتها الكبرى ، ويجعل الإنسان مسؤولًا عن سمعه وبصره وفؤاده ، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد ..

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب ، أمانة يسأل عنها صاحبها ، وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً ، أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الإنسان رواية ، وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أو حادثة .

﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم** ﴾ .. ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين ، وما لم

تتثبت من صحته : من قول ورواية تروى ومن ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل ، ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية .

وفي الحديث : « **إياكم والظن فإن الظنّ أكذب الحديث** »(١).

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لا يأخذ العقل وحده بالتخرج في أحكامه ، والتثبت في استقرائه ، إنما يصل ذلك التخرج بالقلب في خواطره وتصوراته وفي مشاعره وأحكامه ، فلا يقول اللسان كلمة ولا يروي حادثة ولا ينقل رواية ، ولا يحكم العقل حكماً ولا يبرم الإنسان أمراً إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة في صحتها . ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾ حقاً وصدقاً [الإسراء : ٩] اهـ .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « **خيرُ المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده** » (٢)

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « **رحم الله امرءاً قال فغنم ، أو سكت فسلم** »(٣)

وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاءَ كلّها تُكفّرُ اللسان ، فتقول : اتق الله فينا ، فإنما نحن بك ، فإن استقمت استقمنا وإن**

---

(١) أخرجه الإمام مالك ، ٢/٢١٣ ــ ٢١٤ ، والإمام أحمد ٢/٢٤٥ و ٢٨٧ و ٢٦٥ و ٥١٧ . والبخاري (٥١٤٣) و (٦٠٦٦) ، ومسلم (٢٥٦٣) ، والترمذي (٢٠٥٥) عن أبي هريرة مرفوعاً . وله طرق أخرى عند الإمام أحمد والبخاري .

(٢) أخرجه مسلم عن ابن عمر ، وأخرجه الطبراني عن عمرو بن عبسة وأخرجه الطيالسي والدارمي وعبد بن حميد وأبو يعلي والطبراني في « الأوسط » وفي « الصغير » عن جابر . وأخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي والطبراني في « الكبير » عن أبي موسى .

(٣) أخرجه البغوي في حديث كامل بن طلحة ٢/٣ . وابن المبارك في « الزهد » (٣٨٠) ، والطبراني في « الكبير » (٧٧٠٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » ، والبيهقي في « الشعب » ، قال الشيخ الألباني في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » ٢/٥٣٦ فالحديث عندي حسن .
وأخرجه البيهقي أيضاً عن الحسن مرسلًا في « شعب الإيمان » .
وأخرجه أبو الشيخ عن أبي أمامة .
وأخرجه ابن المبارك عن خالد بن أبي عمران مرسلًا .

اعوججت اعوججنا »[1].

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **ألا أخبركم بشرار هذه الأمة ؟ الثرثارون المتشدقون المتفيهقون ، أفلا أنبئكم بخيارهم ؟ أحاسنهم أخلاقاً** »[2].

وعن ابن مسعود ، عن رسول الله ﷺ قال : « **ألا هلك المتنطعون** » قالها ثلاثاً[3].

وعن سهل بن سعد مرفوعاً : « **من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة** »[4].

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع** »[5].

وعن أبي سعيد ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يريد بها بأساً ، ليضحك بها القوم ، وإنه ليقع بها أبعد من السماء** » [6]

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالًا يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم** » [7]

عن سهل بن معاذ مرفوعاً : « **من يضمن لي ما بين لحييه ، وما بين رجليه ، أضمن له الجنة** » [8]

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٩) وهو حديث حسن انظر « صحيح الجامع » (٣٤٨) .
(٢) متفق عليه .
(٣) أخرجه مسلم ، وأبو داود .
(٤) أخرجه البخاري .
(٥) أخرجه أبو داود (٤٩٧١) ، وابن حبان (٣٠) ، والحاكم ١/١١٢ و ٢/٢٠ — ٢١ وقال : هذا إسناد صحيح .
(٦) أخرجه الإمام أحمد ، والترمذي وهو حديث صحيح .
(٧) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم .
(٨) أخرجه البخاري ، وأبو يعلى في « مسنده » وابن قانع ، وابن منده والضياء .

وعن عقبة بن عامر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك** »(١)

وعن بلال بن الحارث مرفوعاً : « **إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتبُ الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتبُ الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة** »(٢)

وعن أبي بكر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **ليس شيء من الجسد إلاّ وهو يشكو ذَرَبَ اللسان** »(٣)

وعن ابن مسعود ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **أكثر خطايا ابن آدم في لسانه** »(٤)

ما قيل في حفظ اللسان :

قال بعضهم :

يصاب المرء من عثرة بلسانه ... وليس يصاب المرء من عثرة الرّجل
فعثرته في القول تذهب رأسه ... وعثرته بالرِّجل تبرأ على مهل

وأنشد البغدادي :

أنت من الصمت آمن الزلل ... ومن كثير الكلام في وَجَل
لا تقل القول ثم تُتبعه ... يا ليت ما كنتُ قلتُ لم أقل

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦) وهو حديث صحيح انظر : « صحيح الجامع » (١٣٨٨) .
(٢) أخرجه الإمام مالك ، والإمام أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان في « صحيحه » والحاكم . وهو حديث صحيح انظر : « صحيح الجامع » .
(٣) أخرجه ابن عدي في « الكامل » والبيهقي في « الشعب » وهو حديث صحيح كما في « صحيح الجامع » (٥٢٧٢) .
(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » ، والبيهقي في « الشعب » وهو حديث حسن كما في « صحيح الجامع » (١٢١٢) .

وقال سعيد الكرمي :

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة   سِنّ ومالٍ ما استطعت ومذهب
فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة   بمكفر وبحاسد ومكذب

وقيل : إن رجلًا كتب إلى ابن عمر يسأله عن العلم ، فأجابه : إن العلم أكثر من أن أكتب به إليك ، ولكن إذا استطعت أن تلقى الله كاف اللسان عن أعراض المسلمين ، خفيف الظهر من دمائهم ، خميص البطن من أموالهم ، ملازماً لجماعتهم فافعل .

نصائح في اللسان

عن معاذ بن جبل ، عن رسول الله ﷺ قال : « أفضلُ الإيمان أن تحب لله وتبغض لله وتعمل لسانك في ذكر الله عز وجل وأن تحب للناس ما تحبُ لنفسك وتكره لهم ما تكرهُ لنفسك وأن تقول خيراً أو تصمت »(١).

وعن إياس بن سهل الجهني ، عن رسول الله ﷺ قال : « **أفضل الإيمان أن تحب لله وتبغض لله وتعمل لسانك في ذكر الله** »(٢).

من وصايا سليمان بن داود عليهما السلام : يا بني إسرائيل لا تُدخلوا أجوافكم إلا طيباً ولا تُخرجوا من أفواهكم إلاّ طيباً .

رحم الله من أطلق ما بين كفيه وحبس ما بين فكيه .

قال البستي :

تكلم وسدد ما استطعت فإنما كلامك حي والسكوت جماد
فإن لم تجد قولًا سديداً تقوله فصمتك عن غير السديد سداد

ومن أقوال الحكماء :

لا تبع هيبة السكوت بالرخيص من الكلام

قال علي رضي الله عنه : كل قول ليس لله فيه ذكر فهو لغو ، وكل صمت ليس فيه فكر فسهو وكل نظر ليس فيه اعتبار فلهو .

وقال حذيفة بن اليمان : أتحب أن تغلب شر الناس ؟ قال له نعم . فقال : إنك لن تغلبه حتى تكون شراً منه .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » .
(٢) أخرجه ابن منده .

وسمع علي بن أبي طالب رجلًا يتكلم بما لا يعنيه فقال : يا هذا إنما تملي على كاتبيك كتاباً إلى ربك .

ومن أمثال العرب :

إياك أن يضرب لسانك عنقك .
ربما كان السكوت جواباً .
الكلام أنثى والجواب ذكر .
سواء قوله وبوله .
الكذوب متهم وإن وضحت حجته وصدقت لهجته .
استح من ذم من لو كان حاضراً لبالغت في مدحه ، ومدح من لو كان غائباً لسارعت إلى ذمة .
لو صور الصدق لكان أسداً ولو صور الكذب لكان ثعلباً .
لو سكت من لا يعلم سقط الخلاف .
من لم يصبر على كلمة سمع كلمات .
اللسان صغير الجَرْم عظيمُ الجُرْمِ .
لسان العاقل من وراء قلبة وعقل الأحمق من وراء لسانه .
إياك وفضول الكلام فإنها تظهر من عيوبك ما بطن وتحرك من عدوك ما سكن .
من أفرط في الكلام زل ، ومن استخف بالرجال ذل .
أيسر شيء الدخول في العداوة ، وأصعب شيء الخروج منها .
إذا ذكر جليسك عندك أحداً بسوء فاعلم أنك ثانيه .
من رفعك فوق قدرك فاتقه .
من لا يقبل قوله فلا تصدق يمينه .
لا تصدق الحلّاف وإن اجتهد في اليمين .
من أفسد بين اثنين فعلى أيديهما هلاكه إذا اصطلحا .
النمام يخرج منك الكلام بالمناقير .
أتزعم أنك صائم وأنت في لحم أخيك سائم .

إذا رأيت من يغتاب الناس فاجهد جهدك أن لا يعرفك فإن أشقى الناس به معارفه .
عجبت للتاجر كيف يسلم وهو بالنهار يحلف وبالليل يحسب .
إياك وحكاية ما يُستبعد ، فيجد عدوك سبيلًا إلى تكذيبك ، فإن من صفات العاقل أن يحدث بما لا يستطاع تكذيبه .

حسود وبخيل :

وقف حسودٌ وبخيلٌ بحضرة أحد الملوك فقال لهما : اقترحا عَلَيَّ ، فإني أُعطي الثانِيَ ضِعْفَ ما يطْلُبُهُ الأوَّل . فصارَ أحدُهما يَقولُ لِلآخرِ اقترح أنتَ أولًا فتشاجرا طويلًا ولم يقترح أحدُهما شيئاً لئلا يُصيبَ رَفيقَهُ ضِعْفُ ما يُصيبُهُ هُوَ فقال الملكُ : إن لم تفعلا قطعتُ رَأْسَيْكُمَا . فقال الحسود : يا مولايَ ، إقْلَعْ إحْدىَ عَيْنَيَّ . فضحك الملكُ من مَكْرِهِ وأجاز الاثنين .

قال علي رضي الله عنه : الأشرار يتبعون مساوىء الناس ويتركون محاسنهم كما يتبع الذباب المواضع الفاسدة .

وقال عبد العزيز بن أبي رواد :وإبرار الدنيا الكذب وقلة الحياء ، من طلب الدنيا بغيرهما فقد أخطأ الطريق ، وابرار الاخرة الحياء والصدق ، ومن طلب الآخرة بغيرهما فقد أخطأ .

وقيل إن علياً قال : أربع من خصال الجهل : من غضب على من لا يرضيه ، وجلس إلى من لا يدينه ، وتفاقر إلى من لا يغنيه ، وتكلم بما لا يعنيه .

وشتم رجل سخنيس الحكيم فأمسك عنه ، فقيل له في ذلك فقال : لا أدخل حرباً الغالب فيها أشر من المغلوب .

الكلام ينقسم إلى أربعة أقسام :

قال الغزالي في « الإحياء » : وينقسم الكلام على أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة .

أما الذى هو ضرر : فلابد من السكوت عنه .
وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة : لا تفي بالضرر .
وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر : فهو فضول ، والاشتغال به تضييع للوقت .

فلا يبقى إلا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام ، وبقي الربع ، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم ، من دقائق الرياء ، والتصنع وتزكية النفس ، وفضول الكلام ، امتزاجاً يخفى دركه ، يكون الإنسان به مُخاطِراً .

وقــالوا :

المؤمن يُقلّ الكلام ويكثر العمل ، والمنافق يُكثر الكلام ويقل العمل .
لا أندم على ما لم أقل ، وقد أندم على ما قلت .
ما لم أتكلم بالكلمة ، فأنا أملكها ، فإن تكلمت بها ملكتني .
أنا على ردّ ما لم أقل ، أقدر مني على ردِّ ما قلت .
العجب ممَّن يتكلم بكلمة إن هي رفعت ضرَّته وإن لم تُرفع لم تنفعه .
إنّ لسان الحكيم من وراء قلبه ، فإذا أراد أن يقول ، رجع إلى قلبه ، فإن كان له قال ، وإن كان عليه أمسك ، والجاهل قلبه على طرف لسانه ، لا يرجع إلى قلبه ، ما أتى على لسانه تكلم .

ليس في الجسد مضغتان أطيب من القلب واللسان إذا طابا . ولا أخبث منهما إذا خبثا .

اجعلوا الكلام كلمتين : كلمة نافعة في أمر دنياكم ، وكلمة باقية في أمر آخرتكم .

وذكر رجل في مجلس قوم يأكلون الطعام ، فقال أحدهم : إن من قبلنا كانوا يأكلون الخبز قبل اللحم ، وأنتم بدأتم باللحم قبل الخبز .

وذكر رجل آخر بسوء أمام صاحبه ، فقال له : هل غزوت الروم ؟ قال : لا . قال : هل غزوت الفرس ؟ قال : لا . قال : سلم منك الروم والفرس ولم يسلم منك أخوك المسلم ؟ .

إن ضعفت عن ثلاث ، فعليك بثلاث ، إن ضعفت عن الخير ، فأمسك عن الشر ، وإن كنت لا تستطيع أن تنفع الناس ، فأمسك عنهم ضرك ، وإن كنت لا تستطيع أن تصوم ، فلا تأكل لحوم الناس .

المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده

قال تعالى : ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدَّ لهم عذابًا مهينًا ، والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا** ﴾ [الأحزاب : ٥٧ ــ ٥٨] .

يقول تعالى متهدداً ومتوعداً من آذاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وإيذاء رسوله بعيب أو بنقص عياذاً بالله من ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا** ﴾ أي ينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿ **فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا** ﴾ وهذا هو البهت الكبير أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص لهم .

عن عمرو بن عبسة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **الإسلام أن تسلم قلبك ويسلم المسلمون من لسانك ويدك** » قيل : فأي الإسلام أفضل ؟ قال : « **الإيمان** » قيل : وما الإيمان ؟ قال : « **أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت** » قيل : فأي الإيمان أفضل ؟ قال : « **الهجرة** » قيل : وما الهجرة ؟ قال : « **أن تهجر السوء** » قيل : فأي الهجرة أفضل ؟ قال : « **الجهاد** » قيل : وما الجهاد ؟ قال : « **أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم** » قيل : فأي الجهاد أفضل ؟ قال : « **من عقر جواده وأهريق دمه** »(١).

وعن جابر ، عن رسول الله ﷺ قال : « **أسلمُ المسلمين إسلاماً من سلم المسلمون من لسانه ويده** »(٢).

وفي رواية : « **أكمل المؤمنين من سلم المسلمون من لسانه ويده** »(٣).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والطبراني في « الكبير » ورجاله ثقات .
(٢) أخرجه ابن حبان في « صحيحه » .
(٣) أخرجه الحاكم .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه** » ...

وفي رواية : قالوا : أي الإسلام أفضل ؟ قال : « **من سلم المسلمون من لسانه ويده** »(١).

ما أكثر ما يدعي الإنسان فيه ، ويظهر بغير ما يبطن ، بل ما أكثر ما يخدع المرء نفسه فيزعم لها ما لم تتحقق به على الوجه الأتم ، فيرضى عنها وهي ليست أهلًا للرضا ، ومن رضي عن نفسه كثر الساخطون عليه ، وإن أكثر ما يصاب الناس بذلك من اكتفائهم بالمراسم والحدود الشكلية ، وغفلتهم عن مراقبة بواطنهم ، وامتحان سرائرهم ، حتى يتبين الخبيث من الطيب ، والصحيح من الزائف ، قال تعالى : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلُوَ أخبارَكُمْ** ﴾ [محمد : ٣١] . وما كان الله بحاجة في العلم إلى الابتلاء ، وما كان علمه حادثاً عن جهالة ، حاش لله ، وإنما هو أنه يتبين الأمر لذي عينين ، فلا يخدع امرؤ نفسه ، ولا يبقى لمخدوع أو خادع حجة ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ **آلم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون** ﴾ [العنكبوت : ١] . أي فما كانت دعوى الإيمان وحدها مقبولة حتى تؤتي ثمرها ، وتستتبع أثرها ، وهذا إنما يكون في حال المحنة واشتداد الفتنة ، كما يقول القائل :

إذا اشتبكت دموع في خدود تبيّن من بكى ممن تباكى

ولقد عرفت أركان الإسلام ، وأصول الإيمان ، ومراتب الإحسان كما بينه عليه الصلاة والسلام ، وتبين من بعض أحاديث الرسول ﷺ ما كان يتوخاه ﷺ في أمر المسلمين بالأعمال من أنه لا يعمد إلى العنت والمشقة ولا يخرج بهم عن حدود الطاقة ، فإن الأعمال يقصد منها تهذيب النفوس وتربيتها ، لتبلغ في الكمال والفضيلة المرتبة اللائقة بها .

(١) أخرجه البخاري ومسلم . وأخرجه عن أبي موسى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي والطبراني في « الكبير » . وأخرجه عن ابن عمر الطبراني في « الكبير » أيضاً . وأخرجه ابن عساكر عن أبي هريرة . وأخرجه الإمام أحمد والنسائي وأبو يعلي وابن حبان والحاكم والعسكري في « الأمثال » عن أنس بن مالك . انظر « كنز العمال » وهو حديث صحيح .

وإن هذا الحديث باب من أبواب الامتحان واختبار النفس في قولها : ﴿**أسلمت وجهي لله رب العالمين**﴾ أي تركت هوى نفسي وميولي وما أحب ، وجعلت ذلك كله تابعاً لمرضاة الله الذي أسلمت له وجهي وذاتي ، وإن رضاه أحب إليّ من والدي وولدي ومن نفسي التي بين جنبيّ ، إذا تم للمسلم ذلك فقد تم له أنه أسلم وجهه لله رب العالمين إسلاماً صادقاً لا مواربة فيه ولا خداع .

وإن من أجلى مظاهر ذلك ضبط نفسه حين يثور غضبها ، وتمكنها الفرصة من البطش بخصمها ، وتستطيع إنزال الأذى به وهو غير قادر على دفعها ، فإذا استطاع المسلم ضبط نفسه في هذه الحال حقيقة ، فقد أتى إسلامه ثمره ، واستتبع أثره ، وصح أن يوصف بأنه مسلم حقاً ، فالمسلم الذي أثمر الإسلام في نفسه وأينع ، هو من ملك الإسلام عليه جوارحه ، وقيد بأحكامه تصرفاته ، هو من لا يطاوع نزعات نفسه ، ووساوس شيطانه ، وثوران غضبه ، بل يطرح كل ذلك تحت قدميه ، ويقول : قد أسلمت نفسي وقواي لسيدي ومولاي ، لله رب العالمين ، فلا أتصرف فيها إلا بما يرضى مالكها ، وقد كبحني وزجرني ونهاني أن أقترف مع مسلم أذى ، فإذا لم أقف عند حدود أمره ونهيه فما أنا بصادق في دعواي أني أسلمت نفسي له .

على هذا تعرف أن ما أفادته الجملة من حصر المسلم فيمن هذه صفته وإفادتها نفى الإسلام عمن لم يتحقق بهذه الصفة ، هو من باب الحكم بنفي الحقيقة التي تنتج ثمرتها المقصودة منها ، وأمثال ذلك في الكلام الفصيح كثير تقول : ليس برجل من لم يدفع الضيم عمن التجأ إليه ، وليس بعالم من لم يعمل بعلمه ، وليس بابني من لم يقم بواجب برّي ، وليس بمسلم من لم يكف أذاه عن المسلمين ، وليس من الأسرة من يسعى في ضرر أفرادها ، وهلم جرا .. وعلى هذا لا يقال : هل من آذى المسلم يكفر ؟ ولا يقال : هل من سلم المسلمون من لسانه ويده ولو لم يأت بأركان الإسلام يعدّ مسلماً ؟ لا يقال هذا ولا ذاك ، لأن الكلام ليس في تحديد معنى المسلم وبيان الضابط الذي يجمع أفراده ويستوفي ماهيته ويخرج ما عداه ، كلا ، بل المعنى : أيها المسلمون ، إن بكم أن تختبروا نفوسكم وتتهموها فيما قد تلبس عليكم فيه ، وذلك بأن ترقبوها حين يتعارض هواها مع رضا ربها ، وأخص ذلك حال الغضب وثوران النفس مع إمكان القدرة على

الأذى ، فإن وجدتموها كفّت عن شرها وكظمت غيظها ابتغاء مرضاة ربها ، فقد سلمت لها دعواها ، فاشكروا لله نعمته ، وإن رأيتموها تمادت في الطغيان ومتابعة الشيطان ، فتنبهوا لما أصابكم في أعز ما تقصدون ، فالدين المعاملة ، والصلاة عادة ، والصوم جلادة ، فلا تثقوا بمجرد ذلك حتى يكون هوى نفوسكم تابعاً لما جاء به نبيكم .

وإلى هذا ينحو ما جاء في الرواية الأخرى ، وهي سؤال : « **أيّ الإسلام أفضل ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده** » فكلتا الحالتين حالة إسلام ، ولكن هذا إسلام أثمر وهذا إسلام أخلف وأجدب ، ولا يستوي بين المثمر والمخلف ، والسلامة من اللسان هي السلامة من الهمز ، والاستهزاء ، والغيبة ، والنميمة ، وشهادة الزور ، وغير ذلك من المضار التي قد تأتي على الحرث والنسل ، وتهلك النفوس ، وتخرب البيوت .

جراحات السنان لها التئام ولا يلتأم ما جرح اللسان

فرب كلمة أهلكت قبيلة ، ودمّرت مدينة ، بل رب كلمة أفسدت مُلكاً كبيراً ، وبهذا يتبين سر تقديم اللسان على اليد ، فخطره أشد ، والتحذير منه آكد ، و السلامة من اليد يدخل فيها السلامة من القتل ، والسرقة ، والنهب ، والضرب ، وأمثالها . وعلى العموم فإن أنواع الأذى قد تعورف فيها أنها دائرة بين القولي والفعلي ، ومظهر القولي غالباً اللسان وإن جرت به اليد ، كالكتابة ، والإشارة ، ومثلها العين في إشارتها وغمزاتها ، ومظهر الفعلي غالباً اليد ، فهي مظهر القدرة عادة ، وإن جرت الأذية الفعلية في بعض الأحيان بغيرها ، كالركل بالرجل ، ومن الأذى الفعلي استيلاء اليد المعنوية ، كغصب الدور والعقار ، بمظهر القوة بلا استعمال يد ، بل بنحو إصدار أمر لاتباعه ، وأمثال ذلك ، فذلك كله من الأذى الفعلي الداخل في قوله : « **ويده** » .

والتعبير بالمسلمين ليس بقيد بل مثلهم المسلمات ، ومثلهم الكتابيون الذين لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، إنما التعبير به لأنه الغالب الذي يعتبر مظهراً لتأثير الإسلام في تربية النفس وتهذيبها ، وتعويدها الضبط على مقتضى أحكام الدين . ومن كفّ عن أذى المسلمين الذين تكثر المعاملة معهم عادة — وهي مدعاة التعديات — وكان كفّه امتثالاً لحكم إسلامه ، فهو كافٌ أيضاً عن غيرهم ، حيث نهاه دينه عن أذاهم ، والمراد الأذى

بغير حق ، فليس من الأذى المنهي عنه إقامة الحدود والتعزيزات ، فهي نفع وإرشاد لا أذى . « **والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه** » .

لقد كان للهجرة في صدر الإسلام مقام رفيع عظيم الخطر ، وكانت عنوان شرف ومجد لمن هاجر من المسلمين ، نوّه بها القرآن الكريم في غير ما آية ، فلما فتحت مكة وأمن الناس في ديارهم على الاستمساك بدينهم ، لم يبق موجب لتحصيلها ، فجاءت هذه الجملة الجامعة مبينة أن الفضل في الحقيقة ليس راجعاً إلى مغادرة مكان إلى مكان ، وإنما المقصد الحقيقي هو الفرار من الافتتان ، والهرب من الوقوع في مخالب الشيطان ، بمعاشرة من تغلّب فيهم الكفر والعصيان ، فلا يزال هذا الباب بحسب سره ومقصده الحقيقي مفتوحاً ، وإن فات مظهره المحسوس ، فالمسلم في كل حالاته عرضة لفتنة الشيطان ، ووسوسة النفس ، ومنازعة الهوى ، وكل هذه جنود سوء تحاول أن تستولي عليه حتى تفسد عليه دينه ، فمن انتزع نفسه من تلك الجنود المحيطة به تحاول أن ترديه وتهلكه وفر منها إلى ربه فقد هجر ما أحاط به مما ألفه ألفة المرء لوطنه وخلانه .

وهل ترى فرقاً بين انتزاع المرء نفسه من هوى متغلب عليه ونفس متسلطة وشيطان متحكم ، وبين انتزاع جسمه من الأوطان والأتراب والخلان ؟ إن المجاهدة هي المجاهدة ، والمشقة في الحالين واحدة ، والمقصود الحقيقي هو السعي لسلامة النفس مما يوقعها في غضب الله وسخطه .

فضل رجحان العقل على الكلام

قال محمد بن الغار : دخل رجل على سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين فتكلم بكلام أعجبه ، فأراد أن يختبره لينظر عقله ، فوجد كلامه أكثر من عقله ، فقال : فضل العقل على المنطق حكمة ، وفضل المنطق على العقل هجنة ، وخير الأمور ما صدق بعضها بعضاً وأنشد :

وما المرء إلا الأصغران لسانه ومعقوله والجسم خلق مصور
فإن تر منه ما يروق فربما أمر مذاق العود والعود أخضر

أقوال البلغاء في أطيب الكلام

قال أحد البلغاء : أبلغ الكلام ما حسن إيجازه ، وقل مجازه ، وكثر إعجازه ، وتناسبت صدوره وأعجازه .

وقال غيره : أبلغ الكلام ما يؤنس مسمعه ، ويؤيس مضيعه .

وقال سواهما : ليست البلاغة أن يطال عنان القلم أو سنانه ، أو يبسط رهان القول وميدانه ، بل هي أن يبلغ أمد المراد ، بألفاظ أعيان ، ومعان أفراد ، من حيث لا تزيد على الحاجة ، ولا في إخلال يفضي إلى الفاقة .

ووصف أهل البيان البليغ فقالوا : فلان يعبث بالكلام ، ويقوده بألين زمام ، حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره ، والمعاني تتغاير في الانثيال على أنامله .

إلى هذا يشير أبو تمام الطائي بقوله :

تغاير الشعر فيه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتتل

الحذر قبل الكلام

أوصى عبد الله بن الحسن ولده فقال :

أي بني : إني مؤد حق الله في تأديبك ، فأد إلي حق الله في الاستماع مني ، أي بني : كف عن الأذى ، وارفض البذا ، واستعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى الكلام فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ، ولا ينفع فيها الصواب ، واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً ، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشاً ، لأنه يرديك بمشورته . واعلم يا بني أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته دائماً ووجدت هواك يقظان ، فإياك أن تستبد برأيك فإنه حينئذ هواك . ولا تفعل فعلًا إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا ترديك ، وأن نتيجته لا تجني عليك ، وإياك ومعاداة الرجال ، فإنك لن تعدم مكر حليم ، أو معاداة لئيم .

الاقتصاد في الكلام

قال ابن مسعود رضي الله عنه : لسانك سيف قاطع يبدأ بك ، وكلامك سهم نافذ يرجع عليك ، فاقتصد في المقال ، وإياك وما يوغز صدور الرجال .

وقال أعرابي : الكلمة أسيرة في وثاق الرجل ، فإذا تكلم عاد أسيراً في وثاقها .

وقالوا : من أطلق لسانه بما يحب ، كان أكثر مقامه حيث لا يحب .

وقال صعصعة بن صوحان : طول اللسان يقصر الأجل ، وخطأ القول يصيب المقتل .

وقال علي كرم الله وجهه : اللسان معيار أطاشه الجهل ، وأرجحه العقل .

وقال بعض الحكماء : الزم الصمت فإنه يكسبك صفو المحبة ، ويؤمنك سوء

المغبة ، ويلبسك ثوب الوقار ، ويكفيك مئونة الاعتذار .

والمراد مما قدمنا : أن العاقل لا يطلق لسانه إلا بعد مشاورة الروية ، ومؤامرة الفكرة ، والأحمق تسبق حذفات لسانه وفلتات كلامه مراجعة فكره ومماخضة رأيه ، فكأن لسان العاقل تابع لقلبه ، وكأن قلب الأحمق تابع للسانه .

آداب الكلام

قال حكيم : اعقل لسانك إلا عن حق توضحه ، أو باطل تدحضه ، أو حكمة تنشرها ، أو نعمة تذكرها .

وقال بعض الشعراء :

رأيت العز في أدب وعقل ... وفي الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن ... إذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيباً أن تراه ... له وجه وليس له بيان

وقال بعض الحكماء : إذا جالست الجهال فأنصت لهم وإذا جالست العلماء فأنصت لهم ، فإن في إنصاتك للجهال زيادة في الحلم ، وفي إنصاتك للعلماء زيادة في العلم .

وقال عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين : من لم يعد كلامه من عمله ، كثرت خطاياه .

وقال بعض الحكماء : كلام المرء بيان فضله ، وترجمان عقله ، فاقصره على الجميل ، واقتصر منه على القليل .

وقال غيره : الحصر خير من الهذر ، لأن الحصر يضعف الحجة ، والهذر يتلف المحجة .

وقال الجاحظ : للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن مقدار الاحتمال ، ودعا إلى الاستثقال والملال ، فذلك الفاضل هو الهذر .

حد الاعتدال في الكلام

قال جعفر بن يحيى : إذا كان الايجاز كافياً ، كان الاكثار عياً ، وإن كان الاكثار واجباً ، كان التقصير عجزاً .

وقال بعض الحكما : (إذا تم العقل ، نقص الكلام) .

وقوف الإنسان عند حد ما يعلمه

قال بعض الحكماء : من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم ، فحسبك جهلًا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم .

ولقد أحسن زرارة بن زيد حيث يقول :

إذا ما انتهى علمي تناهيت عنده أطال فأملى أو تناهى فأقصرا
ويخبرني عن غائب المرء فعله كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

فضيلة الصمت

قال أبو الدرداء : أنصف أذنيك من فيك ، فإنما جعل لك أذنان اثنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تقول .

وقال المهلب بن أبي صفرة : لأن أرى لعقل الرجل فضلًا على لسانه ، أحب إلي من أن أرى للسانه فضلًا على عقله .

وقال سالم بن حيان : صاحب الكلام بين منزلتين : إن قصر فيه خصم ، وإن أعرق فيه أثم .

وقال أكثم بن صيفي : مقتل الرجل بين فكيه .

وقال بعض الحكماء :

حظي من الصمت لي ونفعه مقصور علي ، وحظي من الكلام لغيري ووباله راجع علي .

قالوا : وأعدل شيء قيل في الصمت والمنطق قولهم : الكلام في الخير كله أفضل من الصمت ، والصمت في الشر كله أفضل من الكلام .

قال عبدالله بن المبارك يرثى الإمام مالك :

صموت إذا ما الصمت زين أهله وفتاق أبكار الكلام المختم
وعى ما وعى القرآن من كل حكمة ونيطت له الآداب باللحم والدم

وقالوا لسانك كالسبع إن عقلته حرسك ، وإن أرسلته افترسك .

وقال أبو نواس :

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

ربما استفتحت بالنطق مغاليق الحمام .

إنما السالم من ألجم فاه بلجام .

وقال أديب :

اخزن لسانك كما تخزن مالك ، واعرفه كما تعرف ولدك وزنه كما تزن نفقتك ، وأنفق منه بقدر ، وكن منه على حذر ، فإن إنفاق ألف درهم في غير وجهها ، أيسر من إطلاق كلمة في غير حقها .

«مما قيل في حفظ اللسان»

قال بعضهم :

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى ودينك موفور وعرضك صين
فلا ينطق منك اللسان بسوأة فللناس سوآت وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساويا لقوم فقل يا عين للناس أعين
فعاشر بإنصاف وكن متودداً ولا تلق إلا بالتي هي أحسن

«الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالقلب»

قال تعالى : ﴿ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ﴾ [آل عمران : ١٦٧]

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴾ [المائدة : ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ [الفتح : ١١] .

قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴾ [آل عمران : ١٦٧] . يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته .

وقال في آية المائدة : نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر الخارجين عن طاعة الله ورسوله المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل : ﴿ من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴾ [المائدة : ٤١] . أي أظهروا الإيمان بألسنتهم وقلوبهم خراب خاوية منه وهؤلاء هم المنافقون .

وقال في آية الفتح : يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ . وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة ولهذا قال تعالى : **﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ؟ ﴾** [الفتح : ١١] .

عن أنس ، عن رسول الله ﷺ قال : « **الإسلام علانية ، والإيمان في القلب ، التقوى في القلب — وأشار بيده إلى صدره** »(١) .

وعن أبي هريرة قال : قال لي رسول الله ﷺ : « **اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة** »(٢) .

وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة وإن زنى وإن سرق وإن زنى وإن سرق وإن زنى وإن سرق رغم أنف أبي ذر** »(٣) .

وعن معاذ قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من نفس تموت وهي تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله يرجع ذلك إلى قلب موقن إلّا غفر الله له** »(٤) .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ : « **يا معاذ بن جبل : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله صدقاً من قلبه إلّا حرمه الله على النار** » قال : يا رسول الله ، فلا أخبر الناس فيستبشروا ؟ قال : « **إذاً يتكلوا** »(٥) .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، فيم نجاة هذا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والنسائي ، وأبو يعلي في مسنده ، وصحح .
(٢) أخرجه الإمام مسلم .
(٣) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن ماجه .
(٤) أخرجه الإمام أحمد ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان في « صحيحه » .
(٥) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ومسلم ..

الأمر ؟ قال : « **في الكلمة التي راودتُ عليها عمي فأباها ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله** » (١).

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله سيُخلِّصُ رجلًا من أمتي على رؤوس الخلا ئق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنةً وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتُخرَجُ بطاقةٌ فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول : أحضر وزنك . فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : فإنك لا تُظلم فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله تعالى شيء** » (٢).

وأخرج ابن جرير عن حذيفة أنه قيل له : ما النفاق ؟ قال : الرجل يتكلم الإسلام ولا يعمل به .

وعن معاوية الهذلي وكان من أصحاب النبي ﷺ قال : إن المنافق ليصلي فيكذبه الله ، ويتصدق فيكذبه الله ، ويقاتل فيُقتل فيجعل في النار .

---

(١) أخرجه أخرجه الطبراني في « الأوسط » ، والإمام أحمد ، وابن أبي شيبة وأبو يعلي في « مسنده » والبيهقي في « الشعب » وصحح . وقد رواه كلهم بطرق متعددة .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، والترمذي ، والحاكم ، والبيهقي في « الشعب » وأخرجه البخاري ، والحاكم عن ابن عمرو . وأخرجه عبد بن حميد كلهم من طرق وألفاظ متقاربة .

«الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان»

قال تعالى : ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون**﴾ [البقرة : ٤٤] .

قال ابن كثير(١) : يقول تعالى كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله ؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم ، فتنبهوا من رقدتكم ، وتتبصروا من عمايتكم .

وهذا كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى : ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**﴾ قال : كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر ويخالفون فعيرهم الله عز وجل وكذلك قال السدي وقال ابن جرير : ﴿**أتأمرون الناس بالبر**﴾ أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة ويدعون العمل بما يأمرون به الناس فعيرهم الله بذلك فمن أمر بخير فليكن أشدّ الناس فيه مسارعة .

وأخرج ابن جرير عن أبي قلابة في قوله تعالى : ﴿**أتأمرون الناس بالبر ..**﴾ الآية . قال أبو الدرداء : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشدّ مقتاً .

والغرض : أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له بل على تركهم له فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب عليه السلام : ﴿**وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب**﴾ [هود : ٨٨] .

(١) « تفسير القرآن العظيم » ٨٥/١ .

فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف .

والصحيح : أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله وينهي عن المنكر وإن ارتكبه ، قال مالك عن ربيعة : سمعت سعيد بن جبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهي عن منكر .

قال مالك : وصدق ، من ذا الذي ليس فيه شيء ؟

قلت : لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك كما قال الطبراني في «الكبير» عن جندب بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : «**مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه**» .

وأخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «**مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، قلت : من هؤلاء ؟ قالوا : خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم**» .

وأخرج ابن مردويه وابن حبان وابن أبي حاتم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «**مررت ليلة أسري بي على أناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار ، قلت : من هؤلاء يا جبريل قال : هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم**» .

وأخرج الإمام أحمد عن أبي وائل قال : قيل لأسامة وأنا رديفه ألا تكلم عثمان ؟ فقال : إنكم ترون أني لا أكلمه ألا أسمعكم إني لأكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمراً لا أحب أن أكون أوّل من افتتحه والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإن كان عليّ أميراً بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول : قالوا : وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : «**يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقي في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون : يا فلان ما أصابك ألم تكن تأمرنا**

بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه »(١) .

وأخرج الإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله يعافي الأميين يوم القيامة ما لا يعافي العلماء** » . قال تعالى : ﴿ **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب** ﴾ .

وروى ابن عساكر في ترجمة الوليد بن عقبة عن النبي ﷺ قال : « **إن أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم ، فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل** » ورواه ابن جرير .

وقال الضحاك عن ابن عباس : إنه جاءه رجل فقال : يا ابن عباس إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، قال : أبلغت ذلك ؟ قال : أرجو ، قال : إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل ، قال : وما هنّ ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** ﴾ [البقرة: ٤٤] أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثاني قال : قوله تعالى : ﴿ **لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون** ﴾ [الصف: ٣] أحكمت هذه ؟ قال : لا . قال : فالحرف الثالث ، قال : قول العبد الصالح شعيب عليه السلام : ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلّا الإصلاح** ﴾ [هود : ٨٨] أحكمت هذه الآية ؟ قال : لا ، قال : فابدأ بنفسك(٢) .

وأخرج الطبري عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « **من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال أو دعا إليه** » .

وقال إبراهيم النخعي : إني لأكره القصص لثلاث آيات وذكرهم ..

وقال في قول شعيب عليه السلام : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي**

---

(١) وأخرجه البخاري ومسلم بنحوه عن أسامة بن زيد واللفظ هنا للإمام أحمد .

(٢) رواه ابن مردويه ، وهو في « اللطائف » انظر : « مسند الأمثال والحكم » للمؤلف ص ١٠٢ .

ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ [هود: ٨٨] .

قال : يقول لهم أرأيتم يا قوم إن كنت على بصيرة فيما أدعو إليه ورزقني النبوة ولا أريد أن أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم كما قال قتادة : يقول : لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت فيما آمركم وأنهاكم وما توفيقي في إصابة الحق فيما أريده في جميع أموري إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ــ أي أرجع ــ قاله مجاهد .

أخرج الإمام أحمد عن عبدالملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال : سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان عنه ﷺ أنه قال : « **إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه** » وإسناده صحيح .

ومعناه والله أعلم : مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به ، ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه .

وعن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : تنهى عن الواصلة ؟ قال : نعم . قالت : فعله بعض نسائك ، فقال : ما حفظت وصية العبد الصالح إذًا **﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾** .

وقال عثمان بن أبي شيبة : حدثنا جرير ، عن أبي سليمان الضبي قال : كانت تجيئنا كتب عمر بن عبدالعزيز فيها الأمر والنهي فيكتب في آخرها : وما كنت من ذلك إلّا كما قال العبد الصالح : **﴿ وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾** [هود: ٨٨] .

وقال في قوله تعالى : **﴿ ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾** [الصف: ٢ ــ٣] .

قال : إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولًا لا يفي به . ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً .

ذهب الإمام مالك إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود وجب الوفاء به كما لو قال لغيره تزوج ولك عليّ كل يوم كذا فتزوج وجب عليه أن يعطيه مادام كذلك لأنه تعلق به حق آدمي وهو مبني على المضايقة . وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم فلما فرض نكل عنه بعضهم كقوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا** ﴾ [النساء: ٧٧] . ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة** ﴾ [النساء: ٧٩] . وقال تعالى : ﴿ **ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت** ﴾ الآية [محمد: ٢٠] . وهكذا هذه الآية معناها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون** ﴾ قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون** ﴾ [الصف : ٢] .

وهذا اختيار ابن جرير .

وقد قرن الله سبحانه وتعالى العمل بالإيمان في كثير من آيات القرآن الكريم ، نستعرض بعضها للعبرة والذكرى ..

قال تعالى : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأُتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواجٌ مطهرةٌ وهم فيها خالدون** ﴾ [البقرة: ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ [البقرة: ٨٢] .

وقال تعالى : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرُهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة : ٢٧٧] .

وقال تعالى : ﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين﴾ [آل عمران : ٥٧] .

وقال تعالى : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلًا ظليلًا﴾ [النساء : ٥٧] .

وقال تعالى : ﴿والعصر * إنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [العصر : ١ــ٣] .

قال ابن كثير رحمه الله(١) : ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو فقال له مسيلمة ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ؟ فقال : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ .. ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال : وقد أنزل عليّ مثلها ، فقال له عمرو : وما هو ؟ فقال : يا وبر يا وبر ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسترك حفر نقر . ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم إني أعلم أنك تكذب .

قال : وقد رأيت أبا بكر الخرائطي أسند في كتابه المعروف « بمساوىء الأخلاق » في الجزء الثاني منه شيئاً من هذا أو قريباً منه . والوبر دويبة تشبه الهر أعظم شيء فيه أذناه وصدره وباقيه دميم ، فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن ، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان .

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » ٥٤٧/٤ .
(٢) « في ظلال القرآن » ٦٥١/٨ .

وذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبيد الله بن حصن قال كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر .

وقال الشافعي رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم .

قال سيد رحمه الله : في هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام ، وتبرز معالم التصور الإيماني بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة ، إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار . وتصف الأمة المسلمة : حقيقتها ووظيفتها ، في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة .. وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله .

والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي هذه :

إنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار ، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار ، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح ، وطريق واحد ناج ، هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده ، وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه ، وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار ...

إنه الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر . فما الإيمان ؟

نحن لا نعرّف الإيمان هنا تعريفه الفقهي ، ولكننا نتحدث عن طبيعته وقيمته في الحياة .

إنه اتصال هذا الكائن الإنساني الفاني الصغير المحدود بالأصل المطلق الأزلي الباقي الذي صدر عنه الوجود ، ومن ثم اتصاله بالكون الصادر عن ذات المصدر ، وبالنواميس التي تحكم هذا الكون ، وبالقوى والطاقات المذخورة فيه ، والانطلاق حينئذ من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير ، ومن حدود قوته الهزيلة إلى عظمة الطاقات الكونية المجهولة ، ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله .

وفضلاً عما يمنحه هذا الاتصال للكائن الإنساني من قوة وامتداد وانطلاق ، فإنه يمنحه إلى جانب هذا كله متاعاً بالوجود وما فيه من جمال ، ومن مخلوقات تتعاطف

أرواحها مع روحه ، فإذا الحياة رحلة في مهرجان إلهي مقام للبشر في كل مكان وفي كل أوان .. وهي سعادة رفيعة ، وفرح نفيس ، وأنس بالحياة والكون كأنس الحبيب بالحبيب ، وهو كسب لا يعدله كسب ، وفقدانه خسران لا يعدله خسران ..

ثم إن مقومات الإيمان هي بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة .

التعبد لإله واحد ، يرفع الإنسان عن العبودية لسواه ، ويقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد ، فلا يذل لأحد ، ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار .. ومن هنا الانطلاق التحرري الحقيقي للإنسان ، الانطلاق الذي ينبثق من الضمير ومن تصور الحقيقة الواقعة في الوجود ، إنه ليس هناك إلا قوة واحدة وإلا معبود واحد . فالانطلاق التحرري ينبثق من هذا التصور انبثاقاً ذاتياً ، لأنه هو الأمر المنطقي الوحيد .

والربانيّة التي تحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان تصوراته وقيمه وموازينه واعتباراته وشرائعه وقوانينه ، وكل ما يربطه بالله ، أو بالوجود ، أو بالناس ، فينتفي من الحياة الهوى والمصلحة ، وتحل محلها الشريعة والعدالة ، وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه ، وتمده بالاستعلاء على تصورات الجاهلية وقيمها واعتباراتها وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة .. ولو كان فرداً واحداً ، لأنه إنما يواجهها بتصورات وقيم واعتبارات مستمدة من الله مباشرة فهي الأعلى والأقوى والأولى بالاتباع والاحترام .

ووضوح الصلة بين الخالق والمخلوق ، وتبين مقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتهما الناصعة ، مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد ، وبلا وساطة في الطريق ، ويودع القلب نوراً ، والروح طمأنينة ، والنفس أنساً وثقة . وينفي التردد والخوف والقلق والاضطراب ، كما ينفي الاستكبار في الأرض بغير الحق ، والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء !

والاستقامة على المنهج الذي يريده الله ، فلا يكون الخير فلتة عارضة ، ولا نزوة طارئة ، ولا حادثة منقطعة ، إنما ينبعث عن دوافع ، ويتجه إلى هدف ، ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون في الله ، فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح ، والراية الواحدة المتميزة ، كما تتضامن الأجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الجيل المتميز ..

والاعتقاد بكرامة الإنسان على الله ، يرفع من اعتباره في نظر نفسه ، ويثير في ضميره الحياء من التدني عن المرتبة التي رفعه الله إليها ، وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه ... أنه كريم عند الله ... وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان في نظر نفسه ، ويرده إلى منبت حقير ، ويفصل بينه وبين الملأ الأعلى .. هو تصور أو مذهب يدعوه إلى التدني والتسفل ولو لم يقل له ذلك صراحة !!

ونظافة المشاعر تجيء نتيجة مباشرة للشعور بكرامة الإنسان على الله ، ثم برقابة الله على الضمائر واطلاعه على السرائر .. ليستحي أن يطلع إنسان مثله على شوائب ضميره وخائنة شعوره ، والمؤمن يحسن وقع نظر الله سبحانه في أطواء حسه إحساساً يرتعش له ويهتز ، فأولى أن يطهر حسه هذا وينظفه !

والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حليم ، يكره الشر ويحب الخير ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وهناك التبعة المترتبة على حرية الإرادة وشمول الرقابة ، وما تثيره في حس المؤمن من يقظة وحساسية ، ومن رزانة وتدبر ، وهي ليست تبعة فردية فحسب ، إنما هي كذلك تبعة جماعية ، وتبعة تجاه الخير في ذاته ، وإزاء البشرية جميعاً .. أمام الله .. وحين يتحرك المؤمن حركة فهو يحس بهذا كله ، فيكبر في عين نفسه ، ويقدر نتيجة خطوه قبل أن يمد رجله .. إنه كائن له قيمة في الوجود ، وعليه تبعة في نظام هذا الوجود .

والارتفاع عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا وهو بعض إيحاآت الإيمان واختيار ما عند الله ، وهو خير وأبقى ﴿ **وفي ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾ [المطففين : ٢٦] .. والتنافس على ما عند الله يرفع ويطهر وينظف .. يساعد على هذا سعة المجال الذي يتحرك فيه المؤمن .. بين الدنيا والآخرة ، والأرض والملأ الأعلى ، مما يهدىء في نفسه القلق على النتيجة والعجلة على الثمرة ، فهو يفعل الخير لأنه الخير ، ولأن الله يريده ، ولا عليه ألا يدّر الخير خيراً على مشهد من عينيه في عمره الفردي المحدود ، فالله الذي يفعل الخير ابتغاء وجهه لا يموت سبحانه ولا ينسى ، ولا يغفل شيئاً من عمله ، والأرض ليست دار جزاء ، والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف ، ومن ثم يستمد القدرة على

مواصلة الخير من هذا الينبوع الذي لا ينضب ، وهذا هو الذي يكفل أن يكون الخير منهجاً موصولًا ، لا دفعة طارئة ولا فلتة مقطوعة ، وهذا هو الذي يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التي يقف بها في وجه الشر ، سواء تمثل في طغيان طاغية ، أو في ضغط الاعتبارات الجاهلية ، أو في اندفاع نزواته هو وضغطها على إرادته ، هذا الضغط الذي ينشأ أول ما ينشأ من شعور الفرد بقصر عمره عن استيعاب لذائذه وتحقيق أطماعه ، وقصره كذلك عن رؤية النتائج البعيدة للخير ، وشهود انتصار الحق على الباطل ، والإيمان يعالج هذا الشعور علاجاً أساسياً كاملًا .

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير ، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير ، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره ، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته ، صائر إلى ذبول وجفاف ، وإلا فهي ثمرة شيطانية ، وليس لها امتداد أو دوام !

وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة ، وإلا فهي مفلتة لا تمسك بشيء ، ذاهبة بدداً مع الأهواء والنزوات ..

وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال ، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون ، وينسلك في طريق واحد ، وفي حركة واحدة ، لها دافع معلوم ، ولها هدف مرسوم ..

ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل ، ولا يشد إلى هذا المحور ، ولا ينبع من هذا المنهج ، والنظرية الإسلامية صريحة في هذا كل الصراحة .. جاء في سورة إبراهيم : ﴿ **مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء** ﴾ [إبراهيم : ١٨] .. وجاء في سورة النور : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا** ﴾ [النور : ٣٩] .. وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله ، ما لم يستند إلى الإيمان ، الذي يجعل له دافعاً موصولًا بمصدر الوجود ، وهدفاً متناسقاً مع غاية الوجود ، وهذه هي النظرية المنطقية لعقيدة ترد الأمور كلها إلى الله فمن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه .

إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنساني ، وتناسقه مع فطرة الكون كله ، ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله ، فهو يعيش في هذا

الكون ، وحين يصح كيانه لابد أن يقع بينه وبين هذا الكون تجاوب ، ولابد أن ينتهي هذا التجاوب إلى الإيمان ، بحكم ما في الكون ذاته من دلائل وإيحاءات عن القدرة المطلقة التي أبدعته على هذا النسق ، فإذا فقد هذا التجاوب أو تعطل ، كان هذا بذاته دليلًا على خلل ونقص في الجهاز الذي يتلقى ، وهو هذا الكيان الإنساني ، وكان هذا دليل فساد لا يكون معه إلا الخسران ، ولا يصح معه عمل ولو كان في ظاهره مسحة من الصلاح .

وإن عالم المؤمن من السعة والشمول والامتداد والارتفاع والجمال والسعادة بحيث تبدو إلى جانبه عوالم غير المؤمنين صغيرة ضئيلة هابطة هزيلة شائهة شقية .. خاسرة أي خسران !

والعمل الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان ، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقرّ فيها حقيقة الإيمان في القلب ، فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة ، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح .. هذا هو الإيمان الإسلامى .. لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك ، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن .. فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت ، شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها ، فهو ينبعث منها انبعاثاً طبيعياً ، وإلا فهو غير موجود !

ومن هنا قيمة الإيمان .. إنه حركة وعمل وبناء وتعمير .. يتجه إلى الله ، إنه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير ، وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة ، وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة .

وهذا مفهوم مادام الإيمان هو الارتباط بالمنهج الرباني ، وهذا المنهج حركة دائمة متصلة في صميم الوجود ، صادرة عن تدبير ، متجهة إلى غاية ، وقيادة الإيمان للبشرية هي قيادة لتحقيق منهج الحركة التي هي طبيعة الوجود ، الحركة الخيرة النظيفة البانية المعمرة اللائقة بمنهج يصدر عن الله اهـ .

قال معاذ بن جبل : تعلموا ما شئتم أن تتعلموا ، فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا .

وقال أبو الدرداء : لا يكون أحدكم تقياً حتى يكون عالماً ولن يكون العلم جميلًا حتى يكون به عاملًا .

وقال بعض الحكماء : أما بعد ، فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك واستح من الله بقدر قربه منك وخفه بقدر قدرته عليك .

وقال بعضهم : لست منتفعاً بما تعلم ما لم تعمل بما تعلم ، فإن زدت في علمك فأنت مثل رجل حزم حزمة من حطب وأراد حملها فلم يطق فوضعها وزاد عليها .

وقال علي رضي الله عنه لرجل سأله أن يعظه : لا تكن ممن يرجو الآخرة بلا عمل ، ويرجو التوبة بطول الأمل ، يقول في الدنيا بقول الزاهدين ، ويعمل فيها بقول الراغبين ، إن أُعطي منها لم يشبع وإن منع لم يقنع ، يَنهَى ولا ينتهي ، ويأمر بما لا يأتي ، يحب الصالحين ولا يعمل عملهم ، ويبغض المذنبين وهو أحدهم ، ويكره الموت لكثرة ذنوبة ، ويقيم على ما يكره الموت له إن سقم ظل نادماً ، وإن صح أمن لاهياً ، تغلبه نفسه على ما يظن ، ولا يغلبها على ما يستيقن ، يخاف على غيره بأدنى من ذنبه ، ويرجو لنفسه بأكثر من عمله ، إن عرضت له شهوة أسلف المعصية ، وسوف التوبة ، يصف العبر ولا يعتبر ، ينافس فيما يفنى ، ويسامح فيما يبقى ، يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه ، يحكم على غيره لنفسه ولا يحكم عليها لغيره ، يرشد غيره ، ويغوي نفسه .

وقال الحسن : العالم الذي وافق علمه عمله ، ومن خالف علمه عمله فذلك راوية حديث سمع شيئاً فقاله .

وقال أيضاً : إن أشد الناس حسرة يوم القيامة رجلان رجل نظر إلى ماله في ميزان غيره سعد به وشقي هو به ، ورجل نظر إلى علمه في ميزان غيره سعد به وشقي هو به .

واعظ ونحوي :

جلس نحوي إلى جانب واعظ فلحن الواعظ فقال له النحويُّ أخطأتَ ولحنتَ ، فقال الواعظُ بديهةً : أيها المُعْرِبُ في أقواله ، اللاحنُ في أفعاله هَلّا رفعت يدك بالدعاء

في جميع الحاجات ونصبتَ بين عينيك ذكر الممات ، وَخَفَّفْتَ نفسكَ عَنْ اتباعِ الشهواتِ ، وجزمتها على تركِ المحرمات ، أما علمتَ أنه لا يقال لك يوم القيامة لِمَ لَمْ تكن فصيحاً مُعْرِباً ، بل يقال لك لم كنت عاصياً مذنباً .

وقال عمر بن عتبة لمعلم ولده : ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك ، فإن عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت .

وذكر في « الآداب الكبرى » أن أبا العتاهية قال في ابن السماك الواعظ :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذ عبت منهم أموراً أنت آتيها
كالملبس الثوب من عرى وعورته للناس بادية من أن يواريها
وأعظم الإثم بعد الشرك تعلمه في كل نفس عماها عن مساويها
عرفانها بعيوب الناس تبصرها منهم ولا تبصر العيب الذي فيها

وذكر الحافظ ابن رجب في كتابه : « لطائف المعارف » قال : كان يحيى بن معاذ ينشد في مجلسه :

مواعظ الواعظ لن تقبلا حتى تعيها نفسه أولا
يا قوم من أظلم من واعظ خالف ما قد قاله في الملا
أظهر بين الناس إحسانه وبارز الرحمن لما خلا

وأنشد أبو العتاهية :

وبخت غيرك بالعمى فأفدته بصراً وأنت محسن لعماكا
وفتيلة المصباح تحرق نفسها وتضيء للأعشى وأنت كذابا

وقال غيره :

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي الناس وهو سقيم

وقال غيره :

يا أيها الرجل المقوم غيره هلا لنفسك كان ذا التقويم
فأبدأ بنفسك فانهها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال آخر :

عجبت لمن يبكي على موت غيره ... دموعاً ولا يبكي على موته دماً
وأعجب من ذا يرى عيب غيره ... عظيماً وفي عينيه عن عيبه عمى

وقال بعضهم :

لا خير في العلم إن لم يرق صاحبه ... على أساس من الأخلاق في الصغر
كم من عالم فاسد ضلت مذاهبه ... وقد غدا علمه شراً على البشر
إبليس أعلم أهل الأرض قاطبة ... والناس تعلنه في البدو والحضر
العلم كالغيث والأخلاق مزرعة ... إن تخبث الأرض تذهب نعمة المطر
والنفس تأبى ورود الماء إن وجدت ... في الماء رجساً ولو كانت على نهر
والجهل أفضل من علم يدنسه ... نضح الرذيلة من أخلاق مقتدر

وقال محمد بن زنجي البغدادي :

ولا تكُ كالناهي عن الذنب غيرَه ... وفي كفه مما يذم نصيبُ
يعيب فعال السوء من فعل غيره ... ويفعل أفعال الذين يعيبُ

وقال محمد سليم الجندي :

إذا خلت النصيحةُ حين تُسدى ... من الإخلاص مجتها القلوبُ
وهل تثق النفوس بقول داعٍ ... وتعلمُ أن قائلهُ كذوبُ

وقال غيره :

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام ... وذي الضنى كيما يصح به وأنت سقيم
مازلت تلقح بالرشاد عقولنا ... عظة وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى بالرأي منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ولا نريد كما قال الشريف المرتضي :

وفي الخير تلقى قائلًا غيرَ فاعل وفي الشر تلقى فاعلًا غير قائل

وقال عمر بن الوردي :

فاعمل بما علمت فالعلماء إن لم يعملوا شجرٌ بلا أثمار

قيل للمهلب : بم أدركت ما أدركت ؟ قال : بالعلم . قيل له : غيرك قد علم أكثر مما علمتَ ولم يُدرك ما أدركت . قال : ذاك علم حُمِلَ ، وهذا عِلْمٌ استعملَ .

وقال بعضهم :

يميناً لَأُبْغِضُ كُلَّ امرِيءِ يُزَخْرِفُ قولًا ولا يفعل

افتراء اللسان بالشرك

قال الله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيمًا** ﴾ [النساء : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالًا بعيدًا** ﴾ [النساء : ١١٦] .

وقال تعالى : ﴿ **لا تجعل مع الله إلهًا آخر فتقعد مذمومًا مخذولًا** ﴾ [الإسراء : ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما** ﴾ [طه : ١١١] .

وقال تعالى : ﴿ **حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق** ﴾ [الحج : ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ **فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين** ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ [لقمان : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً** ﴾ [الإسراء : ٣٩] .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **اجتنبوا السبع الموبقات** » قالوا يا رسول الله : وما هنَّ ؟ قال : « **الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله**

إلاّ بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات »(١).

وفي حديث للبخاري : « **من مات وهو يدعو من دون الله نِدّاً دخل النّار** » .

والآيات والأحاديث في ذمّ الشرك كثيرة نكتفي بما سقنا من آيات وأحاديث .

لقد جاء الدين الإسلامي بتوحيد الله تعالى ، فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه ، وأنه موجدهم وأنهم له وإليه راجعون لا نريد أن نخوض بقدرة الله وإرادته وصفاته وأفعاله كما تخبط فيها القوم تخبط إخوة تفرقت بهم الطرق في السير إلى مقصد واحد ، ثم التقوا في غسق الليل ، فصاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر ، فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده فاستحر بينهم القتال وما زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ، هذا يتهم هذا بالتشبيه ، وذاك يتهمه بالتعطيل ، وهكذا ، وصرح الغلاة والمقصرون جميعاً بأنه تعالى منزه عن العبث في أفعاله والكذب في أقواله ثم بعد هذا أخذوا يتنابذون بالألفاظ ويتمارون في الأوضاع ولا يدرى إلى أي غاية يقصدون ، فلنأخذ ما اتفقوا عليه ولنرد ما اختلفوا فيه .

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدي إلى الاشراك بالله وهو الظلم العظيم دعوى من لم يلتفت إلى معنى الاشراك على ما جاء به الكتاب والسنة فالإشراك اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة وأن للشيء من الأشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين ، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر العبد عليه كالاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش ، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التي هدانا الله سبحانه إليها ، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله لنا ، هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم ، فجاءت الشريعة الإسلامية بمحوه ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية إلى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية :

الأول : أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته .

---

(١) متفق عليه .

الثاني : أن قدرة الله سبحانه وتعالى هي مرجع لجميع الكائنات وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين إنفاذ ما يريده وأن لا شيء سوى الله سبحانه يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه .

جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه إلى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه وتكليفه أن يرفع همته إلى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد في تصحيح الفكر وإجادة العمل . ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب إلى غير ذلك وهذا هو الذي اهتدى إليه سلف الأمة .

ويعفى لأهل التوحيد المحض الذين لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك ، فلو لقي الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً ألبتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة ، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده وشابه بالشرك ، فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب ، فإنه يتضمن من محبة الله تعالى وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض فالنجاسة عارضة والدافع لها قوي فلا تثبت معه .

قال سيد رحمه الله(١): إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد ، فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة ، إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون ، مقطوعو الصلة بالله رب العالمين ، وما تشرك النفس بالله ، وتبقى على هذا الشرك حتى تخرج من الدنيا ــ وأمامها دلائل التوحيد في صفحة الكون وفي هداية الرسل ــ ما تفعل النفس هذا وفيها عنصر من عناصر الخير والصلاحية ، إنما تفعله وقد فسدت فساداً لا رجعة فيه ، وتلفت فطرتها التي برأها الله عليها ، وارتدت أسفل سافلين ، وتهيأت بذاتها لحياة الجحيم !

أما ما وراء هذا الإثم المبين الواضح الظاهر ، والظلم العظيم البوقح الجاهر .. أما ما وراء ذلك من الذنوب والكبائر فإن الله يغفره لمن يشاء فهو داخل في حدود المغفرة بتوبة أو من غير توبة كما تقول بعض الروايات المأثورة الواردة ما دام العبد يشعر بالله ، ويرجو مغفرته ، ويستيقن أنه قادر على أن يغفر له ، وأن عفوه لا يقصر عن ذنبه .. وهذا منتهى

(١) « في ظلال القرآن » ٣٩٧/٢ .

الأمد في تصوير الرحمة التي لا تنفدُ ولا تحد ، والمغفرة التي لا يوصد لها باب ، ولا يقف عليها بوّاب !

أخرج البخاري ومسلم وكلاهما عن قتيبة ، عن جرير بن عبد الحميد ، عن عبد العزيز بن رفيع ، عن زيد بن وهب ، عن أبي ذر قال : خرجت ليلة من الليالي ، فإذا رسول الله ﷺ يمشي وحده ، وليس معه إنسان ، قال : فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد ، قال : فجعلت أمشي في ظل القمر ، فالتفت فرآني . فقال : « **من هذا ؟** » فقلت : أبو ذر ، جعلني الله فداك . قال : « **يا أبا ذر تعال** » قال : فمشيت معه ساعة ، فقال لي : « **إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة ، إلا من أعطاه الله خيراً ، فجعل يبثه عن يمينه وشماله وبين يديه ووراءه ، وعمل فيه خيراً** » . قال : فمشيت معه ساعة ، فقال لي : « **اجلس ها هنا** » فأجلسني في قاع حوله حجارة ، فقال لي : « **اجلس ها هنا حتى أرجع إليك** » قال : فانطلق في الحرة حتى لا أراه ، فلبث عني ، حتى إذا طال اللبث .. ثم إني سمعته وهو مقبل يقول : « **وإن زنى وإن سرق** » قال : فلما جاء لم أصبر حتى قلت : يا نبي الله جعلني الله فداك من تكلمه في جانب الحرة ؟ فإني سمعت أحداً يرجع إليك . قال : « **ذلك جبريل ، عرض لي جانب الحرة ، فقال : « بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » . « قلت : أيا جبريل ، وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم . قلت : وإن سرق وإن زنى ؟ قال نعم ، وإن شرب الخمر** »[1].

(١) « متفق عليه » .

تحذير اللسان من التكلم بالقدر

عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إن أمر هذه الأمة لا يزال مقارباً حتى يتكلموا في الولدان والقدر** »(١).

وعن جابر ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إن مجوس هذه الأمة : المكذبون بأقدار الله ، إن مرضوا فلا تعودهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم ، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم** »(٢).

وعن ابن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « **سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر** »(٣).

وعن أنس ، عن رسول الله ﷺ قال : « **أخاف على أمتي من بعدي خصلتين : تكذيباً بالقدر وتصديقاً بالنجوم** »(٤).

وعن أبي أمامة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إن أخوف ما أخاف على أمتي في آخر زمانها النجومُ ، وتكذيبٌ بالقدر ، وحيفُ السلطان** »(٥).

وعن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إنّ أول ما خلق الله القلم ، ثم قال له : اكتب فقال : وما أكتب ؟ قال : اكتب القدَرَ فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة** »(٦)

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » وهو حديث صحيح .
(٢) أخرجه ابن ماجه . وهو حديث صحيح .
(٣) أخرجه الإمام أحمد ، والحاكم . وهو حديث صحيح .
(٤) أخرجه أبو يعلى في « مسنده » وهو حديث صحيح .
(٥) أخرجه الطبراني في « الكبير » وهو حديث صحيح .
(٦) أخرجه أبو داود والترمذي وغيرها ، وهو حديث صحيح .

وعن عمرو بن العاص ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم أنبياءهم ، واختلافهم عليهم ولن يؤمن أحد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره** »[1].

قال الشيخ يوسف الدجوي[2]: القضاء والقدر من أعوص المسائل سراً وأبعدها غوراً وقد اضطربت فيه الأفهام وزلت فيه الأقدام وأكثر في خوض عبابه المسلمون والمسيحيون وإن كانوا يرموننا الآن بالتأخر والجمود والتكاسل والتواكل من جراء ما نعتقده من القضاء والقدر ونسوا أن تلك العقيدة عندهم كما هي عندنا بل يجب أن تكون في كل دين من الأديان لأنها حق لا مرية فيه وليس ذلك منافياً للحرية الإنسانية كما سيتضح لك أجلى اتضاح ، ولقد كان يكفي لإدحاض ما رموا به المسلمين نظرة واحدة لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الذين أتوا من جلائل الأعمال ما غير وجه البسيطة وقلب نظام العالم ...

القضاء والقدر : هما راجعان إلى علمه تعالى وقدرته ..

إن الله تعالى قبل أن يخلقك يعلم أنك ستكون مريداً مختاراً لأنك إنسان لا جماد ويعلم بالضرورة ما تختاره بمحض إرادك وما ستصرف إليه عزمك من خير أو شر ، وقد اقتضت حكمته أن يهبك تلك الإرادة الحرة التي تصرفها كما تشاء كي يحقق لك الحرية التي اقتضت حكمته أن يمنحك إياها ثم يجازيك بعد ذلك على ما كان منك في يوم عصيب تؤدي فيه الحساب عن كل ما كسبت يداك ولولا ذلك لم يكن هناك معنى للحرية والاختيار ولا للتكليف والثواب والعقاب ، ولسنا ننكر أنه لو شاء لسلبك تلك الإرادة ولو أراد لجعلك آلة صماء لا إرادة لك ولا تكليف عليك ولكنه لم يفعل لأنه يريد أن يجعلك إنساناً.فأي جبر يقتضيه القضاء بعد ذلك ؟ وإن كان لابد من حصول ما سبق به القضاء ولا يتأتى تخلفه ولكن ذلك مبني على صحة العلم لا على تأثيره كما قلنا وقد سأل الإمام علياً كرم الله وجهه شيخا بعد انصرافه من صفين فقال : أخبرني عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره فقال : والذي خلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ما

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » . وهو حديث صحيح .

(٢) من هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف ، له مقالات عديدة في مجلة الأزهر .

وطئنا موطئاً ولا هبطنا وادياً ولا علونا تلعة إلا بقضاء الله وقدره . فقال الشيخ : عند الله احتسب عنائي ما أرى لي من الأمر شيئاً ، فقال له : مه أيها الشيخ عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون وفي منصرفكم وأنتم منصرفون ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين . فقال الشيخ : فكيف ساقنا القضاء والقدر ؟ قال : ويحك لعلك ظننت قضاء مجبراً وقدراً قاسراً لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب والوعد والوعيد والأمر والنهي ولم تأت لائمة من الله لمذنب ولا محمدة لمحسن ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ولا المسيء أولى بالذم من المحسن تلك مقالة عبدة الأوثان وجنود الشياطين وشهود الزور وأهل العمى عن الصواب وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها ، إن الله أمر تخييراً ونهى تحذيراً ، وكلف يسراً ، لم يعص مغلوباً ، ولم يطع مستكرهاً ، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً ، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار .

وقال الإمام الرضا : إن الله هو المالك كما ملكهم ، والقادر على ما أقدرهم ، فإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صاداً ، وان ائتمروا بمعصية فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل ، وإن لم يحل وفعلوا فليس هو الذي أدخلهم فيه ...

وقد سئل الشيخ عن الكلمة التي قالها في القضاء والقدر ، من أن العبد غير مجبور مع أن العلم الإلهي سبق بكل ما كان وما يكون ، وما سبق في العلم الإلهي لا يتخلف ، فكيف يكون العبد مع ذلك مختاراً ؟ .

فأجاب : قلنا في كلمتنا في القضاء والقدر : إن العلم غير مجبر للعبد ولا مسقط اختياره بل يحقق الاختيار فإن الله إذا علم أنك ستفعل كذا باختيارك كان ذلك محققاً لاختيارك لا منافياً له وإن كان ذلك الفعل لابد من وقوعه ، ولكن ليس معنى ذلك أنك تدفع إليه دفعاً أو تفعله قسراً ، فإن الله وهب للإنسان إرادة واختياراً فضله بهما على غيره ، ولولا ذلك ما صح أن يكلفه ولا أن يحاسبه ، فهو بمنزلة السيد الذي أعطى عبده الحرية فيما يفعل ثم يحاسبه بعد ذلك على ما كان منه ، فلو فرضنا أن السيد فعل ذلك امتحاناً لعبده وكان عالماً بما سيفعله عبده باختياره ، لم يكن علم السيد مجبراً للعبد على ما فعله ، لأن العلم ليس من صفات التأثير وإن كان معلومه لا يتخلف ، فإن هناك فرقاً بين صحة العلم وعدم تخلفه ، وبين كونه قاهراً أو مؤثراً .

الكذب من آفات اللسان الكبرى

قال تعالى : ﴿**إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون**﴾ [النحل : ١٠٥] .

وقال تعالى : ﴿**ويل لكل أفاك أثيم**﴾ [الجاثية : ٧] .

وقال تعالى : ﴿**ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد**﴾ [ق : ١٨] .

قال ابن كثير(١): روى الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزني قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه** »(٢).

قال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال فإن أصاب العبد خطيئة قال له أمسك فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها(٣).

وقال الحسن البصري وتلا هذه الآية : ﴿**عن اليمين وعن الشمال قعيد**﴾ [ق : ١٧] . يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول تعالى : ﴿**وكل إنسان**

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » ٢٢٤/٤ .

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم .

ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ [الإسراء : ١٣] . ثم يقول : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ [ق : ١٨] . قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله أكلت .. شربت .. ذهبت .. جئت .. رأيت .. حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائره وذلك قوله تعالى : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ [الرعد : ٣٩] .

قال صاحب « غذاء الألباب » : والكذب من حيث هو حرام لكنه من الصغائر في المعتمد ما لم يكن كذباً على الله أو رسوله أو رمى بفتنة فكبيرة .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الكذب لا يصلحُ منه جدٌّ ولا هزلٌ ، ولا أن يعدَ الرجلُ ابنه ، ثم لا ينجزُ له ، إن الصدقَ يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار إنه يقال للصادق : صدق وبرّ ، وللكاذب : كذب وفجر ، وإن الرجل ليصدقُ حتى يكتب عند الله صديقاً ، ويكذبُ حتى يكتب عند الله كذاباً** »(١).

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع** » (٢)

وفي رواية : « **كفى بالمرء من الكذب ....** » .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجةٌ في أن يدعَ طعامه وشرابه** » (٣)

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي مطولاً ، وأخرجه البخاري ومسلم مختصراً عند قوله : « إن الصدق يهدي إلى البر .. الحديث . انظر : « كنزل العمال » (٨٢١٧) وأخرجه أبو داود بلفظ : « إياكم والكذب .. وذكر الحديث « الكنز » (٨٢١٩) .

(٢) أخرجه مسلم ، وأبو داود ، والحاكم .

(٣) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه .

وعن معاوية بن حيدة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **ويلٌ للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ، ويلٌ له ، ويلٌ له** »[1]

وعن الحسن بن علي قال : حفظت من رسول الله ﷺ : « **الصدق طمأنينة والكذب ريبة** »[2]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن النبي ﷺ قال : « **أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإن حَدَّث كذب ، وإن عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر** »[3]

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر** »[4].

الآية : هي العلامة والامارة ، المنافق : هو الذي يُظهر شيئاً ويُخفي في نفسه ضدّه .

الفضائل النفسية محمودة عند الله تعالى وعند العقول الراجحة الزكية ، وقد أثنى الله عز وجل عليها ووعد المتخلقين بها وعداً حسناً ، فمن تلك الفضائل مطابقةُ ظاهر الإنسان لما في باطنه وموافقةُ أقواله وأفعاله لما يُكِنُّه في نفسه ، وعلامةُ هذه الفضيلةِ فيه أنه إذا حَدَّثَ صَدَقَ ، وإذا وعد وَفى ، وإذا اؤتمن أدى الأمانة .

هذه الفضيلة المحمودة تقابلها رذيلةٌ مذمومةٌ ، وهي النفاق ، وهو أن يُظهر

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والترمذي ، وأبو داود ، والحاكم .
وقال في « تحفة الأحوذي » ٦٠٥/٦ : أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم والدارمي . وقال الترمذي (٢٣١٥) هذا حديث حسن .

(٢) أخرجه الطيالسي (١٢٩٠) ، وعبد الرزاق (٤٩٨٤) ، وأحمد (٢٧٢٣) و (١٧٢٧) ، والترمي (٢٦٣٧) ، وابن حبان (٥١٢) ، والطبراني في « الكبير » (٢٧٠٨) و (٢٧١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » ٢٦٤/٨ وفي « تاريخ أصبهان » ٤٤/١ ، وأبو الشيخ في « الأمثال » (٣٨) و (٣٩) ، والحكم ١٣/٢ و ٩٩/٤ وهو حديث صحيح .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم .

الشخصُ للناس شيئاً ويُخْفِي في صدره ما يخالفه وتخدَعُه نفسُه فيظنُّ أن الناس يخفى عليهم ما أبطنه وأنهم لا يقفون على حقيقة ما أضمره .

ولكن الأمر بخلاف ما زعم ، ولهذا أرشدنا الرسول ﷺ إلى بعض من العلامات التى نتبين بها نفاق المنافقين .

العلامة الأولى : أنه إذا حدّث غيرَه حديثاً كذَبَ فيه غير مكترث بما يترتب على الكذب من المذامّ والمفاسد .

ألم يعلم هذا الكاذب أنه بجرأته على الكذب قد امتهن نفسه واحتقرها به كما أنه أيضاً امتهن من يحدثهم واستخف بهم ، فإنه لو أكرم نفسه وأنفسهم وقَدَرَ لهم قَدْرَهم لاستحيا أن يدنس نفسَه بهذه الرذيلة وأن يُقرِّ لسانَه بهذه الفاحشة وأن يضع نفسه وغيره موضع المقت والصغار وازدراء العقلاء به .

ألم يعلم أيضاً أن كذبه هذا قد يؤدِّي إلى ضرر عظيم وشرّ مستطير كتلف نفوس أو ضياع أموال أو تقطيع أرحام أو خراب ديار إلى غير ذلك من المفاسد والمضار الخاصة والعامة .

العلامة الثانية : أنه إذا وعد غيره وعداً أخلفه ولم يعف به وهذه أيضاً رذيلة ممقوتةُ تدل على أن صاحبها لا قدْرَ له ولا مُروءةَ ، ذلك أن إخلاف الوعد بغير عذر صحيح دليلٌ على أن ذلك المُخْلِفَ لا يُقيمُ لنفسه ولا لغيره وزْناً ولا يجعلُ لذلك العهد الذي أوجبه على نفسه قيمةً ولا يبالي بما يعود على من ارتبط معه بالوعد من الضرر وفوات المنافع وضياع الفرصة والوقت بدون فائدة .

العلامة الثالثة : أنه إذا ائتمنه أحد على أمانة خانها ولم يراع حقها ، ثم إن الأمانة هي كل شيء له قدْرٌ ، يجعل في عهده آخر ليقوم عليه بما يجب له من الحفظ والرعاية .

وذلك يشمل عدة أنواع من الأمانة ، فمنها الأمانة الإلهية ، وهي شريعته السّمْحةُ المطهَّرةُ التي أرسل بها رسولَه الأكرمَ ﷺ ، فحفظها ورعايتها يكونان بالعمل بما جاء فيها من العقائد الصحيحة وفعل المأمورات وترك المنهيات وخيانتُها تكون بنبذها والاستخفاف بها وترك الواجبات والوقوع في المنهيات وعدم الاكتراث بما أوعد الله

تعالى به من شديد العقاب . ومنها الأمانة الخاصة بالإنسان نفسه وهي حياتُه وعِرْضُه ومالُه ونسبُه وعقلُه وصحتُه ، فحفظها يكون بالحرص عليها ووقايتها من كل ما يضرها أو يشينها أو يضيعها وخيانتها تكون بالتفريط في شيء من ذلك .

ومنها الأمانة العامة . وهي الحقوق التي يَضَعُها أصحابُها عند غيرهم ليحفظوها لهم ويرعوها ثم يؤدُّوها إليهم إذا طلبوا ردها ، وذلك كمن يأتمن غيرَه على ماله أو عرضه أو سرٍّ من أسراره أو غير ذلك ، فحفظ ما ذكر ورعايتُه يكونان بما قدّمناه لك في الأمانة الخاصة ، وخيانته بضد ذلك .

وملخص ماسبق : أن كل واحد من هؤلاء الثلاثة المذكورين في هذا الحديث الشريف منافق ، لأن الكاذب في حديثه قد أَوْهَمَ الناس أن حديثَه بلسانه موافق لما في قلبه ، ولكن ظهور كذبه كان علامةً على أنه أظهر نقيضَ ما أخفاه ، فكان لهذا منافقاً خالصاً ، ونظيره في ذلك المخلف لوعده والخائن في أمانته فإن عدمَ وفائهما بما قطعاه على أنفسهما من إنجاز الوعد وحفظ الأمانة أمارةٌ صادقةٌ على أنهما كانا يضمران خلاف ما أظهراه من إيفاء الوعد ورعاية الأمانة وذلك هو النفاق الذميم وفيمن اتصفوا به يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرًا**﴾ [النساء : ١٤٥] .

قبح الكذب على الله ورسوله :

اتفق العلماء على أن الكذب من أعظم الذنوب وأشد المعاصي ، وأن من أفظعه الكذب على الله ورسوله ، بل ذهبت طائفة منهم إلى أن تعمد الكذب على الله ورسوله يخرج عن الملة ، منهم الإمام الجويني ، وهذا فيما لم يكن في تحليل حرام أو تحريم حلال ، أما ما كان من ذلك فهو كفر محض بالإجماع ، لم يختلف في ذلك أحد من أهل العلم .

قال تعالى : ﴿**إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون**﴾ ..

وقال تعالى : ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام**﴾ [الصف : ٧] .

وقال تعالى : ﴿**ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة**﴾ [الزمر : ٦٠] .

وعن المغيرة بن شعبة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إن كذباً علي ليس ككذب على أحد ، فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار** »[1].

وعن سمرة بن جندب ، عن رسول الله ﷺ قال : « **من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين** »[2].

وروى صفوان بن سليم قال : قيل للنبي ﷺ : أيكون المؤمن جباناً ؟ قال : « **نعم** » — أي قد يكون كذلك ولا يمتنع أن يكون مع ذلك مؤمناً — ، قيل : أفيكون بخيلًا ؟ قال : « **نعم** » . قيل : أفيكون كذاباً ؟ قال : « **لا** » .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿**ولا تلبسوا الحق بالباطل**﴾ أي لا تخلطوا الصدق بالكذب .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم .
(٢) أخرجه الإمام مسلم .

أقوال طيبة في ذم الكذب وحفظ اللسان

قيل في منثور الحكم : الكذاب لص ، لأن اللص يسرق مالك ، والكذاب يسرق عقلك .

وقال بعض الحكماء : الخرس خير من الكذب ، وصدق اللسان أول السعادة .

وقال بعض البلغاء : الصادق مصان جليل ، والكاذب مهان ذليل .

وقال أديب : لا سيف كالحق ، ولا عون كالصدق .

وقال بعضهم :

عليك بالصدق ولو أنه ... أحرقك الصدق بنار الوعيد
وابغ رضا المولى فأغبى الورى ... من أسخط المولى وأرضى العبيد

وقال آخر :

حسب الكذوب من المهانة ... بعض ما يحكى عليه
وإذا سمعت بكذبة ... من غيرة نسبت إليه
لي حيلة فيمن ينم ... وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول ... فحيلتي فيه قليلة

وقال آخر :

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهابه لقاءهُ الشجعان

قال الإمام علي : الكذاب والميت سواء ، لأن فضيلة الحي على الميت الثقة به فإذا لم يوثق بكلامه فقد بطلت حياته .

وقال بعضهم : إياك وحكاية ما يُستبعد فيجد عدوك سبيلًا إلى تكذيبك ، فإن من صفات العاقل أن يحدث بما لا يستطاع تكذيبه .

قال بعضهم :

وارع الأمانة والخيانة فاجتنب   واعـد ولا تظلم يطيب المكسب
إذا قلت في شيء نعم فأتمه   فإن نعم دين على الحر واجب
وإلاّ فقل لا تسترح وترح بها   لئلا يقول الناس إنك كاذب

وقال بعضهم :

لا تكذبن فخير القول أصدقه   إن الحريص على الدنيا لمغرور

وقال بعضهم :

وعدتني عدة ظننتك صادقاً   فجعلت من أملي أروح وأذهب
فإذا حضرت وأنا وأنت بمجلس   قالوا مسيلمة وهذا أشعب

وقال أبو الأسود الكناني :

لا تحمدن أمرأ حتى تجربه   ولا تذمنّه من غير تجريب
فحمدك المرء ما لم تبله سرف   وذمك المرء بعد الحمد تكذيب

قال السباعي : من موّه عليك في دينك فقد استخف بعقلك ، ومن كذب عليك فقد استخف بوعيك .

ويرى أبو الشيخ في «الأمثال» (٣٧٠) : أن الكذب على سبيل التخويف لا يجوز فقد ذكر أنه لما جاء كتاب أبي جعفر يأمر وينهى فلما فرغ من قراءة الكتاب أبو المهاجر العلائي قال له صالح الجوزي :

أتدري ما مثلنا ومثل صاحب الكتاب ؟ مثل ذئب خرج يعس بالليل ، فأتى قرية ، فإذا صبي يبكي ، وإذا أمه تقول : لئن لم تسكت ألقيتك إلى الذئب ، والصبي يتمادى في البكاء ، والذئب ينتظر حتى فضح الصبح فولى راجعاً ، ولقيه ذئب ، فقال : أين تريد ؟ قال : إلى هذه القرية ، قال : لا تأتهم ، فإنهم أكذب قوم على وجه الأرض .

أما محاسن الصمت فكثيرة :

عن ابن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من صمت نجا** »(١).

وعن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله ﷺ : « **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه** »(٢).

قال الكناني :

الصمت غنم لأقوام ومسترة — والقول في بعضه التضليل والفند

وقال غيره :

رأيت سكوتي متجراً فلزمتُهُ — إذا لم يُفد ربحاً فلست بخاسر

وقال حمارش بن عدي العذري :

إني لأسكت عن علمٍ ومعرفةٍ — خوف الجوابِ وما فيه من الخطل
أخشى جوابَ جهولٍ ليس ينصفني — ولا يهابُ الذي يأتيه من زلل

وقال محمد بن زنجي البغدادي :

أنت من الصمت آمن الزلل — ومن كثير الكلام في وجل
لا تقل القول ثم تتبعه — يا ليت ما كنتُ قلتُ لم أقل

وقال الشاعر :

الصمت يكسب أهله — صدق المودة والمحبة
والقول يستدعي لصاحبه — المذمة والمسبة

وقال آخر :

القول كاللبن المحلوب ليس له — ردٌّ وكيف يَرُدُّ الحالب اللبنا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٨) ، وابن المبارك في «الزهد» (٣٨٥) ، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٢٠٧) ، وعبدالله بن وهب في «الجامع» (٤٩) ، والطبراني في «الكبير» ص ١٧ ، وابن شاهين في «الترغيب» ١/١٠٧ ، والقضاعي في «المسند» ١/٢١٩ وهو حديث صحيح .

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» ٢/٢١٠ ، وعبدالرزاق (٢٠٦١٧) ، والترمذي (٢٤١٩) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) وهو حديث صحيح لشواهده الكثيرة ، انظر «الصحيح المسند في الأمثال والحكم» (٨٠) .

سمع علي بن أبي طالب رجلًا يتكلم بما لا يعنيه فقال : يا هذا ، إنما تملي على كاتبيك كتاباً إلى ربك .

وقال بعضهم : رحم الله من أطلق ما بين فكيه .

قال البستي :

تكلم وسدد ما استطعت فإنما ... كلامك حي والسكوت جماد
فإن لم تجد قولًا سديداً تقوله ... فصمتك عن غير السديد سداد

قال بعض الحكماء : لاتبع هيبة السكوت بالرخيص من الكلام .

ومن أمثال العرب :

إياك أن يضرب لسانك عنقك .

ربما كان السكوت جواباً .

الكلام أنثى والجواب ذكر .

وقال بعضهم :

قالوا نراك طويل الصمت قلت لهم ... ما طول صمتي من عي ولا خرس
لكنه أحمَد الأشياء عاقبة ... عندي وأيسره من منطق شكس

وقال الإمام الشافعي :

قالوا سكتَّ وقد خوصمت قلت لهم ... إن الجوابَ لباب الشر مفتاحُ
والصمتُ عن جاهل أو أحمق شرف ... وفيه أيضاً لصون العرض إصلاحُ
أما ترى الأسد وهي صامتة ... والكلب يخسى لعمري وهو نباحُ

وقال بعضهم :

وكائن ترى من صامتٍ لك معجب ... زيادتُه ونقصُهُ في التكلم

وقالوا : كان بهرام جالساً ذات ليلةٍ تحت شجرة فسمع منها صوت طائر فرماه فأصابه فقال : ما أحسن حفظ اللسان بالطائر والإنسان لو حفظ هذا لسانه لما هلك .

اختلف العلماء هل الملكان الكاتبان يكتبان كل ما يتكلم به الإنسان أو لا يكتبان إلّا ما فيه ثواب وعقاب فقال يحيى بن أبي كثير : ركب رجل حماراً فعثر به فقال : تعس الحمار . فقال صاحب اليمين : ما هي حسنة أكتبها . وقال صاحب اليسار : ما هي سيئة فأكتبها . فأوحى الله سبحانه إلى صاحب الشمال ، ما ترك صاحب اليمين من شيء فاكتبه ، فأثبت في السيئات : تعس الحمار .

لقد صدق الشاعر :

وأعقل الناس من لم يرتكب سبباً   حتى يفكـر ما تجنـي عواقبـه

أخرج ابن أبي الدنيا عن علي أنه قال : وارِ شخصك لا تُذكرُ ، واصمت تسلم .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن علي أيضاً أنه قال : الصمتُ داعيةٌ إلى الجنة .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن علي أيضاً أنه قال : قوام البدن اللسانُ ، فإذا استقامَ اللسانُ استقامت الجوارحُ ، وإذا اضطرب اللسانُ ، لم تقم له جارحة .

وقال الأسود بن أصرم المحاربي : قدمتُ بإبلٍ سمانٍ إلى المدينة في زمنٍ محلٍ وجدْب من الأرض ، فذكرت لرسول الله ﷺ ، فأرسل إليها فأتى بها ، فخرج إليها ، فنظر إليها ، فقال : « **لِمَ جلبت إبلك هذه ؟** » قلتُ : أردتُ بها خادماً ، فقال : « **من عندهُ خادمٌ** » فقال عثمان بن عفان : عندي يا رسول الله ، فقال : « **فهاتِ** » فجاءَ بها فأخذتها وقبضَ رسولَ الله ﷺ إبله ، قُلتُ : يا رسول الله أوصني ، قال : « **هل تملكُ لسانك ؟** » قُلت : فماذا أملكُ إذا لم أملك لساني ؟ قال : « **هل تملكُ يدك ؟** » قلتُ : فماذا أملكُ إذا لم أملك يدي ؟ قال : « **فلا تقل بلسانك إلّا معروفاً ، ولا تبسط يَدَكَ إلّا إلى خير** »(١) .

وعن أبي الدرداء قال : تعلموا الصمت ، كما تعلمون الكلامَ ، فإن الصمت حلم عظيمٌ ، وكن إلى أن تسمعَ أحرصَ منك إلى أن تتكلم ، ولا تتكلم في شيء لا يعنيكَ ،

---

(١) أخرجه البخاري في «تاريخه» ، وابن أبي الدنيا في «الصمت» ، والبغوي وقال : لا أعلم له غيره . والباوردي ، وابن منده ، وابن السكن ، وابن قانع ، والطبراني في «الكبير» وتمام في «فوائده» وابن حبان في «صحيحه» وابن عساكر ، وسعيد بن منصور «الكنز» ٣/٧٦٩ .

ولا تكن مضحاكاً من غير عجبٍ ، ولا مشاءً إلى غير أرب (١).

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : « **يا أبا ذر أقلّ من الطعام والكلام تكن معي في الجنة** »(٢) .

فينبغي للمسلم أن يحفظ لسانه عن الكلام ، إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة ، فإن في السكوت سلامة والسلامة لا يعدلها شيء . وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت** » فهذا الحديث المتفق على صحته نص صريح في أنه لا ينبغي للإنسان أن يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً وهو الذي ظهرت مصلحته للمتكلم .

سئل بعضهم : كم وجدت في ابن آدم من العيوب ؟ فقال : هي أكثر من أن تحصى ، والذي أحصيت ثمانية آلاف عيب ، ووجدت خصلة أن استعملها سترت العيوب كلها ، وهي حفظ اللسان . جنبنا الله معاصيه واستعملناه فيما يرضيه أنه جواد كريم .

أيها العبد : لا شيء أعز عليك من عمرك وأنت تضيعه ، ولا عدو لك كالشيطان وأنت تطيعه ، ولا أضر من موافقة نفسك وأنت تصافيها ، ولا بضاعة سوى ساعات السلامة وأنت تسرف فيها ، لقد مضى من عمرك الأطايب فما بقي بعد شيب الذوائب ؟ يا حاضر البدن والقلب غائب ، اجتماع العيب الشيب من جملة المصائب ، يمضي زمن الصبا وحب الحبائب ، كفى زاجراً واعظاً تشيب منه الزوائب ، يا غافلاً فاته أفضل المناقب ، أين البكا لخوف العظيم الطالب ، أين الزمان الذي ضاع في الملاعب ؟ نظرت فيه آخر العواقب ، كم في القيامة مع دمع ساكب على ذنوب قد حواها كتاب الكاتب ، من لي إذا قمت في موقف المحاسب وقيل لي : ما صنعت في كل واجب ؟

كيف ترجو النجاة وتلهو باسر الملاعب ، إذا أتتك الأماني بظن الكاذب . الموت صعب شديد مر المشارب ، يلقي شره بكأس صدور الكتائب ، فانظر لنفسك وانتظر

---

(١) أخرجه ابن عساكر انظر : «الكنز» برقم (٨٧٠٣) .
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن أنس .

قدوم الغائب يأتي بقهر ويرمي بسهم صائب يا آملًا أن تبقى سليماً من النوائب بنيت بيتاً كنسيج العناكب ، أين الذين علوا متون الركايب ، ضاقت بهم المنايا سبل المذاهب وأنت بعد قليل حليف المصايب ، فانظر وتفكر وتدبر قبل العجايب !!!

الكذب على الله تعالى

قال تعالى : ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ [النحل: ١١٦] .

وقال تعالى : ﴿إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين﴾ [النور : ١٥ — ١٧] .

وقال تعالى : ﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ [آل عمران : ٧٨] .

وقال تعالى : ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين﴾ [النساء : ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرَطون﴾ [النحل : ٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ولكنَّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ [المائدة : ١٠٣ — ١٠٤] .

والآيات في هذا كثير ، ذكرها الله سبحانه تحذيراً لعباده من الافتراء عليه .

الكذب على رسول الله ﷺ

اعلم أن الكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر الموجبة لدخول النار ، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إنَّ كَذِباً عليَّ ليسَ ككذبٍ على أحدٍ ، فمن كذبَ عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعدَه من النار** »(١).

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **من تقول على ما لم أقل فليتبوَّأ مقعده من النار** »(٢) .

وعن علي ، عن رسول الله ﷺ قال : « **لا تكذبوا عليَّ ، فإنه من كذَبَ عليَّ فليلج النار** »(٣).

وفي رواية : « **لا تكذبوا عليَّ فإنَّ الكذب عليَّ يولج النار** »(٤).

وعن ابن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إن الذي يكذب عليَّ يُبنى له بيتٌ في النار** »(٥).

وعن جم غفير من الصحابة عن رسول الله ﷺ قال : « **من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار** »(٦).

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن المغيره ، وأبي يعلي عن سعيد بن زيد انظر : «كنز العمال» حديث رقم (٨٢٣٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، وابن ماجه عن أبي هريرة ، انظر : «الكنز» (٨٢٣٤) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، انظر «الكنز» (٢٨٣٥) .

(٤) أخرجه ابن ماجه ، انظر : «الكنز» حديث رقم (٨٢٣٦) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد ، انظر «الكنز» حديث رقم (٨٢٣٧) .

(٦) حديث صحييح متواتر .

المواطن التي يُباح فيها الكذب

عن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله ﷺ : « **كل الكذب يكتب على ابن آدم ، إلاّ ثلاثاً : الرجل يكذب في الحرب ، فإن الحرب خدعة ، والرجل يكذب المرأة فيرضيها ، والرجل يكذب بين الرجلين ليصلح بينهما** » .

وفي رواية له : « **ما لي أراكم تتهافتون في الكذب تهافتَ الفراش في النار ، ألا إن كل كذبٍ مكتوبٌ على ابن آدم كذباً لا محالة ، إلا أن يكذب الرجل في الحرب ، فإن الحرب خدعةٌ ، أو يكذب بين الرجلين ليصلح بينهما أو يكذب امرأته ليرضيها** »(١).

وعن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « **ما يحملكم على أن تتابعوا على الكذب كما تتابع الفراشُ في النار ؟ فإن الكذب كلُّهُ يكتبُ على ابن آدم إلا ثلاث خصال : رجل يكذب على امرأته ليرضيها ، ورجل يكذب في خديعة حرب ، ورجل يكذب بين امرأتين مسلمين ليصلح بينهما** »(٢).

وعن أم كلثوم بنت عقبة قالت : قال رسول الله ﷺ : « **لا أعُدُّهُ كاذباً : الرجل يصلح بين الناس ، يقولُ القولَ لا يريد إلاّ الإصلاح ، والرجل يقول في الحرب ، والرجل يحدث امرأته ، والمرأة تحدث زوجها** » (٣)

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » ، وابن النجار ، وابن جرير ، والخرائطي في « مساوي الأخلاق » والبيهقي في « الشعب » والنواس بن سمعان الكلابي ويقال : الأنصاري صحابي مشهور سكن الشام انظر : « تهذيب التهذيب » ٤٨٠/١٠ والحديث أصله في الصحيح .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ، والترمذي (١٩٤٠) ، وقال : حديث حسن . وأخرجه ابن جرير ، والطبراني في « الكبير » وأبو نعيم في « الحلية » ، والبيهقي في « الشعب » بلفظ مقارب .

(٣) أخرجه أبو داود ، وأخرجه أيضاً بلفظ : « لم يكذب من نمى بين اثنين ليصلح » وهو في « صحيح الجامع » (٥٢٥٥) . ورواه ثوبان مرفوعاً بلفظ : « الكذب كله إثم إلّا ما نفعَ به مسلم أو دُفعَ به عن دين » أخرجه الروياني ، انظر « الكنز » (٨٢٥٦) .

وعن جابر ، أن النبي ﷺ قال : « **الحرب خدعة** »[1]

وعن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « **ليس الكذابُ بالذي يصلحُ بين الناس فينمي خيراً ويقول خيراً** »[2]

وحديث : « الحرب خدعة » روي من حديث جماعة من الصحابة ، وهو حديث متواتر على ما قيل .

والحديث فيه التحريض على أخذ الحذر في الحرب والندب إلى خداع الكفار وإن من لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه .

وقال ابن دريد في « المجتبى » ص ٤ : يريد أن المماكرة في الحرب أنفع من المكاثرة والإقدام من غير علم .

أما إصلاح ذات البين ، فقد حث عليه عليه الصلاة والسلام وقال : « **ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ، قالوا : بلى . قال : إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة** »[3]

يبين رسول الله ﷺ أن من الأمور ما يكون ثوابه أعظم من ثواب الصلاة والصيام والصدقة ، وهو إصلاح الروابط الاجتماعية بين الناس ، وجعلها مبنية على المودة والتعاون وإزالة أسباب الخلاف والشقاق

فإنه إذا تمكن الخلاف والنزاع بين قوم زالت الثقة من نفوسهم بعضهم لبعض ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٢٧) ، و (٣٠٢٨) و (٣٠٢٩) و (٣٠٣٠) و (٣١٢٠) و (٣٦١٨) و (٦٦٣٠) . ومسلم (١٧٣٩) و (١٧٤٠) . وأحمد ٣١٢/٢ و٣١٤ و ٣١٢/٣ و٣١٤ و٢٢٤/٣ و٢٩٧ و٣٠٨ . والخطيب في «تاريخ بغداد» ٣٤١/٤ و ٧٥/١٤ . والطبراني في «مسند الشاميين» ، (١٠٠٣) و (١٠٠٤) . وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» ١٦٤/١ . وابن ماجه (٢٨٣٢) و (٢٨٣٤) . والطبراني في «الكبير» (١١٧٩٨) وفي «الصغير» ١٧/١ . وأبو الشيخ في «الأمثال» (٤) والقضاعي في «مسنده» .

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٣٩) وقال في «تحفة الأحوذي» ٧١/٦ أخرجه أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي .

(٣) «الترغيب والترهيب» للمنذري .

وحل التناكر محل التعارف ، فساء حالهم ، وضعف أمرهم ، وتمكن عدوّهم من رقابهم فهانوا وذلوا .

وإنما كان إصلاح ذات البين أفضل درجة من الصلاة والصيام والصدقة ، لأن أثر الإصلاح عام يترتب عليه أمن الناس وطمأنينتهم وسعادتهم ، ولا يستطيع أن يقوم به إلا من رزق همة عالية وحيلة واسعة ، وقدرة على إزالة ما يكون بين الناس من أسباب التنازع والتنافر ، ومن امتلأ قلبه بحب الخير العام حتى يبذل في سبيله كل ما يوصله إلى تحقيقه ، أما الصلاة ونحوها ، فإن آثارها النفسية خاصة بفاعلها ، وليس كل من صلى أو صام أو تصدق بمستطيع أن يصلح أحوال قوم تعادَوا وتباغضوا ، ويزيل ما بينهم من عداوة وشحناء .

اليمين الغموس

قال تعالى : ﴿ **إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلًا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ [آل عمران : ٧٧] .

قال ابن كثير(١): يقول تعالى : إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ وذكر صفته للناس وبيان أمره وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة وهي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة ﴿ **أولئك لا خلاق لهم في الآخرة** ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ولا حظ لهم منها ﴿ **ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة** ﴾ أي برحمة منه لهم يعني لا يكلمهم الله كلام لطف بهم ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿ **ولا يزكيهم** ﴾ أي من الذنوب والأدناس بل يأمر بهم إلى النار ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ .

قال الذهبي نقلًا عن الواحدي(٢): نزلت في رجلين اختصما إلى النبي ﷺ في ضيعة ، فَهَمّ المدعي عليه أن يحلف ، فأنزل الله هذه الآية فنكل المدعي عليه عن اليمين وأقر للمدعي بحقه .

وعن عبد الله قال(٣): قال رسول الله ﷺ : « **من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله تعالى وهو عليه غضبان** » فقال الأشعث : فيَّ والله نزلت ، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني ، فقدمته إلى النبي ﷺ فقال : « **ألك بينة ؟** » قلت : لا ، قال لليهودي : « **احلف** » قلت : يا رسول الله إنه

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» ٣٧٥/١ .

(٢) «الكبائر» للذهبي ص ١)١ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه مختصراً .

إذن يحلف فيذهب بمالي . فأنزل الله تعالى : ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا** ﴾ أي عرضاً يسيراً من الدنيا وهو ما يحلفون عليه كاذبين ﴿ **أولئك لا خلاق لهم في الآخرة** ﴾ أي لا نصيب لهم في الآخرة ﴿ **ولا يكلمهم الله** ﴾ أي بكلام يسرهم ...

وعن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من حلف على مال امرىء مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان** » قال عبد الله : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ تصديقه من كتاب الله : ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا** ﴾ إلى آخر الآية . أخرجاه في « الصحيحين » .

وعن أبي أمامة قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : « **من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة** » فقال رجل : وإن كان يسيراً يا رسول الله ؟ قال : « **وإن كان قضيباً من أراك** »(١).

وعن أبي ذر عن النبي ﷺ قال : « **ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** » فقرأ بها رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقال أبو ذر : خابوا وخسروا يا رسول الله من هم ؟ قال : « **المسبل ، والمنان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب** »(٢).

وقال ﷺ : « **الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس** »(٣).

والغموس : هي التي يتعمد الكذب فيها ، سميت غموساً لأنها تغمس الحالف في الإثم ، وقيل تغمسه في النار .

ومن ذلك الحلف بغير الله عز وجل ، كالنبي والكعبة والملائكة والسماء والماء والحياة والأمانة ، وهي من أشد ما هنا ، والروح والرأس وحياة السلطان ونعمة السلطان وتربة فلان والآباء والأجداد والأولاد .

عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « **إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن حلف**

---

(١) أخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه ومالك كلهم من حديث أبي أمامة .
(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .
(٣) أخرجه البخاري والترمذي والنسائي من حديث ابن عمر بن العاص .

فليحلف بالله أو ليصمت »[1] وفي رواية في الصحيح : « **فمن كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله أو ليسكت** » .

وعن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم** » [2]

الطواغي : جمع طاغية وهي الأصنام ، ومنه الحديث : هذه طاغية دوس ، أي صنمهم ومعبودهم .

وعن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : « **من حلف بالأمانة فليس منا** » [3].

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من حلف فقال : إني بريء من الإسلام ، فإن كان كاذباً فهو كما قال ، وإن كان صادقاً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً** » [4]

وعن ابن عمر أنه سمع رجلًا يقول : والكعبة ، فقال : لا تحلف بغير الله ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من حلف بغير الله فقد كفر وأشرك** »[5]

قال : وفسر بعض العلماء قوله : « **كفر أو أشرك** » على التغليظ كما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « **الرياء شرك** » .

وقال ﷺ : « **من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله** » [6]

وقد كان في الصحابة من هو حديث عهد بالحلف بها قبل إسلامه ، فربما سبق لسانه إلى الحلف بها فأمره النبي ﷺ أن يبادر بقول : لا إله إلا الله ليكفر بذلك ما سبق إلى لسانه ، وبالله التوفيق .

---

(١) أخرجه مالك والستة .
(٢) أخرجه مسلم .
(٣) أخرجه أبو داود وغيره .
(٤) أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .
(٥) أخرجه الترمذي وحسنه ، وابن حبان في «صحيحه» والحاكم وقال صحيح على شرطهما .
(٦) متفق عليه .

قول الزور وشهادة الزور

قال تعالى : ﴿ **والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كرامًا** ﴾ .... [الفرقان : ٧٣] .

قال سيد رحمه الله[1]: وعدم شهادة الزور قد تكون على ظاهر اللفظ ومعناه القريب ، أنهم لا يؤدون شهادة زور ، لما في ذلك من تضييع الحقوق ، والإعانة على الظلم . وقد يكون معناها الفرار من مجرد الوجود في مجلس أو مجال يقع فيه الزور بكل صنوفه وألوانه ، ترفعاً منهم عن شهود مثل هذه المجالس والمجالات ، وهو أبلغ وأوقع ، وهم كذلك يصونون أنفسهم واهتماماتهم عن اللغو والهذر : ﴿ **وإذا مروا باللغو مروا كرامًا** ﴾ لا يشغلون أنفسهم به ، ولا يلوثونها بسماعه ، إنما يكرمونها عن ملابسته ورؤيته بعدم المشاركة فيه ، فللمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر ، وليس لديه من الفراغ والبطالة ما يدفعه إلى الشغل باللغو الفارغ ، وهو من عقيدته ومن دعوته ومن تكاليفها في نفسه وفي الحياة كلها في شغل شاغل اهـ .

وشهادة الزور من الكبائر ، والكبيرة الذنب العظيم ومرتكبها بغيض مذموم ، يكرهه الله تعالى ، ويعاقبه عقاباً شديداً .

تعريف وضرر شهادة الزور : ذلك أن تقول غير ما ترى وتسمع ، وتعرف وتعتقد ، وفي هذا البلاءُ العظيم ، والفساد الكبير ، والضرر المبين .

ذلك لأن الشهادة قد تكون سبباً في قتل برىء ، أو نجاة ظالم ، أو حبس مظلوم ، ولهذا حث الرسول الكريم على تأدية الشهادة على وجهها ونهى عن شهادة الزور قائلًا : « **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟** » قلنا بلى يا رسول الله . قال : « **الاشراك بالله ، وعقوق**

---

(١) «في ظلال القرآن» ١٨٦/٦ .

الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يقولها حتى قلنا لا يسكت »(١).

وعن أنس ، عن رسول الله ﷺ قال : « **الكبائر : الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قول الزور**»(٢) .

وعن أبي بكرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقول الزور** »(٣).

وقال تعالى : ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور** ﴾ [الحج : ٣٠] .

يقول سيد رحمه الله(٤): الشرك افتراء على الله وزور ، فلذلك يحذر الله سبحانه من قول الزور كافة ..

ويغلظ النص من جريمة قول الزور إذ يقرنها إلى الشرك .. وهكذا روى الإمام أحمد بإسناده عن فاتك الأسدي قال : صلى رسول الله ﷺ الصبح فلما انصرف قام قائماً فقال : « **عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عز وجل** » ثم تلا هذه الآية ...

إنما يريد الله من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يجتنبوا الزور كله ، وأن يستقيموا على التوحيد الصادق الخالص : ﴿ **حنفاء لله غير مشركين به** ﴾ اهـ .

الزور منهج الكفار :

قال تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا إنْ هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون .. فقد جاءوا ظلمًا وزورًا** ﴾ .. [الفرقان : ٤] .

---

(١) أخرجه البخاري .
(٢) أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي .
(٣) أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي .
(٤) «في ظلال القرآن» ٥٩٧/٥ .

صدق الحديث

قال عليه الصلاة والسلام : « **أحب الحديث إلَيَّ أصدقه** »(١).

وعن ابن مسعود ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدُقُ حتى يكتبَ عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذبُ حتى يكتبَ عند الله كذاباً** »(٢).

وعن أبي بكر ، عن رسول الله ﷺ قال : « **عليكم بالصدق ، فإنه مع البرِّ ، وهما في الجنة ، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار ، وسلوا الله اليقين والمعافاةَ ، فإنه لم يؤتَ أحدٌ بعد اليقين خيراً من المعافاة ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تقاطعوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عبادَ الله إخواناً كما أمركم ربكم** »(٣).

خير ما يرفع ذكر المرء ويعلي شأنه أن يكون أميناً ، لا يعبث بما يؤتمن عليه ، ولا يضيعه ، وأن يكون صادقاً في قوله ، فبالأمانة والصدق يثق به من يعامله ويرفع مكانته .

أخرج مسلم عن رسول الله ﷺ قال : « **من غش فليس مني** » .

ولهذا الحديث قصة . وهي : أن الرسول ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللًا ، فقال : ما هذا ؟ يا صاحب الطعام ، قال أصابته السماء ، قال : أفلا جعلته فوق الطعام ؟ « **من غش فليس مني** » .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والبخاري ١٣٠/٣ عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم .
(٢) أخرجه البخاري ومسلم انظر «الكنز» ٣٤٥/٣ .
وأخرجه الإمام أحمد والبخاري في «الأدب المفرد» والترمذي .
(٣) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري في «الأدب المفرد» وابن ماجه .

أي من غش وأخفى عيب بضاعته فليس ممن اهتدى بهديي واتبع سنتي وسلك طريقتي .

وذلك أن الدين يدعو إلى الإخلاص والصدق في المعاملة ، فيجب على التاجر ألا يُخفيَ عيب سلعتِه ، وكذلك يلزم كُل من قام بعمل ألا يُحَسِّنَ منه ما ليس بحسن ، ويخفي منه ما يكون فيه من عيوب ، وإلا كان حائداً عن صراط الدين القويم ، غير عامل بما يدعو إليه ، فلا يكون جديراً بأن ينتسب إلى الإسلام وإلى الرسول ﷺ .

النهي عن تكلم المرء فيما لا يعنيه

عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه** »(١).

وعن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله ﷺ : « **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه** »(٢).

وعن أبي هريرة ، أن رجلًا قُتِلَ شهيداً فبكته باكيةٌ فقالت : واشهيداه ، فقال النبي ﷺ : « **وما يدريكِ أنه شهيدٌ ؟ فعلّه كان يتكلم فيما لا يعنيه ، أو يبخل بما لا ينقصه** »(٣).

وهذا الحديث من الكلام الجامع للمعاني الكثيرة الجليلة في الألفاظ القليلة ونحو ذلك قول أبي ذر في بعض حديثه : ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه ، وذكر مالك أنه بلغه أنه قيل للقمان ما بلغ بك ما نرى — يريدون الفضل — فقال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يعنيني . وروى عن الحسن قال : من علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه قال : قال أبو داود :

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٨) و (٢٣١٩) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) وابن عساكر . قال في «شرح الأربعين النووية» لابن دقيق العيد : حديث حسن . وقد رواه ابن عبدالرحمن عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة وصحح طرقه . انظر : «الأربعين النووية» ص ٤٠ .

(٢) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» ٢/٢١٠ ، وعبدالرزاق (٢٠٦١٧) ، والترمذي (٢٤١٩) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) وهو حديث صحيح لشواهده الكثيرة .

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» والخطيب في كتاب «البخلاء» عن أبي هريرة . وأخرجه الخطيب في «التاريخ» عن كعب بن عجرة . وأخرجه البيهقي في «الشعب» أيضاً وسعيد بن منصور في «سننه» عن أنس . وأخرجه الترمذي (٢٣١٧) عن أنس أيضاً بلفظ : «أوَ لَا تدري ؟ فلعلّه تكلم فيما لا يَعنيه ، أو بخل بما لا ينقصُه» وقال : هذا حديث غريب . قال في «المرقاة» رجاله رجال الصحيحين إلا سليمان بن عبدالجبار شيخ الترمذي وقد ذكره ابن حبان في الثقات كذا في التصحيح «تحفة الأجوذى» ٦/٦٠٦ .

أصول السنن في كل فن أربعة أحاديث .. وذكر منها حديث : « **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه** »(١)اهـ .

الغرض من الحديث : الحث على الاشتغال بما يفيد وترك التدخل فيما لا يعني .. فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، كما أنك لا تجد إنساناً قد سلمت بنيته من العيوب ، كذلك لا تجد أحداً قد سلمت نفسه منها : وحينئذ يكون الناس جميعاً قد تكافئوا في الإصابة بها ، ولم ينج أحد من الوقوع في قبضتها .

فإذا كان لا يحسن بمن أصيبت يده أو معدته أن يشغل نفسه بإصابة غيره في يده أو معدته مثلًا ، ويترك معالجة جسمه مما أصيب به : كذلك لا يحسن بمن ابتليت نفسه بعيب من العيوب النفسية أن يغفل عنها ويهملها من المعالجة والمداواة ، ثم يشتغل بما أصيبت به نفس غيره من العيوب أياً كانت .

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها　　فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

إن من يشغل نفسه بعيوب غيره لا يخلو من ثلاثة أغراض : فإما أن يكون غرضه الشماتة والمجاهرة بسروره بذلك ، وإما أن يقصد تشهيره وفضيحته بين الناس ، وإما أن يدعي إظهار التحزن والتحسر لما ابتلى به .

ومن البداهة أنه لا شيء من هذه الأمور الثلاثة يصلح أن يكون عذراً أو مبرراً يسوّغ له إهمال عيوب نفسه ، واشتغاله بما لا يعنيه ولا يفيده من عيوب الناس . فرحم الله امرأ أقبل على نفسه فداوى أمراضها ، وأصلح فاسدها ، فكافأه ربه المكافأة الحسنى ، وجزاه الجزاء الأوفى (٢)

---

(١) انظر : «الأربعين النووية» لابن دقيق العيد ص ٤٠ الحديث رقم (١٢) .

(٢) انظر : «الدين الإسلامي» ٢١٧/١ للشيخ حسن منصور وغيره .

السؤال عما لا يعني

عن جابر ، عن رسول الله ﷺ قال : « لا تسألوا الآيات ، فقد سألها قومُ صالحٍ فكانت الناقةُ تردُ من هذا الفَجّ ، وتصدُرُ من هذا الفجّ : ﴿ فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ﴾ فأخذتهم الصيحةُ ، فاهمدَ الله من تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلًا واحداً كان في حرم الله تعالى » قالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : « أبو رغالٍ ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه »(١).

وفي رواية : « يا أيها الناسُ لا تسألوا نبيكم عن الآيات ، هؤلاء قومُ صالح سألوا نبيهم أن يبعث لهم آيةً ، فبعث الله لهم الناقة ، فكانت تَرِدُ من هذا الفجّ فتشربُ ماءَهم يوم وِرْدِها ، ويشربون من لبنها مثلَ ما كانوا يتروُّون من مائهم ، ﴿ فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ﴾ فوعدهم الله ثلاثةَ أيامٍ وكان موعداً من الله غيرَ مكذوب ، ثم جاءتهم الصيحةُ فأهلك اللهُ من كان تحتَ مشارقِ الأرضِ ومغاربها إلا رجلًا واحداً كان في حَرَمِ الله فَمَنَعهُ حَرَمُ اللهِ من عذاب الله ، أبو رغالٍ (٢).

---

(١) أخرجه البزار ، والطبراني في «الكبير» والبيهقي ، والحاكم عن أبي الدرداء . ورواه أبو داود والبيهقي في «دلائل النبوة» وغيرهما عن ابن عمر بلفظ : سمعت رسول الله ﷺ حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر ، فقال : هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابته النقمة التي أصابت بهذا المكان فدفن فيه .. الحديث ..

(٢) أخرجه الحاكم انظر : «الكنز» ٥٧٢/٣ برقم (٧٩٥١) .

وذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» ١٣٧/١ بعد أن ذكر رواية الإمام أحمد فقال : وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو في شيء من الكتب الستة .

ثم يورد حديث خروج النبي ﷺ إلى الطائف فيقول : وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد ابن اسحاق به .

وقال الحافظ أبو الحجاج المزي المتوفي سنة ٧٤٢ هـ : هذا حديث حسن عزيز . تفرد به : بُجير بن أبي بُجير . وقال الحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» ١٤٨/١ : روى له أبو داود حديثاً واحداً في قصة أبي رغال وذكره ابن حبان في الثقات وجهله ابن القطان .

وعن سعد ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرَّمْ على المسلمين فَحُرِّمَ عليهم من أجل مسألته** »[1].

وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم** »[2].

قال ابن دقيق العيد[3]: لفظ هذا الحديث في كتاب مسلم عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « **يا أيها الناس قد فرض الحج عليكم فحجوا** » فقال رجل : كل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها مراراً ، فقال رسول الله ﷺ : « **لو قلت نعم لوجب ولما استطعتم ــ ثم قال ــ ذروني ما تركتكم ، فانما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه** » والرجل الذي سأل هو الأقرع بن حابس كذا جاء مبيناً في غير هذه الرواية ، واختلف الأصوليون أن الأمر هل يقتضي التكرار ! فاختار أكثر الفقهاء والمتكلمين أنه لا يقتضي التكرار وقال آخرون : لا يحكم باقتضائه ولا منعه بل يتوقف فيما زاد على مرة على البيان ، وهذا الحديث قد يستدل به من يقول بالتوقف فانه سأل فقال : أكل عام ؟ ولو كان مطلقه يقتضي التكرار أو عدمه لم يقل له النبي ﷺ : لا حاجة إلى السؤال ، بل مطلقه محمول على كذا ، وأجمعت الأمة على أن الحج لا يجب في العمر إلا مرة واحدة بأصل الشرع ، وأما قوله : « **ذروني ما تركتكم** » فهو ظاهر في أن الأمر لا يقتضي التكرار ويدل هذا اللفظ أيضاً على أن الأصل عدم الوجوب وأنه لا حكم قبل ورود الشرع وهو الصحيح عند كثير من الأصوليين ، وقوله : « **لو قلت نعم لوجبت** » دليل للمذهب الصحيح في أنه ﷺ كان له أن يجتهد في الأحكام ، وانه لا يشترط في حكمه أن يكون بوحي ، قوله ﷺ : « **فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود .

(٢) أخرجه مسلم . وأخرجه الترمذي بلفظ : «اتركوني ما تركتكم فإذا حدثتكم فخذوا عني ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» .

(٣) انظر «شرح الأربعين النووية» الحديث رقم (٩) ص ٣٦ .

استطعتم » هذا من قواعد الإسلام المهمة ومما أوتيه ﷺ من جوامع الكلم ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام كالصلاة إذا عجز عن بعض أركانها أو بعض شروطها أتى بالباقي وإذا عجز عن غسل بعض أعضاء الوضوء غسل الممكن وكذلك إذا وجبت فطرة جماعة ممن يلزمه نفقتهم وكذلك أيضاً في إزالة المنكرات إذا لم يمكنه إزالة جميعها فعل الممكن وأشباه ذلك مما لا ينحصر وهو مشهور في كتب الفقه .

وهذا الحديث كقوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ وأما قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله حق تقاته** ﴾ فقيل : منسوخة بقوله : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ قال بعضهم : والصحيح أنها ليست منسوخة بها بل هي مفسرة لها ومبينة للمراد منها قالوا : وحق تقاته : هو امتثال أمره واجتناب ناهيه والله سبحانه لم يأمر إلا بالمستطاع ، فإن الله تعالى قال : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وقال تعالى : ﴿ **ما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾ [الحج : ٧٨] .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « **وما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه** » فهذا على إطلاقه لكن إن وجد عذر يبيحه كأكل الميتة عند الضرورة ونحوه فهذا لا يكون منهياً عنه في هذه الحال .

وأما في غير حال العذر فلا يكون ممتثلًا لمقتضى النهي حتى يترك كل ما نهى عنه ولا يخرج عنه بترك فعل واحد بخلاف الأمر وهذا الأصل إذا فهم فهو مسألة مطلق الأمر هل يحمل على الفور أو التراخي أو على المرة الواحدة أو التكرار ، ففي هذا الحديث أبواب من الفقه والله أعلم .

وقوله : « **إنما أهلك الذين من قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم** » وذكر ذلك بعد قوله : « **ذروني ما تركتكم** » ، أراد لا تكثروا السؤال فربما يكثر الجواب عليه فيضاهي ذلك قصة بني اسرائيل لما قيل لهم اذبحوا بقرة ، فإنهم لو اقتصروا على ما يصدق عليه اللفظ ، وبادروا إلى ذبح أي بقرة كانت أجزأت عنهم ، لكن لما أكثروا السؤال وشددوا شدد عليهم ، وذموا على ذلك ، فخاف النبي ﷺ مثل ذلك على أمته .

وقال النووي رحمه الله[1]: قوله عليه الصلاة والسلام : « **ما نهيتكم عنه فاجتنبوه** » أي اجتنبوه جملة واحدة لا تفعلوه ولا شيئاً منه ، وهذا محمول على نهي التحريم ، فأما نهي الكراهة فيجوز فعله ، وأصل النهي في اللغة : المنع ، قوله ﷺ : « **وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم** » فيه مسائل :

منها : إذا وجد ماء للوضوء لا يكفيه ، فالأظهر وجوب استعماله ثم يتيمم للباقي ومنها إذا وجد بعض الصاع في الفطرة فإنه يجب إخراجه .

ومنها : إذا وجد بعض ما يكفي النفقة للقريب أو الزوجة أو البهيمة فإنه يجب بذله ، وهذا بخلاف ما إذا وجد بعض الرقبة ، فإنه لا يجب عتقه عن الكفارة ، لأن الكفارة لها بدل وهو الصوم .

وقوله ﷺ : « **إنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم** » اعلم أن السؤال على أقسام :

القسم الأول : سؤال الجاهل عن فرائض الدين كالوضوء والصلاة والصوم وعن أحكام المعاملة ونحو ذلك وهذا السؤال واجب وعليه حمل قوله ﷺ : « **طلب العلم فريضة** .. » ولا يسع الإنسان السكوت عن ذلك . قال الله تعالى : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ [النحل : ٤٣] [الأنبياء : ٧] . وقال ابن عباس : إني أعطيت لساناً سؤلاً وقلباً عقولاً كذلك أخبر عن نفسه .

والقسم الثاني : السؤال عن التفقه في الدين لا للعمل وحده مثل القضاء والفتوى وهذا فرض كفاية لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين** .. ﴾ الآية . وقال عليه الصلاة والسلام : « **ألا فليعلم الشاهد منكم الغائب** » .

القسم الثالث : أن يسأل عن شيء لم يوجبه الله عليه ولا على غيره . وعلى هذا حمل

---

(١) «شرح الأربعين النووية» للنووي الحديث رقم (٩) ص (٢٣) .

الحديث ، لأنه قد يكون في السؤال ترتيب مشقة بسبب تكليف يحصل ولهذا أشار ﷺ : « **وسكت عن أشياء رحمة لكم فلا تسألوا عنها** » .

وعن علي رضي الله عنه لما نزلت : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلًا** ﴾ قال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فأعرض عنه حتى أعاد مرتين أو ثلاثاً فقال رسول الله ﷺ : « **وما يوشك أن أقول نعم والله لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم فاتركوني ما تركتكم فإنما هلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن أمر فاجتنبوه** » ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم** ﴾ [المائدة : ١٠١] . أي لم آمركم بالعمل بها وهذا النهي خاص بزمانه ﷺ أما بعد أن استقرت الشريعة وأمن من الزيادة فيها زلل النهي بزوال سببه وكره جماعة من السلف السؤال عن معاني الآيات المشتبهة سئل مالك رحمه الله تعالى عن قوله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ [طه : ٥] . فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وأراك رجل سوء ، أخرجوه عني .

وقال بعضهم مذهب السلف أسلم ، ومذهب الخلف أعلم وهو السؤال .

التشدق في الكلام

عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **شرار أمتي الثرثارون والمتشدقون المتفيهقون ، وخيارُ أمتي أحاسنهم أخلاقاً** »(١).

وعن أبي أمامة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ويشربون أنواع الشراب ويلبسون ألوان الثياب ، ويتشدّقون في الكلام ، فأولئك شرار أمتي** »(٢).

وعن أبي سعيد ، عن رسول الله ﷺ قال : « **سيكون قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر من الأرض** »(٣).

وعن ابن عمرو مرفوعاً : « **إن الله تعالى يبغضُ البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها** »(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٣٠٨) ، وأبو نعيم في «الحلية» وهو حديث حسن كما في «صحيح الجامع» (٣٥٩٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» وأبو نعيم في «الحلية» وهو حديث حسن كما في «صحيح الجامع» (٣٥٥٧) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد ، وهو حديث صحيح كما في «صحيح الجامع» (٣٥٦٤) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي (٢٨٥٧) ، وأبو نصر السجزي في «الإبانة» وهو حديث حسن كما في «صحيح الجامع» (١٨٧١) .

سوء الخلق

عن أبي بردة عن أبيه قال : ثلاثة يدعون فلا يستجاب لهم : رجل عنده امرأةٌ سيئة الخلق فلا يطلقها ، ورجل دفع ماله إلى سفيه ، وقد قال الله عز وجل : ﴿**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم**﴾ [النساء : ٥١] . ورجل باع ولم يُشهد(١).

معنى الحديث : لم يستجب الله لدعاء الثلاثة ، لأن الثلاثة مقصرون ، ومفرطون في حقوقهم ، كما يلي :

الصنف الأول : « **رجل عنده امرأة** .... » لم يستجب الله له إذا دعى عليها ، لأنه المعذب نفسه بمعاشرتها وهو في سعة من فراقها .

الصنف الثاني : « **رجل دفع ماله إلى سفيه** » لأنه قد خالف أمر الله ، بعدم دفع المال إلى السفيه .

الصنف الثالث : « **رجل باع** .... » المعنى أنه باع ، وصار المشتري مدينًا ، ومع ذلك لم يشهد صاحب الدين على دينه ، ففرط في حقه(٢).

عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : « **إن العبد ليبلغ بسوء خلقه أسفل درك جهنم وهو عابد** » (٣)

---

(١) أخرجه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٦) قال المحقق : إسناده حسن ، والحديث صحيح ، أخرجه الحاكم ٣٠٢/٢ وصححه وقال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه لتوقيف أصحاب شعبة الحديث على أبي موسى ، وأوقفه الذهبي وفي سنده فراس ، قال الحافظ : صدوق ربما وهم ، « التقريب » ١٠٨/٢ .. لكنه تابعه الصلت بن بهرام عند ابن عساكر ١/١٨٢/٨ ــ ٢ كما ذكر الشيخ الألباني ، وقد وثقه يحيى وأحمد ، وقال ابن عيينة : كان أصدق أهل الكوفة ، وانظر : « السلسلة الصحيحة » برقم (١٨٠٥) .

(٢) انظر هامش « مساوىء الأخلاق » للخرائطي ص ٢٥ .

(٣) أخرجه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » ، (١٢) قال المحقق : إسناده حسن . أخرجه الطبراني (٧٥٤) في « الكبير » عن شيخه المقدام ابن داود ، وهو متابع في سند الخرائطي ، في سند الحديث نوح بن عباد ، ذكره ابن أبي حاتم ٤٨٤/٨ ولم يذكر جرحاً ولا تعديلًا فيه ، وفي سنده عثمان بن الصالح ، قال الحافظ : صدوق ، وكذا قال الذهبي ، انظر : « الميزان » ٣٩/٣ ، « التقريب » ١٠/٢ . ولذا قال الحافظ العراقي : إسناده جيد ، انظر : « الأحياء » ٥٠/٣ ــ ٥١ .

الرفق والحياء وحسن الخلق

عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : **« إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على ما سواه »** .

وفي رواية : قال لعائشة : **« عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش ، إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه »**[١].

وعن جرير ، عن النبي ﷺ قال : **« من يحرم الرفق يحرم الخير »**[٢].

وعن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء ، فقال رسول الله ﷺ : **« دعه فإن الحياء من الإيمان »**[٣].

وعن عمران بن حصين ، قال : قال رسول الله ﷺ : **« الحياء لا يأتي إلا بخير »** وفي رواية : **« الحياء خير كله »**[٤].

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : **« إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت »**[٦]

وعن النواس بن سمعان ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال : **« البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس »**[١].

---

(١) أخرجه مسلم .
(٢) أخرجه مسلم .
(٣) متفق عليه .
(٤) متفق عليه .
(٥) أخرجه البخاري .
(٦) أخرجه مسلم .

وعن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن من أحبكم إليَّ أحسنكم أخلاقًا** » (١)

وعنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً** » (٢)

وعن رجل من مزينة ، قال : قالوا : يا رسول الله ما خير ما أعطي الإنسان ؟ قال : « **الخلق الحسن** » (٣)

وعن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : « **إن أثقل شيء يوضع في ميزان المؤمن يوم القيامة خلق حسن وإن الله يُبغض الفاحش البذيء** » (٤)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار** » (٥)

وعن أبي ذر ، قال : قال لي رسول الله ﷺ : « **اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن** » (٦)

وعن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : « **المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم** » (٧)

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **بعثت لأتمم حُسنَ الأخلاق** » (٨)

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » وفي « شرح السنة » عن أسامة بن شريك قال في « مشكاة المصابيح » (٥٠٧٩) وإسناده صحيح .

(٤) أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح . وروى أبو داود الفصل الأول .

(٥) أخرجه أبو داود وهو حديث صحيح كما في « المشكاة » (٥٠٨٢) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد والترمذي والدارمي قال في « المشكاة » (٥٠٨٣) وهو حديث حسن .

(٧) أخرجه الترمذي وابن ماجه. قال في « المشكاة » (٥٠٨٧) وإسناده صحيح .

(٨) أخرجه الإمام أحمد وإسناده حسن وصححه الحاكم ووافقه الذهبي . انظر « المشكاة » (٥٠٩٧) .

وعن عائشة ، قالت : كان رسول الله ﷺ يقول : « **اللهم حسنت خلقي فأحسن خلقي** »[1]

وعن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقاً** »[2]

بهذه الصورة الجميلة الرائعة ، يضع الرسول الكريم صلوات الله عليه حجر الزاوية ، في بناء الشخصية الإسلامية المثالية ، وبناء المجتمع المسلم ، القائم على الفضيلة ، المشيّد بدعائم التقى والصلاح ، ففي هذا الهدي النبوي الشريف يبين الرسول عليه الصلاة والسلام منزلة الأخلاق والتربية في الإسلام ، ومكانة المؤمن المتخلف بهذه الأخلاق الكريمة التي هي من أهم مقاصد الإسلام ، فالأخلاق سياج الأمم ، وميزان تقدمها ورقيها ، وعنوان عظمتها وخلودها .. فالأمم لا تحيا بدون أخلاق ، ولا تعيش بغير أدب . قال شوقي :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه   فقوّم النفس بالأخلاق تستقم

وقال أيضاً :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولقد ضرب الرسول الكريم أروع الأمثلة في الخلق الرفيع ، والاستقامة على أمر الله عز وجل ، والتحلي بالأخلاق الكريمة الفاضلة ، حتى أثنى عليه المولى تبارك وتعالى بقوله : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [ن : ٤]. وكفى بهذا الثناء والمديح رفعة وعزة ، وسمواً وجلالًا لنبي الهدى ورسول الأخلاق !

ولقد وضح عليه الصلاة والسلام بهذه الكلمات الروائع قيمة الأخلاق ، ورفع مكانة أهلها ، المتخلقين بحميد الخصال ، الذين ترسخت فيهم معاني الفضل والنبل ، والأدب الرفيع ، حتى أصبحت سجية من سجاياهم ، وأشاد بفضلهم صلوات الله عليه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، قال الشيخ الألباني : إسناده صحيح وقد خرجته في «الأرواء» انظر : «المشكاة» (٥٠٩٩) .

(٢) أخرجه أبو داود ، والدارمي ، بإسناد حسن . انظر : «المشكاة» (٥١٠١) .

حين جعلهم أحب الناس عنده وأقربهم مكانة لديه فقال : « **إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا** » .

فليست الأخلاق سبب السعادة في الدنيا فحسب ، بل هي أساس السعادة وأصل العزّة في الدنيا والآخرة وكفى بجوار الرسول الكريم في دار الخلد والنعيم شرفاً وعلواً لصاحب الخُلُق الرفيع حيث ينال درجة عالية يغبطه عليها كثير من الناس يوم يكون مجلسه إلى جانب مجلس الرسل الكرام والصديقين والشهداء ، فهل بعد هذا عز وشرف يدانيه أو يضاهيه ؟

الرسول ﷺ يضرب لنا المثل الأعلى في الأخلاق ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بال أعرابي في المسجد ، فقام الناس إليه ليقعوا فيه ، فقال النبي ﷺ : « **دعوه وأريقوا على بوله سَجْلًا من ماءٍ أو ذنوباً من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين** »(1).

هذا الأدب الذي أدب الله سبحانه به رسوله الكريم وخاطبه بقوله : ﴿ **لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وعلمه الرسول ﷺ لأصحابه حين قال لهم : « **إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين** » هذا هو أعرابي يدخل مسجد الرسول ﷺ فيتنحى طائفة منه يقف يتبول ، لا يعرف هذا الأعرابي أمور الدين ، ولا يدري حرمة المساجد التي أمر الله أن تعظم وتطهر .. يظن هذا الأعرابي أن المسجد كبقية الأماكن ، ليس هناك ما يمنع من التبول فيه أو قضاء الحاجة ، وليس له من عذر إلا أنه جاهل ، ويرى أصحاب رسول الله هذا المنظر المؤذي ، منظر الأعرابي يتبول في المسجد ، فيسرعون نحوه يريدون ضربه وتأديبه ، لأنه أساء إلى حرمة بيت الله ، ويأمرهم الرسول الرحيم بالكف عنه وعدم ايذائه أو ضربه ، لأن الجاهل ينبغي أن يعلم لا أن يضرب ، فإن الضرب ينفر ولا يؤدب والرسول الكريم يقول : « **بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا** » يأمرهم الرسول بعدم التعرض له بمسبة أو أذى ، ويكلفهم أن يريقوا على بوله دلواً من ماء تطهيراً للمكان من النجاسة ، ثم يدعو الأعرابي

---

(1) أخرجه البخاري .

فيعلمه برفق ولين ، ويرشده إلى أن هذا بيت من بيوت الله عز وجل ، لا يليق بالمسلم أن يحدث فيه أذى ، أو يعرضه لنجاسة ، ويتلطف معه عليه الصلاة والسلام حتى يشعر الأعرابي من نفسه بخطئه ويندم على عمله ، ويطلب من الرسول الكريم العفو والسماح وهنا يقبل الرسول ﷺ على أصحابه مرشداً لهم إلى طريق الرفق في الدعوة ، واللطف في المعاملة ، قائلًا لهم : « **إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين** » .

وقد جاء في بعض الروايات الصحيحة أن ذلك الأعرابي حين أراد الخروج من المسجد ركب ناقته ثم قال : اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا . وذلك لأنه رأى اللطف من الرسول يقول ذلك فقال له : « **لقد حجرت ـــ أي ضيقت ـــ واسعاً يا أخا العرب** » يريد منه أن يعم بدعوته لا أن يخصها بنفسه وبرسول الله فقط .. ولو أن المسلمين تمسكوا بهذا الخلق الرفيع من الرفق في الدعوة ، وحسن النصح والإرشاد لعاشوا سعداء ولما كانت بينهم مشاحنات ، ولوصلوا إلى الغاية المنشودة من أقرب طريق ...

وهكذا يكون أسلوب الدعوة وأسلوب النصح والتذكير وخاصة مع الجاهل ، فلله ما ألطف أخلاق الرسول ، وما أروع تربيته ، وما أحوج المسلمين إلى مثل هذه التربية الحميدة الرشيدة التي تخرج العظماء والأبطال ![1].

---

(١) انظر : « من كنوز السنة » للأستاذ محمد علي الصابوني ص ١٢١ و١٢٩

الفحش والسب واللعن

عن عائشة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « **إن شر الناس عند الله يوم القيامة من فرقه الناس إتقاء فحشه** »(١).

وعن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال لها : « **مه يا عائشة ، فإن الله لا يحب الفحش والتفحش** »(٢).

وفي رواية : « **يا عائشة متى عهدتني فحاشاً ؟ إن شر الناس عند الله منزلةً يوم القيامة ، من تركه الناسُ اتقاء شره** »(٣).

وفي رواية : « **يا عائشة لا تكوني فاحشة** »(٤).

وعن أبي هريرة مرفوعاً : « **المستبان ما قالا فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم** »(٥).

وعن أنس مرفوعاً : « **ما كان الفحش في شيء قط إلاّ شانه ، ولا كان الحياءُ في شيء قط إلا زانه** »(٦).

ويحسن بنا في هذا المقام أن نذكر نبذاً من أخلاق وحياء وتسامح الرسول ﷺ لنتأسى بخلقه العظيم لقوله عز من قائل : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٣٨/٦ ، والبخاري (٣١٣٢) و (٦٠٥٤) و (٦١٣١) . ومسلم (٢٥٩١) ، وأبو داود (٤٧٧٠) .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم .

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي .

(٦) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري في «الأدب المفرد» والترمذي وابن ماجه .

كان يرجوا الله واليوم الآخر .. ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

قال عليه الصلاة والسلام : « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » ..

وقال عليه الصلاة والسلام : « **إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإنّ أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون ، والمتشدقون ، والمتفيهقون** » قالوا : يارسول الله : ما المتفيهقون ؟ قال : « **المتكبرون** »(١).

وقال عليه الصلاة والسلام : « **إن من أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً** »(٢).

يقول الشيخ إبراهيم الجبالي(٣): التسامح معنى في النفس يرجع إلى طائفة من الأخلاق الكريمة والصفات الفاضلة ، أو هو مظهرها وأثر من أعظم آثارها ، وثمرة جليلة من أعز ثمارها منها الحلم ، والصبر ، والاحتمال ، وسعة الصدر ، والعفو عند المقدرة ، والتواضع ، ومنها السخاء ، والجود ، والعفة ، وضبط النفس . وهذه الصفات على تقارب معنى بعضها من بعض ، قد فرق بينها علماء الأخلاق فروقاً ليس المقام متسعاً لشرحها ، على أن معانيها في الجملة غير خفية .

والتسامح على اتصاله بهذه المجموعة العظيمة من الأخلاق الكريمة ، من أيمن الصفات الحميدة أثراً ، وأجزلها فائدة ، وأعودها بالخير على المجموع . يؤلف القلوب المتنافرة ، ويقرب النفوس المتباعدة ، ويهدي الأرواح الجامحة ، فربّ كلمة طيبة فضت مشاكل وحلّت عقداً متعاصية الحل ، ورب تسامح في أمر قليل ، حفظ من الوقوع في خطر كبير وخطب جليل .

ولقد كان ﷺ في الذروة العليا في هذا الخلق الكريم ، سواء في معاملته الفردية أو في مواقفه الخطيرة الاجتماعية ، ما لم تكن الحكمة السديدة في المعاملة الشديدة ، بل قد

---

(١) أخرجه الترمذي عن جابر وهو حديث حسن كما في «صحيح الجامع» (٩٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عمرو .

(٣) وهو من كبار علماء الأزهر الشريف له مقالات جليلة في مجلة الأزهر .

تجلى ذلك ، فيما أوحى الله به إليه من أحكام الشريعة الذي جاء به رحمة للناس أجمعين . فما خيرّ ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، وما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله فيغضب لله أن تنتهك حرمته ، وما عالج أمراً من الأمور الحيوية بشيء من الشدة إلا إذا تعينت واستحكم العناد والإباء في نفوس من يعاندونه ويأبون قبول المصلحة لأنفسهم ، أمثال أولئك الأغبياء الذين قالوا فيما قالوا : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ بدل أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه الصراط المستقيم .

وإليك بعض مظاهر التسامح منه ﷺ ..

فمن ذلك : أنه ﷺ في أول أمره حين اشتد أذى قريش له ، عرض نفسه على القبائل ليحميه أحد منهم ، فكان بعضهم يردّ ردّاً جميلًا ، وبعضهم يغلظ في الرد ، ووصل الأمر بسفهاء بعض القبائل أن أتبعوا الرد بإغراء صبيانهم به عليه الصلاة والسلام فأدموا قدمه الشريف برمية حجر ، فما زاد ﷺ على قوله : **اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون** أو **اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون** وروى ذلك عنه ﷺ في وقعة أحد حين كسرت رباعيته ﷺ ، وأدميت وجنته بدخول حلقة المغفر فيها .

فانظر إلى وقت اشتد فيه البأس وحمي وطيس الحرب ، والنفس عادةً تستجمع أقوى ما عندها من غضب لتستعين به على حفز قواها لمناهضة خصمها ، ويزيد في ذلك ما تتحرك به القوة الغضبية حين وصول الأذى ، انظر مع هذا كله تطيب نفسه ، فبدل أن يسكت عنهم أو يدعو عليهم ، يدعو لهم بالمغفرة أو بالهداية على اختلاف الروايتين . والدعاء لهم إنما يصدر عن وفور الشفقة ، ويسند تلك الشفقة بأنهم قومه ، والالتفات إلى هذا إنما يكون عادة من الوسيط بين المتخاصمين لا من أحدهما بالنسبة إلى الآخر ، ثم يعتذر عن فظيع عملهم ومقابلتهم دعوته إلى سعادتهم بمهاجمته ومقاتلته يعتذر عنهم بأنهم لا يعلمون ، والجاهل ينبغي أن يقبل منه العذر .

وانظر إلى ماروي في صلح الحديبية حين قدم ﷺ مكة للنسك لا للحرب ، والكعبةُ بيت الله الحرام لا يصدّ عنه ناسك ، وقد ظهرت أمارات قدومهم للنسك لا

للحرب ، فأبوا عليه وصدوه عن بيت الله ، فلما اقتنعوا بنيته تمادوا في إبائهم وقالوا : وليكن نسككم في عام قابل .

واتخذت هذه الواقعة فرصة مناسبة لعقد صلح بينه وبين المشركين على شروط اشتط فيها المشركون حتى قالوا : من ذهب منا إليكم فعليكم أن تردوه لنا ، ومن جاء إلينا منكم فليس علينا رده . فتذمر المسلمون لهذا الشرط ، فرضّاهم المصطفى ﷺ بأن من ذهب منا إليهم فلا رده الله ، ثقة بأنه لا يذهب إليهم أحد من المسلمين مرتداً ، ومن جاء منهم إلينا ورددناه فسيجعل الله له فرجاً ، وقد كان هذا التسامح في الشروط من أيمن التصرفات وأعودها بالخير على المجتمع ، فقد وضعت الحرب بين الفريقين أوزارها ، وأمن الناس على أنفسهم فانتقلوا بالمتاجر وغيرها ، وأدّى ذلك إلى الاختلاط ، فسماع الهدى منه ﷺ ، فانشراح صدور للإسلام ، وهداية كثير من الناس .

ولما رد ﷺ بعض المسلمين إليهم مراعاة للشروط التي بينه وبينهم صمد أولئك المسلمون الذين رُدّوا لعناد قريش وإلحاق الأذى بهم ، غير مستندين إلى قوة إخوانهم المسلمين ، بل مستقلين في ذلك بأنفسهم ، حتى فرج الله عن المسلمين ، ونقضت قريش شروطها ، فكان المسلمون بذلك في حِل من تلك الشروط ، وجاء الفتح الذي به دخل الناس في دين الله أفواجاً .

ومما وقع في هذه القصة أيضاً : تسامحه عليه السلام بحذف كلمة « **رسول الله** » حين تصلبوا وقالوا : لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ولكن قل : محمد بن عبد الله . فأبى كاتبه عليه السلام أن يمحوها ، فمحاها ﷺ بنفسه ، وأجابهم إلى طلبهم ، ثقة بأن الله ناصره في النهاية ، وقد كان .

وانظر إليه ﷺ يوم فتح مكة وقد دخلها وهي موطنه الذي أخرج منه قسراً فدخلها ظافرًا ، ولا تزال تلك الرءوس التي كانت تعمل على أذاه شامخة بعزها إلى هذا اليوم الذي قهرها الله فيه ، فزاغت الأبصار وظنوا أنه يوم هلاكهم ، ولا شيء أدعى لليأس ، من غلبة من كان مظلوماً بالأمس ، فجمعهم وقال : « **ما تقولون أني فاعل بكم ؟** » فقالوا استعطافاً لرحمته : أخ كريم وابن أخ كريم . فقال عليه الصلاة

والسلام : « **اذهبوا فأنتم الطلقاء** » وقد كان أبو سفيان من أشد رءوس قريش عناداً وتعنتاً ، وهو الذي ألّبَ عليه الأحزاب فغزوا المدينة ، وهو الذي استنفر عليه قريشاً يوم بدر ويوم أحد ، وهو الذي كان منه من العناد ما كان ، فأبى ﷺ إلا أن يستنزله عن عناده وكبريائه بأعظم تسامح : فبدأ بأن نوه بشأنه ، فنادى مناديه فيما نادى بقوله : « **من دخل دار أبي سفيان فهو آمن** » ففتح ذلك باب الرجاء في نفس أبي سفيان . ولما جيء به إليه وهو رأس تلك الحوادث ، لم يزده عل أن قال له : « **ألم يأن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله** » فاستل بهذا ما بقي في نفسه من غطرسة وعناد ، وأسلم طائعاً غير مجروح العزة ولا فاقد الشمم ، وكان في إسلامه وهو من عظماء قريش عزة للمسلمين .

ولقد روى أنه ﷺ كان نائماً في بعض الغزوات ، فانسل إليه رجل من المشركين خلسة ، واخترط سيفه وكان معلقاً بشجرة ، واستيقظ ﷺ فرأى الرجل والسيف مصلت في يده ، فقال له الرجل : من يمنعك مني الآن ؟ فقال ﷺ : « **الله** » فوقع السيف من يد الرجل ، فأخذه ﷺ وشهره عليه وقال : من يمنعك مني ؟ فقال الرجل : كن خير آخذ يا محمد . فعفا عنه ﷺ ، فأسلم الرجل .

ومن ذلك ما يروى أن رجلًا جبذه عليه السلام من ردائه وقال : أعطني يا محمد من مال الله فإنك لا تعطيني من مالك ولا من مال أبيك ، وكانت الجبذة شديدة حتى أثّر طرف الرداء في عنقه ﷺ ، فسكت ﷺ ثم قال : « **المال مال الله ، وأنا عبده — ثم قال : — ويقاد منك يا أعرابي ؟** » فقال : لا ، قال : « **ولم ؟** » قال : لأنك لا تجزي بالسيئة السيئة . فضحك ﷺ وأمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى آخر تمر .

وجاءه رجلًا يتقاضاه ديناً قبل أجله بثلاث ، فأغلظ في القول حتى قال له : أعطني ديني إنكم يا بني عبد المطلب قوم مطل ، فانتهره عمر وأغلظ له في القول ، فكفّه عنه ﷺ وقال له : « **دعه يا عمر أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك : تأمره بحسن التقاضي وتأمرني بحسن الأداء** » وقضاه دينه ، وزاده عشرين صاعاً دفعاً لترويع عمر إياه ، مع أنه لم يكن حل أجله ، فانظر إلى هذا الاحتمال مع أن الطلب بغير وجه حق ، وإلى تعليمه عمر ما ينبغي أن يصنعه الرجل الذي يحضر خطاباً بين اثنين .

ولقد أسلم الرجل وقال : لقد رأيت فيه كل علائم النبوة إلا هاتين العلامتين :

يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلماً ، فعملت ما عملت لأتبينهما ، ومثل ذلك ما روى أن رجلًا استعطاه ﷺ فأعطاه ، ثم سأله : « **أحسنتُ إليك يا أعرابي** » ؟ فقال : لا ، ولا أجملت . فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فقال ﷺ : « **كفوا عنه** » وأعطاه حتى رضي ، وقال : « **أحسنتُ إليك يا أعرابي** » ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً . فقال ﷺ : « **إن مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة سردت منه فاتبعها الناس ليردوها عليه فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحبها : خلّوا بيني وبين ناقتي فانّي أرفق بها وأعلم ، فتوجه إليها وأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها ، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال وقتلتموه ، دخل النار** » .

فانظر كيف يردف الخلق الحسن بشرح الثمرة المترتبة . واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ **ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ [فصلت : ٣٤] .

وبعد : فهل هذا مستغرب على من يقول الله له : ﴿ **فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ويقول الله تعالى في وصفه مخاطباً المؤمنين : ﴿ **لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وانظر معاملته ﷺ للمنافقين ..

لقد كان للمنافقين معه عليه الصلاة والسلام حوادث يضيق لها صدر الحليم ، وهم مستظلون بظله ومحتمون بحمايته ، ومخالطون للمسلمين ، يعلمون دخائلهم ، ويفشون أسرارهم ، ويصحبونهم في غزواتهم ، لينهزموا في وسط المعركة فينهزم المسلمون ، أو لينصرفوا في أثناء الطريق لينصرف معهم ضعفاء القلوب . وكان ﷺ عالماً بهم يطلعه الله على دخائل قلوبهم وذات صدورهم ، ويشير عليه بعض الصحابة بقتلهم ، وهو قادر

على إبادتهم ، ومع ذلك ينهاهم عنهم ويقول : لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه .

فانظر كيف يتحمل أذاهم مع هذه الصفات حتى لا يلعب الشيطان شيطان الإنس وشيطان الجن بعقول من يشاور نفسه في الإسلام ويقول له مالك ولرجل يقتل أتباعه . وحسبك في تمثل جرمهم ما حكاه عز وجل عنهم في قوله تعالى : ﴿**هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا**﴾ [المنافقون : ٧] . وقوله : ﴿**يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ**﴾ [المنافقون : ٨] . وابتكارهم لقصة الإفك ، وقد كان ما فيه من الفظاعة من جانبهم ، وحسن الإحتمال من جانبه ﷺ .

وانظر تسامحه مع ضعفاء المؤمنين ...

ويلتحق بذلك تسامحه مع حاطب بن أبي بلتعة حين عزم ﷺ على فتح مكة ، وكان من كمال التدبير ألاّ يعلم القوم ، لكيلا يستعدّوا فتتسع دائرة الحرب وتراق دماء كثيرة ، فعنّ لرجل من المسلمين أن يخطر القوم ، فكتب لهم يعلمهم ، وأعطى الكتاب لامرأة وضعته في شعرها ، فأعلمه الحق جل جلاله ، فأرسل إليها من الصحابة من أدركها وانتزع الكتاب منها ، فلما سأل حاطباً في ذلك اعتذر بأن له لديهم مصالح خشي عليها منهم ، فأراد أن يتخذ عندهم يداً ليحفظوه في مصالحه ، وهو مع ذلك عالم أن الله ناصره عليهم ، فقبل ﷺ منه ذلك وعفا عنه . فكم في هذا من تسامح فيما يعدّ اليوم خيانة كبرى يجازى عليها بالقتل .

التسامح في الشريعة الغراء :

لقد استفاضت الدعوة إلى التسامح في الشريعة الغراء حتى سميت بحق الشريعة السمحة . اقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿**وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم**﴾ [البقرة : ٢٣٧] . ﴿**وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم**﴾ [النور : ٢٢] . ﴿**والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾ . [آل عمران : ١٣٤] وصلى الله على من أرسله رحمة للعالمين والحمد لله رب العالمين .

اللعن

عن عبد الله ، عن الرسول ﷺ قال : « إذا خرجت اللعنة من في صاحبها نظرتْ فإن وجدتْ مسلكاً في الذي وجهت إليه ، وإلا عادت إلى الذي خرجت منه »[1].

وعن أبي الدرداء ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن العبد إذا لعن شيئاً صعدتِ اللعنةُ إلى السماء ، فتغلقُ أبوابُ السماء دونها ، ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يميناً وشمالاً ، فإذا لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لعن ، فإن كان لذلك أهلاً وإلا رجعت إلى قائلها »[2].

وعن جابر ، عن رسول الله ﷺ قال : « لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيه عطاء فيستجيب لكم »[3] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لم أُبعث لعاناً ، وإنما بعثتُ رحمةً »[4].

(١) حديث حسن انظر «صحيح الجامع» (٥١٥) .
(٢) أخرجه أبو داود وهوحديث حسن انظر : «صحيح الجامع» (١٦٦٨) .
(٣) أخرجه الإمام مسلم ، (٣٠٠٩) .
(٤) أخرجه الإمام مسلم ، والبخاري في «الأدب المفرد» .

وعن كريز بن أسامة مرفوعاً : « **إني لم أبعث لعانًا** »(١).

وعن أبي الدرداء ، عن رسول الله ﷺ قال : « **لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة** »(٢).

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **لا ينبغي لصدّيق أن يكون لعّاناً** »(٣).

---

(١) أخرجه الطبراني وهو حديث صحيح كما في «صحيح الجامع» (٢٤٩٧) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود .
(٣) أخرجه الإمام أحمد ، ومسلم (٢٥٩٧) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣١٧) .

لعن المؤمن وتكفيره

عن ابن مسعود ، عن رسول الله ﷺ قال : « **سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر** »(١).

وعن أبي ذر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **لا يرمي رجل رجلًا بالفسق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكُن صاحبه كذلك** »(٢).

وفي رواية له : « **من دعا رجلًا بالكفر ، أو قال : عدو الله ، وليس كذلك إلا حار عليه** »(٣).

وعن عبد الله قال : إذا قال الرجل لأخيه المسلم : أنت لي عدو ، فقد كفر أحدهما بالإسلام(٤).

وعن أبي هريرة قال : تجنبوا أن تكونوا صديقين لعانين(٥).

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا قال الرجل لأخيه : أنت لي عدو ، فقد باء أحدهما بإثمه إن كان كذلك ، وإلا رجعت على الأول** »(٦).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ١٧٦/١ و١٧٨ ، والبخاري ١٩/١ ، ومسلم ٥٤/٢ ، والترمذي (٢٠٤٩) ، والنسائي ١٢٧/٧ ، وابن ماجة (٣٩٣٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ١٨١/٥ والبخاري (٦٠٤٥) ، وفي «الأدب المفرد» ص ١٢٨ والبغوي في «شرح السنة» ١٣٢/١٣ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد ١٦٦/٥ ، ومسلم ٤٩/٢ ، والبخاري في «الأدب المفرد» ص ١٢٨ .

(٤) أخرجه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» بسند صحيح (١٧) .

(٥) أخرجه الخرائطي بإسناد حسن في «مساوىء الأخلاق» (١٩) وأخرجه مسلم ١٤٨/١٦ مرفوعاً بلفظ : «لا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً» .

(٦) أخرجه البخاري (٦١٠٤) ، ومسلم ٤٩/٢ ، وأحمد ٤٧/٢ ، والترمذي (٢٧٧٤) والطحاوي في «مشكل الآثار» ٣٦٨/١ ، والبغوي في «شرح السنة» ١٣١/١٣ .

وعن ثابت بن الضحاك ، أن نبي الله ﷺ قال : « **لعن المؤمن كقتله** »[1].

وعن أبي المهلب أن عبد الله بن عامر قال : يا أبا مسعود ، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول ؟ قال : **سمعته يقول** : « **لعن المؤمن كقتله** »[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٣٤/٤ ، والبخاري (٦٠٤٧) ، ومسلم ١١٩/٢ ، والترمذي (٢٧٧٣) .
(٢) أخرجه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (٢٣) بإسناد حسن .

سب الناس وتناول أعراضهم

عن أبي جُرَيٍّ قال : قلت : يا رسول الله اعهد إليّ ، قال : « **لا تسبن أحداً** »(١).

قال : فما سببت أحداً حُراً ولا عبداً ولا شاة ولا بعيراً .

وعن أسامة بن شريك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **رفع الحرج إلا رجل اقترض من عرض أخيه ظلماً فذاك الذي حَرِج وَهَلك** »(٢).

معنى الحديث : قوله : « **رفع الحرج** » : أي الإثم عما سألتموه من الأشياء ، « **إلا رجل اقترض** » المعنى : وضع الله الحرج عمن فعل شيئاً مما ذكرتموه إلا عمن اقترض ، واقترض بمعنى قطع ، ومعناه : إلاّ من اغتاب أخاه ، أو سبّه ، أو آذاه في نفسه ، عبر عنه بالاقتراض لأنه يسترد منه في يوم القيامة .

وعن عياض بن حماد قال : قلت : يا رسول الله الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل عليّ بأس أن أنتصر منه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **المستبان ما قالا ، شيطانان يتكاذبان ، ويتهاتران** »(٣)

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٤٠٨٤) ، والإمام أحمد ٦٥/٤ و٦٣/٥ ، والبيهقي في «السنن» ٢٣٦/١٠ ، والبغوي ٨٣/١٣ في «شرح السنة» ، وابن حبان في «الإحسان» (٥١١) و(٥٢٢) ، والحاكم ١٨٦/٤ وصححه وأقره الذهبي ، والخرائطي في «مساوىء الأخلاق» .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه الطيالسي (١٧٤٧) ، والإمام أحمد ٣١١/١ و ٣٢٦/٣ و٢٧٨/٤ ، وأبلو داود (٢٠١٥) و (٣٨٥٥) ، والترمذي (٢١٠٩) ، وابن ماجه (٣٤٣٦) ، والطبراني في «الكبير» (٤٦٣) — (٤٦٧) و (٤٦٩) و (٤٧١) و (٤٧٢) ، وفي «الصغير» ٢٠٢/١ — ٢٠٣ ، والحاكم في «المستدرك» ٣٩٩/٤ ، والخطيب في «تاريخ بغداد» ١٩٧/٩ ، والخرائطي في «مساوىء الأخلاق» ص ٣١ .

(٣) أخرجه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (٣٢) بإسناد حسن . وقد أخرجه الإمام أحمد ١٦٢/٤ و٢٦٦ ، والبخاري في «الأدب المفرد» ص ١٢٧ ، والطيالسي ١٤٦/١ ، والطبراني في «الكبير» ٣٦٥/١٧ ، والبيهقي في «السنن» ٢٣٥/١٠ .

قوله : « **المستبان** » أي اللذان يسب كل منهما الآخر . « **ما قالا** » أي : ما قالاه من السب والشتم فقد وقعا في الإثم .

« **شيطانان يتكاذبان ويتهاتران** » أي أن كل منهما يتسقط صاحبه ، وينقصه ، وقوله : يتهاتران : من الهتر وهو الباطل من القول .

ويستفاد من الحديث عدم مقابلة السب بالسب ، وكذا سائر المعاصي ، وإنما القصاص على ما ورد به الشرع . وقال قوم من العلماء : تجوز المقابلة فيما لا كذب فيه ، ونهيه عن التعيير بمثله نهي تنزيه ، والأفضل تركه ، لكنه لا يعصي ، والله أعلم .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **المستبان ما قالا ، فعلى البادىء حتى يعتدِيَ المظلوم** »(١)

قوله : « **فعلى البادىء** » أي إثم السباب الواقع من الاثنين مختص بالبادىء منهما كله ، ما لم يخرج الثاني عن حقه .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **أتدرون من المفلس ؟** » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال ﷺ : « **إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ ، وصيامٍ ، وزكاةٍ ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار** »(٢)

لم يترك رسول الهدى والرحمة طريقاً من طريق الخير إلا دلّ أمته عليه ، ولم يترك سبيلًا من سُبل الشرّ إلا حذر أمته منه ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، وفي هذا الحديث النبوي الشريف يلفت الرسول الكريم أنظار الصحابة رضوان الله عليهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٥١٧/٢ ، ومسلم ١٤٠/١٦ — ١٤١ ، أبو داود (٤٨٩٤) ، والترمذي (٢٠٤٧) . وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» عن أنس بن مالك ص (١٢٧) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٣٠٣/٢ و٣٣٤ و٣٧٢ ، ومسلم ١٣٥/١٦ — ١٣٦ ، والترمذي (٢٥٣٣) وقال : هذا حديث حسن صحيح . والبيهقي في «السنن» ٩٣/٦ .

إلى أمر عظيم هام ، وإلى ناحية دقيقة ، طالما غفل كثير من الناس عنها ولم يفطنوا لها تلك هي تصور مفهوم الإفلاس على حقيقته ، فالناس يعتبرون المفلس من لا يملك من المال شيئاً أو من فقد ثروته وماله ، فهم يحصرون الإفلاس في المادة فحسب ويجعلونه قاصراً على الدرهم والدينار والمتاع ، والرسول عليه الصلاة والسلام ينظر إلى الإفلاس من زاوية أوسع لأنه يهتم بالحقيقة دون الصورة وبالواقع دون المظهر ، فهو يخاطب أصحابه بأسلوب فيه إثارة إلى البحث والتفكير ، وفيه تنبيه لهم إلى أن يغوصوا إلى أعماق الموضوع لتظهر لهم الحقيقة ناصعة جليّة ، فليس المال والمتاع بالشيء المخيف ، ولا بالأمر الخطير ، ولكن الإفلاس الحقيقي هو أمور تضيع في الدين ، وفي الأعمال الصالحة ، وفي الحسنات التي تقرب العبد من ربه وتجعله سعيداً في آخرته ودنياه هذا هو الشيء الخطير .. فكم من أناس ملكوا الدنيا ، وكدّسوا الثروات الضخمة ، وعاشوا في هذه الحياة مترفين ، ولكنهم كانوا تعساء لأنهم أناس مفلسون ، قد ذهبت حسناتهم وتلاشت خيراتهم ، وذهبت إلى أولئك المظلومين الذين اعتدى عليهم ..

وهكذا يمضي عليه الصلاة والسلام في بيان حقيقة المفلس الذي ينبغي أن نرثي لحاله فيقول : « **إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ..** » الحديث . أليس هذا مما يدعو إلى الحسرة والإشفاق أن يجمع الإنسان الحسنات ثم يأتي يوم القيامة وقد ذهبت لخصومه ولم يبق له منها إلا سيئات خصومه الذين ظلمهم في الدنيا فتطرح عليه ثم تكون نهايته سقَرْ ..

اللهم جنبنا السوء والفحشاء واجعلنا من عبادك الصالحين[1].

وعن أبي صرمة عن الرسول ﷺ قال : « **من ضار مسلماً ضر الله به ، ومن شاق مسلماً شق الله عليه** »[2].

---

(١) انظر : «كنوز السنة» ص ١٧٧

(٢) وإسناده حسن بشواهده أخرجه الإمام أحمد ٤٥٣/٣ ، وأبو داود (٣٦١٨) والترمذي (٢٠٠٥) وقال : حسن غريب ، وابن ماجه (٢٣٤٢) ، والطبراني في «الكبير» (٣٣٠/٢٢) وأخرجه الحاكم ٥٧/٢ — ٥٨ من حديث أبي سعيد بلفظ مقارب .

وعن أنس قال : لم يكن رسول الله ﷺ سباباً ولا فحاشاً ، كان يقول لأحدنا عند المعاتبة : « **ترب جبينك** »[1].

قال ابن المبارك : يعني في الصلاة .

وعن ابن عمر ، أن النبي ﷺ قال : « **يا أيها الناس أي يومٍ هذا ؟** » قالوا : يومٌ حرامٌ . قال : « **أي شهرٍ هذا ؟** » قالوا : شهرٌ حرامٌ . قال : « **أي بلدٍ هذا ؟** » قالوا : بلدٌ حرامٌ . قال : « **إن الله قد حرم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا** »[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٨/١٥ . وأخرجه من حديث ابن عمرو : البخاري ٨/١٦ ، ومسلم ١٥/٧٨ ، والترمذي (٢٠٤١) . وأخرجه من حديث عائشة : الإمام أحمد ٦/٢٣٦ و٢٤٦ ، والترمذي (٢٠٨٥) .

(٢) أخرجه البخاري ١/٢٦ و٢/٢١٥ و٢١٦ ، ومسلم ٨/١٨٢ و١١/١٦٧ ــ ١٦٩ ، والإمام أحمد ١/٢٣٠ و٣/٣١٣ و٣٧١ و٤٨٥ و٤/٧٦ و٣٣٧ و٥/٣٠ و٣٧ و٣٩ و٤٠ و٤٩ و٦٨ و٤١١ ، والترمذي (٢٢٤٨) و(٣٢٨٢) ، وابن ماجه (٣٠٥٧) و(٣٠٥٨) كلهم من طرق متعددة .

سب الصحابة

وسب أحد من الصحابة عدها الذهبي في « الكبائر » فقال : ثبت في « الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « **يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب** » .

وقال ﷺ : « **لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه** »(١).

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « **لعن الله من سب أصحابي** »(٢).

وقال ﷺ : « **الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله أوشك أن يأخذه** »(٣).

ففي هذا الحديث وأمثاله بيان حالة من جعلهم غرضاً بعد رسول الله ﷺ وسبهم وافترى عليهم وعابهم وكفرهم واجترأ عليهم .

وقوله : « **الله الله** » كلمة تحذير وإنذار كما يقول المحذر : النار النار ، أي احذروا النار ، وقوله : « **لا تتخذوهم غرضاً بعدي** » أي لا تتخذوهم غرضاً للسب والطعن ، كما يقال : اتخذ فلان غرضاً لسبه أي هدفاً للسب . وقوله : « **فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم** » فهذا من أجل الفضائل والمناقب لأن محبة الصحابة لكونهم صحبوا رسول الله ﷺ ونصروه وآمنوا به وعزروه وواسوه بالأنفس والأموال ، فمن أحبهم فإنما أحب النبي ﷺ ، فحب أصحاب النبي ﷺ عنوان محبته

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم انظر : «صحيح الجامع» (٧١٨٧) .
(٢) «صحيح الجامع» (٤٩٨٧) .
(٣) أخرجه الترمذي انظر : «الكبائر» للذهبي ص ٢٣٧ .

وبغضهم عنوان بغضه كما جاء في الحديث الصحيح : « **حب الأنصار من الإيمان وبغضهم من النفاق** » وما ذاك إلا لسابقتهم ومجاهدتهم أعداء الله بين يدي رسول الله ﷺ وكذلك حب علي رضي الله عنه من الإيمان وبغضه من النفاق ، وإنما يعرف فضائل الصحابة رضي الله عنهم من تدبر أحوالهم وسيرهم وآثارهم في حياة رسول الله ﷺ وبعد موته من المسابقة إلى الإيمان والمجاهدة للكفار ، ونشر الدين ، واظهار شعائر الإسلام ، وإعلاء كلمة الله ورسوله ، وتعليم فرائضه وسننه ، ولولاهم ما وصل إلينا من الدين أصل ولا فرع ، ولا علمنا من الفرائض والسنن سنة ولا فرضاً ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئاً .

فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خرج من الدين ومرق من ملة المسلمين ، لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم وإضمار الحقد فيهم وإنكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من ثنائه عليهم ، وما لرسول الله ﷺ من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحبهم ، ولأنهم أرضى الوسائل من المأثور والوسائط من المنقول ، والطعن في الوسائط طعن في الأصل ، والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول ، هذا ظاهر لمن تدبره ، وسلم من النفاق ومن الزندقة والإلحاد في عقيدته ، وحسبك ما جاء في الأخبار والآثار من ذلك كقول النبي ﷺ : « **إن الله اختارني واختار لي أصحاباً ، فجعل لي منهم وزراء وأنصارا وأصهاراً فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلًا** » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ : إنا نُسب ، فقال رسول الله ﷺ : « **من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين** » .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله اختارني واختار لي أصحابي وجعل لي أصحاباً وإخوانه وأصهاراً ، وسيجيء قوم بعدهم يعيبونهم وينقصونهم فلا تواكلوهم ولا تشاربوهم ولا تناكحوهم ولا تصلوا عليهم ولا تصلو معهم** » .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا ذكر أصحابي فأمسكوا وإذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا** » .

قال العلماء : معناه من فحص عن سر القدر في الخلق ، وهو : أي الامساك علامة الإيمان والتسليم لأمر الله ، وكذلك النجوم ومن اعتقد أنها فعالة أو لها تأثير من غير إرادة الله عز وجل فهو مشرك ، وكذلك من ذم أصحاب رسول الله ﷺ بشيء وتتبع عثراتهم وذكر عيباً وأضافه إليهم كان منافقاً . بل الواجب على المسلم حب الله وحب رسوله ، وحب ما جاء به ، وحب من يقوم بأمره ، وحب من يأخذ بهديه ويعمل بسنته ، وحب آله وأصحابه وأزواجه وأولاده وغلمانه وخدامه ، وحب من يحبهم وبغض من يبغضهم ، لأن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله .

قال أيوب السختياني : من أحب أبا بكر فقد أقام منار الدين ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل ، ومن أحب عثمان فقد استنار بنور الله ، من أحب علياً فقد استمسك بالعروة الوثقى ، ومن قال الخير في أصحاب رسول الله ﷺ فقد برىء من النفاق .

وأما مناقب الصحابة وفضائلهم فأكثر من أن تذكر ، وأجمعت علماء السنة أن أفضل الصحابة العشرة المشهود لهم ، وأفضل العشرة : أبو بكر ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ، ولا يشك في ذلك إلا مبتدع منافق خبيث .

وقد نص النبي ﷺ في حديث العرباض بن سارية حيث قال : « **عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور** » [الحديث رواه الترمذي وصححه] . .

والخلفاء الراشدون هم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين . وأنزل الله في فضائل أبي بكر رضي الله عنه آيات من القرآن ، قال الله تعالى : « **ولا يأتل أُوْلُواْ الفضل منكم والسَّعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين** » الآية [النور : ٢٢] . لا خلاف أن ذلك فيه ، فنعته بالفضل رضوان الله عليه وقال تعالى : ﴿ **ثاني اثنين إذ هما في الغار** ﴾ [التوبة : ٤٠] . الآية ، لا خلاف أيضاً أن ذلك في أبي بكر رضي الله عنه شهدت له الربوبية بالصحبة ، وبشره بالسكينة ، وحلاه بثاني اثنين كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من يكون أفضل من ثاني اثنين الله ثالثهما ؟

وقال الله تعالى : ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾ [الزمر : ٣٣] .

قال جعفر الصادق : لا خلاف أن الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ والذي صدق به أبو بكر رضي الله عنه ورأى منقبة أبلغ من ذلك فيهم ؟ رضي الله عنهم أجمعين .

شتم الرجل والديه

عن أبي الطفيل قال : جاء رجل إلى علي بن أبي طالب ، وأنا عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني ما كان النبي ﷺ يسر إليك ؟ قال : فغضب عَلِيّ وقال : ما كان النبي ﷺ يسر إليَّ بشيء فيكتمه الناس ، غير أنه حدثني بكلمات أربع ، قال : ما هن يا أمير المؤمنين ؟ قال :

« لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غير منار الأرض »(١).

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : **« ملعون من سب أباه ، ملعون من سب أمه ، ملعون من ذبح لغير الله ، ملعون من غير تخوم الأرض ، ملعون من كمه أعمى عن الطريق ، ملعون من وقع على بهيمة ، ملعون من عمل عمل قوم لوط »**(٢).

وعن ابن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : **« إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه »** قيل : يا رسول الله كيف ذاك ؟ قال : **« يلعن أبا الرجل ، فيلعن أباه ، ويلعن أمه ، فيلعن أمه »**(٣).

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : **« إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه »** قيل : يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : **« يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه »**(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ١٠٨/١ و١١٨ و١٥٢ ، ومسلم (١٩٧٨) ، والنسائي ٢٣٢/٧ .

(٢) أخرجه الخرائطي بإسناد صحيح في «مساوىء الأخلاق» ، ورواه الإمام أحمد ٢١٧/١ ، و٣١٧ ، وابن حبان في «الإحسان» (٤٤٠٠) ، والترمذي والحاكم ٣٥٦/٤ ، والطبراني (١١٥٤٦) ، والبيهقي في «السنن» ٢٣١/٨ ، قال في «المجمع» ١٠٣/١ رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٣) أخرجه البخاري ٣/٨ ومسلم ٨٣/٢١ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد ٢١٦/٢ ، والبخاري (٥٩٧٣) ، ومسلم (٩٠) والترمذي (١٩٦٥) وقال : هذا حديث صحيح .

قد وضع النبي ﷺ للمسلمين أصلًا من أصول الدين الإسلامي المتينة ، ينبني عليه حكم عامّ الفائدة ، وهو إقفال كل باب يدخل منه الشر على المسلمين ، وقطع كل سبيل تتسرب منه الفتنة إليهم .

بين لنا ﷺ أن من الذنوب الكبيرة والمعاصي الفاحشة ، أن يتسبب الإنسان في شتم أبيه أو أمه ، وأن يُجَرِّىء غيره على التعدّى عليهما بالسب والقذف وقد استعظم المسلمون والنبي ﷺ يحدثهم بهذا الحديث ، أن يشتم الولد والديه ، لأنه رذيلة يأباهها العقل وينكرها الدين ، فبين ﷺ لهم أن التسبب في الشتم كالشتم ، وأن التعرض للايذاء كالإيذاء ، فإن انتهاك حرمتها حاصل مع الأمرين ، والضرر واصل إليهما في كلتا الحالين ، مع أن الله تعالى يقول : ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه إحسانًا**﴾ [الأحقاف : ١٥] .

قال الحافظ ابن حجر[1]: إن كان التسبب إلى لَعْن الوالد من أكبر الكبائر ، فالتصريح بلعنه أشد ، وقوله : قيل : يارسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ هو استبعاد من السائل ، لأن الطبع المستقيم يأبى ذلكْ ، فبين في الجواب أنه وإن لم يتعاط السب بنفسه في الأغلب والأكثر ، لكن قد يقع منه التسبب فيه وهو مما يمكن وقوعه كثيراً .

قال ابن بطال : هذا الحدث أصل في سد الذرائع ويؤخذ منه أن من آل فعله إلى محرم يحرم عليه ذلك الفعل وإن لم يقصد إلى ما يحرم .

---

(١) «فتح الباري» ١٠/٤٠٣ .

سب الدهــــر

عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **لا يسبَّ أحدكم الدهر ، فإن الله هو الدهرُ ، ولا يقولنَّ أحدكم للعنب الكرم ، فإن الكرم الرجلُ المسلم** »(١).

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **لا يقولنَّ أحدكم يا خيبة الدهر ، فإن الله هو الدهرُ** »(٢).

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **يؤذيني ابن آدم يَسبُّ الدهر ، وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار** »(٣).

وفي رواية : « **قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، فيقول : يا خيبة الدهر ، فإني أنا الدهرُ ، أقَلِّبُ ليله ونهارَه ، فإذا شئتُ قبضتهما** »(٤).

وفي رواية : « **لا تسبوا الدهر ، فإن الله يقول : أنا الدهر ، لي الليلُ أجدُّه وأبليه وأذهبُ بملوكٍ ، وآتي بملوكٍ** »(٥).

وفي رواية : « **يقول الله تعالى : استقرضتُ عبدي فلم يُقرضني ، وشتمني عبدي وهو لا يدري ، يقولُ : وادهراه وادهراه ، وأنا الدهرُ** »(٦).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٤٧) .
(٢) أخرجه مسلم باب : النهي عن سب الدهر رقم (٤) و (٥) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ٥١/٨ ، ومسلم (٢٢٤٦) ، وأبو داود .
(٤) أخرجه مسلم باب : النهي عن سب الدهر رقم (٣) .
(٥) أخرجه ابن عساكر في «معجمه» وابن النجار ، والبيهقي في «الشعب» .

وعن أبي قتادة قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر** »(١).

قال ابن الجوزي في « صيد الخاطر » : ما رأت عيني مصيبة نزلت بالخلق أعظمَ من سبهم للزمان وعيبهم للدهر ، وقد كان هذا في الجاهلية ونهى رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « **لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر** » ومعناه : أنتم تسبون من فرق شملكم وأمات أهليكم وتنسبونه إلى الدهر والله تعالى هو الفاعل لذلك .

قال بعضهم :

لا أشتكي زمني هذا فأظلمه ... وإنما أشتكي من أهل ذا الزمن
هم الذئاب التي تحت الثياب فلا ... تكن إلى أحد منهم بمؤتمن

وأنشد الكريزي :

ما الدهر إلاّ ليلةٌ ويومُ ... والعيش إلا يقظةٌ ونومُ
يعيش قوم ويموتُ قومُ ... والدهر قاضٍ ما عليه لَوْمُ

وقال غيره :

يقولون الزمان به فساد ... وهم فسدوا وما فسد الزمان

وقال غيره :

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو ذا الزمان بغير ذنب ... ولو نطق الزمان لنا هجانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ... ويأكل بعضنا بعضاً عيانا

---

(١) أخرجه أحمد ٢٩٩/٥ بإسناد صحيح .
ورواه بأسانيد مختلفة أحمد ١٣٨/٢ و ٢٧٢ و ٢٧٥ و ٤٩٦ ، والبخاري (٤٨٢٦) و (٦١٨١) و (٧٤٩١) ، ومسلم (٢٢٤٦) ، وأبو داود (٥٢٥٢) ، والحاكم ٤٥٣/٢ ، وانظر : «الصحيحة» للألباني ٥٧/٢ ــ ٥٩ .

سب الشيطان

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تسبوا الشيطان وتعوذوا بالله من شره** »[1].

وأيضاً قول تعس الشيطان منهي عنه لما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **لا تقل تعس الشيطان ، فإنه يعظم حتى يصير مثل البيت ؛ ويقول : بقوتي صرعته ، ولكن قل : « بسم الله » فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يصير مثل الذّباب** »[2].

سب الكفار

قال تعالى : ﴿ **ولا تسبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم** ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

وعن سعيد بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تؤذوا مسلماً بشتم كافر** »[3].

قال ابن كثير[4]: يقول الله تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين ـــ إله الخلق كلهم ـــ الله الذي لا إله إلاّ هو .

---

(١) انظر : «صحيح الجامع» (٧١٩٥) ، وانظر : «شياطين الإنس والجن» ص ٤٨ المؤلف .
(٢) انظر : «صحيح الجامع» (٧٢٧٨) .
(٣) انظر : «صحيح الجامع» (٧٠٦٨) .
(٤) «تفسير القرآن العظيم» ١٦٤/٢ .

عن ابن عباس قال : قالوا : يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك . فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم .

وعن قتادة : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله عدواً بغير علم فأنزل الله تعالى : ﴿**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله**﴾ .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي أنه قال في تفسير هذه الآية : لما حضر أبا طالب الموت ، قالت قريش : انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فإنا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان يمنعهم فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمية وأُبي ابنا خلف وعقبة بن معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البختري وبعثوا رجلًا منهم يقال له : المطلب ، قالوا : استأذن لنا على أبي طالب ، فأتى أبا طالب فقال : هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك ، فأذِن لهم عليه فدخلوا عليه فقالوا : يا أبا طالب ، أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه فدعاه فجاء النبي ﷺ فقال له أبو طالب : هؤلاء قومك وبنو عمك ، قال رسول الله ﷺ : « **ما تريدون ؟** » قالوا : نريد أن تدعنا وآلهتنا ولندعك وإلهك . فقال النبي ﷺ : « **أرأيتم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطي كلمة إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم وأدّت لكم الخراج** » قال أبو جهل : وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها ، قالوا : فما هي ؟ قال : « **قولوا لا إله إلا الله** » فأبوا واشمأزوا قال أبو طالب : يا ابن أخي قل غيرها فإن قومك قد فزعوا منها . قال : « **يا عم ، ما أنا بالذي يقول غيرها حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي ولو أتوا بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها** » إرادة أن يؤيسهم فغضبوا وقالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتمن من يأمرك ، فذلك قوله : ﴿**فيسبوا الله عدواً بغير علم**﴾ ومن هذا القبيل وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها .

سب الأموات

عن عائشة عن النبي ﷺ قال : « **لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا** »(١).

وعن عائشة قالت : لا تذكروا موتاكم إلا بخير(٢).

وعن المغيرة بن شعبة قال رسول الله ﷺ : « **لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء** »(٣).

وعن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « **اثنتان هما بالناس كفر : نياحة على الميت ، وطعنٌ في النسب** »(٤).

ومعنى الكفر في الحديث ، فيه أقوال :

الأول : أن معناه هما من أعمال الكفار ، وأخلاق الجاهلية .

الثاني : أنه يؤدي إلى الكفر .

الثالث : أنه كفر النعمة والإحسان .

الرابع : أن ذلك في المستحل ، وفي هذا الحديث تغليظ تحريم النياحة ، والطعن في النسب .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ١٨٠/٦ ، والبخاري (١٣٩٣) و(٦١٥٦) والنسائي ٥٣/٤ ، وابن حبان (١٩٨٥) ، وابن النجار .

(٢) أخرجه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» بإسناد صحيح وأخرجه النسائي ٥٢/٤ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد ٢٥٢/٤ ، والترمذي (٢٠٤٨) ، وابن حبان (١٩٨٧) (٣٠١١) والطبراني في «الكبير» ٤٢٠/٢٠ والخرائطي في «مساوىء الأخلاق» بسند صحيح .

(٤) أخرجه الإمام أحمد ٣٧٧/٢ و٤٩٦ ، ومسلم ٥٧/٢ ، وأبو نعيم في «الحلية» ٣٠٦/٨ ، والبيهقي في «السنن» ٦٣/٤ ، والتبريزي في «المشكاة» (١٠٨١) .

سب الريح

عن أُبي ، عن رسول الله ﷺ قال : « **لا تسبوا الريح فإنها من روح الله ، وسلوا الله خيرها وخير ما فيها ، وخير ما أُرسلت به ، وتعوذوا بالله من شرها ، وشر ما فيها وشر ما أُرسلت به** »[1].

وفي رواية : « **لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها ، وخير ما أُمِرَتْ به ، ونعوذُ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها ، وشر ما أمرت به** »[2].

وعن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ قال : « **لا تلعن الريح فإنها مأمورة ، وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهلٍ رجعت اللعنة عليه** »[3].

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال لها : « **يا عائشة ما يُؤَمِّنني أن يكون فيه عذابٌ ، قد عُذِّب قومٌ بالريح وقد رأى قومٌ العذاب** » **فقالوا : ﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾**[4].

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **الريح من رَوح الله ، تأتي بالرحمة ، وتأتي بالعذاب ، فإذا رأيتموها فلا تسبوها ، واسألوا الله خيرها ، واستعيذوا بالله من شرها** »[5].

---

(١) أخرجه النسائي والحاكم . وهو فى «صحيح الجامع» (٧١٩٤) .
(٢) أخرجه الترمذي . وهو في «صحيح الجامع» (٧١٩٢) .
(٣) أخرجه أبو داود ، والترمذي . «صحيح الجامع» (٧٣٢٤) .
(٤) أخرجه مسلم .
(٥) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» وأبو داود ، والحاكم ، وهو في «صحيح الجامع» (٣٥٥٨) .

وفي رواية : « **لا تسبوا الريح ، فإنها من روح الله تأتي بالرحمة والعذاب ولكن سلوا الله خيرها ، وتعوذوا بالله من شرها** »[1].

وعن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « **الريح تبعث عذابًا لقوم ورحمة لآخرين** »[2].

---

(١) وهو حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه .

(٢) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» انظر : «صحيح الجامع» (٣٥٥٧) .

سب الحمى

عن جابر أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب أو أم المسيب فقال : « **مالك يا أم السائب تزفزفين ؟** » قالت : الحمى لا بارك الله فيها فقال : « **لا تسبي الحمى ، فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد** »(1).

وعن أبي هريرة قال : قال لها رسول الله ﷺ : « **لا تسبي الحمى فإنها تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الحديد** »(2).

وفي رواية له : « **لا تسبيها ..** »(3).

وفي رواية لجابر : « **لا تلعنيها فإنها تغسل ذنوبَ العبد كما يذهب الكير خبثَ الحديد** »(4).

وعن فاطمة الخزاعية قال : « **اصبري فإنها تذهبُ خبث ابن آدم كما يُذهبُ الكيرُ خبثَ الحديد** »(5).

وعن أبي أمامة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **الحمى كيرٌ من جهنم فما أصاب المؤمنَ منها كان حظه من النار** »(6).

وعن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « **الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء** »(7).

(1) أخرجه مسلم (2575) .
(2) أخرجه ابن ماجه انظر : «الكنز» 321/3 برقم (6753) .
(3) أخرجه ابن ماجه انظر : «الكنز» 324/3 برقم (6767) .
(4) أخرجه الحاكم .
(5) أخرجه الطبراني في «الكبير»
(6) أخرجه الإمام أحمد .
(7) أخرجه البخاري 147/4 ، ومسلم (2209) ، والترمذي (2075) وقال : صحيح .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **أبشروا فإن الله يقول : هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار يوم القيامة** »(١).

قال الحافظ(٢): الحمى : من فيح جهنم والمراد سطوح حرها ووهجه . والمعنى : أن حر الحمى شبيه بحر جهنم تنبيهاً للنفوس على شدة حر النار . فالحمى : حرارة غريبة تشتعل في القلب وتنتشر منه بتوسط الروح والدم في العروق إلى جميع البدن .

وأما الأدعية الواردة : أن النبي ﷺ كان يعلمهم من الحمى ومن الأوجاع كلها أن يقول : « **بسم الله الكبير ، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار ومن شر حر النار** »(٣).

وفي صحيح مسلم : « **لا رقية إلاّ من عين أو حمة** »(٤)

ورخص رسول الله ﷺ لأهل بيت من الأنصار في الرقية من كل ذي حمة.(٥)

أما اللعن والسب فهو منهي عنه كما أسلفنا .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، وهناد ، وابن ماجه ، وابن السني في «عمل يوم وليلة» والحاكم وأبو نعيم في «الحلية» وابن عساكر عن أبي هريرة أن رسول الله عاد رجلاً به حمى قال فذكره .

(٢) «تحفة الأحوذي» ٦/٢٤٢ — ٢٤٦ .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٧٧) وقال في «تحفة الأحوذي» ٦/٢٤٧ ورواه أحمد وابن ماجه والحاكم وصححه ، والبيهقي في «الدعوات» وغيره .

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٠) .

(٥) أخرجه مسلم (٢١٩٣) .

سب الطير

عن زيد بن خالد الجهني قال : لعن رجل ديكًا صاح عند النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : « **لا تلعنه فإنه يدعو إلى الصلاة** »(١).

وفي رواية : « **لا تسبوا الديك ، فإنه يوقظ للصلاة** »(٢).

سب الدابة

عن أبي برزة قال : كانت راحلة أو ناقة أو بعير عليها بعض متاع القوم وعليها جارية فأخذوا بين جبلين فتضايق بهم الطريق فأبصرت رسول الله ﷺ فقالت : حل حل اللهم العنها ، فقال النبي ﷺ : « **من صاحب هذه الجارية ؟ لا تصحبنا راحلة أو ناقة أو بعير عليها من لعنة الله تبارك وتعالى** »(٣).

وعن أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ في سفر يسير ، فلعن رجل ناقة فقال النبي ﷺ : « **أين صاحب الناقة ؟** » فقال الرجل : أنا . قال : « **أخرها فقد أجبت فيها** »(٤).

وعن عمران بن حصين قال : لعنت امرأة ناقة لها فقال النبي ﷺ : « **إنها ملعونة فخلوا عنها** » قال : فلقد رأيتها تتبع المنازل وما يعرض لها أحد ، ناقة ورقاء(٥).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ١١٥/٤ .
(٢) أخرجه أبو داود وهو في «صحيح الجامع» (٧١٩١) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد ٤٢٠/٤ و ٤٢٣ ، ومسلم (٢٥٩٦) ، وابن حبان .
(٤) أخرجه الإمام أحمد ٤٢٨/٢ ، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» بإسناد حسن .
(٥) أخرجه الإمام أحمد ٤٢٩/٤ و٤٣٠ ، ومسلم (٢٥٩٥) ، وأبو داود (٢٥٦١) ؛ وابن حبان .

وعن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال : « **من هذا اللاعنُ بعيره ؟ انزل عنه فلا تصحبنا بملعون ، لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم لا تتوافقوا من الله ساعةً يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم** »[1].

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام ينتهز كل فرصة ليعلمهم الأدب حتى مع الدابة ويسعى دائماً لتنقية الفؤاد وتنقية اللسان ، لأن الإنسان إذا تعود على سب الدابة ليسير عليه أن يسب أي شيء . وإن إنساناً تعود على حفظ لسانه من سب ولعن ليسير عليه أن يحفظ لسانه في كل ما يرضي الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٩) .

من لعنه رسول الله ﷺ أو شتمه في الكفر وأسلم تصييرها رحمة وقربة

عن معاوية ، عن رسول الله ﷺ قال : « اللهم من لعنتهُ في الجاهلية ، ثم دخلَ في الإسلام ، فاجعل ذلك قربةً له إليك »(١).

وعن عائشة ، عن رسول الله ﷺ قال : « أو ما علمتِ ما شارطتُ عليه ربي ؟ قلتُ : اللهم إنما أنا بشرٌ ، فأيُّ المسلمين لعنتُه أو سببتُه فاجعله زكاةً وأجرًا »(٢).

وعن أنس ، عن رسول الله ﷺ قال : « يا أُمَّ سليم ، أما تعلمين أني اشترطتُ على ربي ؟ فقلتُ إنما أنا بشرٌ أرضى كما يرضى البشرُ ، وأغضبُ كما يغضبُ البشرُ ، فأيُّما أحد دعوتُ عليه من أُمتي بدعوةٍ ليس لها بأهلٍ أن تجعلَها له طهوراً وزكاةً وقربةً يقربه بها منه يوم القيامة »(٣).

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « اللهم إني اتخذُ عندك عهداً لن تخلفنيه ، فإنما أنا بشرٌ ، فأيما مؤمن آذيتُه أو شتمتُه أو جلدتُه أو لعنتُه فاجعلها له صلاةً وزكاةً وقربةً تقرِّبه بها إليك يوم القيامة »(٤).

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» انظر : «الكنز» برقم (٨١٦٤) .
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٠) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد ، ومسلم (٢٦٠٣) .
(٤) أخرجه البخاري ومسلم . انظر : «الكنز» برقم (٨١٥٠) .

المرخص بلعنهم

ويجوز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين المعروفين . قال الله تعالى : ﴿ **ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ وقال : ﴿ **ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾ ، وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه** » وأنه قال : « **لعن الله المحلل والمحلل له** » وأنه قال : « **لعن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة ، والنامصة والمتنمصة** » فالواصلة هى التى تصل شعرها . والمستوصلة : هى التى يوصل لها والغامضة هي تنتف الشعر من الحاجبين ، والمتنمصة : التي يفعل بها ذلك . وأنه ﷺ لعن الصالقة والحالقة والشاقة . فالصالقة : هي التي ترفع صوتها عند المصيبة ، والحالقة : هي التي تحلق شعرها عند المصيبة ، والشاهة : هي التي تشق ثيابها عند المصيبة . وأنه ﷺ لعن المصورين ، وأنه لعن من غير منار الأرض ، أي : حدودها ، وأنه قال : « **لعن الله من لعن والديه ، ولعن من سب أمه** » وفي السنن أنه قال : « **لعن الله من أضل أعمى عن الطريق ، ولعن الله من أتى بهيمة ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط** » . وأنه لعن من أتى كاهناً ، أو أتى امرأة في دبرها ، ولعن النائحة ومن حولها ، ولعن من أمّ قوماً وهم له كارهون ، ولعن الله امرأة باتت وزوجها عليها ساخط ، ولعن رجلًا سمع : حي على الصلاة ، حي على الفلاح ثم لم يجب . ولعن من ذبح لغير الله ، ولعن السارق ، ولعن من سب الصحابة ، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ،ولعن المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال ، ولعن المرأة تلبس لبسة الرجل والرجل يلبس لبسة المرأة ، ولعن من سل سخيمته على الطريق ، يعني : تغوط على طريق الناس . ولعن السلتاء ، والمرأة السلتاء : التي لا تخضب يديها ، والمرأة التي لا تكتحل ، ولعن من خبب امرأة على زوجها أو مملوكًا على سيده — يعني أفسدها أو أفسده — ولعن من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها ، ولعن من أشار إلى أخيه بحديدة ، ولعن مانع الصدقة ، يعني : الزكاة ، ولعن من انتسب

إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه ، ولعن من كوى دابة في وجهها ، ولعن الشافع والمشفع في حد من حدود الله إذا بلغ الحاكم ، ولعن المرأة إذا خرجت من دارها بغير إذن زوجها ، ولعنها إذا باتت هاجرة فراش زوجها متى ترجع ولعن تارك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا أمكنه ، ولعن الفاعل والمفعول به ، ولعن الخمرة وشاربها وساقيها ومستقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها والدال عليها .

وقال ﷺ : « ستة لعنتهم لعنهم الله وكل نبي مجاب الدعوة : المكذب بقدر الله ، والزائد في كتاب الله ، والمتسلط من عترتي ما حرم الله ، والتارك لسنتي ، ولعن الزاني بامرأة جاره ، ولعن ناكح يده . ولعن ناكح الأم وبنتها ، ولعن الراشي والمرتشي في الحكم والرائش يعني الساعي بينهما ، ولعن من كتم العلم ، ولعن المحتكر ، ولعن من أخفر مسلماً — يعني : خذله ولم ينصره — ، ولعن الوالي إذا لم يكن فيه رحمة ، ولعن المتبتلين من الرجال الذين يقولون لا نتزوج ، والمتبتلات من النساء ، ولعن راكب الفلاة وحده ، ولعن من أتى بهيمة . نعوذ بالله من لعنته ولعنة رسوله .

إعلم أن لعن المسلم المصون حرام بإجماع المسلمين ، ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة كقولك : لعن الله الظالمين ، لعن الله الكافرين ، لعن الله اليهود والنصارى ، لعن الله الفاسقين ، لعن الله المصورين ، ونحو ذلك كما تقدم .

وأما لعن إنسان بعينه ممن اتصف بشيء من المعاصي كيهودي أو نصراني أو ظالم أوزان أو سارق أو آكل ربا فظواهر الأحاديث إنه ليس بحرام .

وأشار الغزالي رحمه الله إلى تحريمه إلا في حق من علمنا أنه مات على كفره ، كأبي لهب وأبي جهل وفرعون وهامان وأشباههم ، قال : لأن اللعن هو الابعاد عن رحمة الله وما ندري ما يختم به لهذا الفاسق والكافر قال : وأما الذين لعنهم رسول الله ﷺ بأعيانهم كما قال : **« اللهم العن رعلاً وذكوان وعصية عصوا الله ورسوله »** وهذه ثلاث قبائل من العرب فيجوز أنه ﷺ علم موتهم على الكفر .

قال : ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان لا أصح الله جسمه ولا سلمه الله وما جرى مجراه وكل ذلك مذموم ، وكذلك لعن جميع الحيوانات والجمادات فهذا كله مذموم .

قال بعض العلماء : من لعن من لا يستحق اللعن فليبادر بقوله إلا أن يكون لا يستحق .

ويجوز للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر وكل مؤدب أن يقول لمن يخاطبه في ذلك : ويلك ، أو يا ضعيف الحال ، أو يا قليل النظر لنفسه ، أو يا ظالم نفسه ، أو شبه ذلك ، بحيث لا يتجاوز إلى الكذب ، ولا يكون فيه لفظ قذف صريح أو كناية أو تعريض ولو كان صادقاً في ذلك ، وإنما يجوز ما قدمناه ويكون الغرض من ذلك التأديب والزجر ، ويكون الكلام أوقع في النفس والله أعلم(1).

اللهم نزه قلوبنا عن التعلق دونك ، واجعلنا من قوم تحبهم ويحبونك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين .

---

(1) فقد ورد ما يؤيد هذا القول ما رواه الطبراني عن حبيب بن سليمان بن سمرة عن أبيه عن جده مرفوعاً : «إن كان أحدكم ساباً لصاحبه لا محالة فلا يفتر عليه ولا يسب والديه ، ولا يسب قومه ، ولكن إن كان يعلم ذلك فليقل : إنك لبخيل ، أو ليقل : إنك لجبان ، أو ليقل : إنك لكذوب ، أو ليقل : إنك لنؤوم» ، وروى ابن السني في «عمل يوم وليلة» عن الحسن مرسلاً :

«إذا شتم أحدكم أخاه فلا يشتم عشيرته ، ولا أباه ، ولا أمه ، ولكن ليقل إن كان يعلمُ ذلك : إنك لبخيلٌ ، وإنك لجبَانٌ ، وإنك لكذوبٌ ، إن كان يعلم ذلك منه» .

النميمة والغيبة من موجبات العذاب في القبر

عن ابن عباس قال : مر النبي ﷺ على قبرين فقال : « **إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير** » ثم قال : « **بلى ، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة ، وأما الآخر ، فكان لا يستنزه من بوله** » ثم أخذ عوداً فكسره باثنين ، ثم غرّز كل واحدٍ منهما على قبرٍ ، ثم قال : « **لعله يخفف عنهما العذاب ما لم ييبسا** »(١).

وفي رواية : « **أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال : إن هذين يعذبان في غير كبير ، في النميمة والبول ..** » .

وعن عبد الرحمن بن أبي بكر قال : حدثنا أبو بكرة قال : بينا النبي ﷺ بيني وبين رجل آخر ، إذ أتى على قبرين فقال : « **إن صاحبي هذين القبرين يعذبان فأتياني بجريدة** » قال أبو بكرة : فاستبقت أنا وصاحبي فسبقته فأتيته بجريدة ، فشقها بنصفين ، فوضع في هذا القبر واحدة ، وفي ذا واحدة ، وقال : « **لعله أن يخفف عنهما ما دامتا رطبتين ، أما إنهما ليعذبان بلا كبيرةٍ ، الغيبة ، والبول** »(٢).

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢٦٤٦) ، وابن أبي شيبة ٣٧٥/٣ و٣٧٦ ، وأحمد ٢٥/١ والدارمي ١٨٨/١ — ١٨٩ ، والبخاري (٢١٦) و (٢١٨) و (١٣٦١) و (١٣٧٨) و (٦٠٥٢) و (٦٠٥٥) ، ومسلم (٢٩٢) ، وأبو داود (٢٠) و (٢١) ، والترمذي (٧٠) ، والنسائي ٢٨/١ وابن ماجه (٣٤٧) ، وابن حبان (٣١٢٨) و (٣١٢٩) ، والآجري ص ٣٦١ — ٣٦٢ والبيهقي في «السنن» ١٠٤/١ و٤١٢/٢ ، وفي «عذاب القبر» (١١٧) و (١١٨) و (١١٩) وابن منده في «الأيمان» (١٠٧١) ، ووكيع في «الزهد» (٤٤٤) .

(٢) أخرجه البيهقي في «عذاب القبر» (١٢٥) ورجاله ثقات غير بحر بن مرار قال القطان والنسائي : قد تغير . وقال ابن عدي : لا أعرف له حديثاً منكراً ، ووثقه ابن معين ، وقال النسائي : ليس به بأس ، وللحديث شواهد .

وأخرجه الإمام أحمد ٣٩/٥ ، وابن أبي شيبة ١٢٢/١ ، وابن ماجة (٣٤٩) .

وقال المزي في «تحفة الأشراف» ٣٨/٩ رواه أبو سعيد مولى بني هاشم ومسلم بن ابراهيم عن الأسود بن شيبان عن بحر بن مرار عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبي بكرة . وزاد البوصيري في «مصباح الزجاجة» ورقة (٢٧) ، من قول المزي وهو الصواب .

وعن أبي هريرة قال : كنا نمشي مع رسول الله ﷺ فمررنا على قبرين ، فقام ، فقمنا معه ، فجعل لونُه يتغيرُ حتى رَعَدَ كُمُّ قميصِهِ ، فقلنا : مالك يا نبي الله ؟ قال : **« ما تسمعون ما أسمع ؟ »** قلنا : وما ذاك يا نبيَّ الله ؟ قال : **« هذان رَجُلَانِ يعذبان في قبورهما عذاباً شديداً في ذنب هين »** قلنا : مم ذلك يا نبي الله ؟ قال : **« كان أحدهما لا يستنزه من البول ، وكان الآخر يؤذي الناسَ بلسانه ، ويمشي بينهم بالنميمة »**(٣).

وفي رواية : **« رجل كان لا يتقي من البول ، وامرأة كانت تمشي بين الناس بالنميمة ، فانتظر بهما العذاب إلى يوم القيامة »**(٤).

وعن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال : **« أما أنهما لا يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يغتاب الناس وأما الآخر فكان لا يتأذى من بوله .. »** الحديث(٥).

وأخرج ابن أبي الدنيا عن قتادة قال : ذُكِرَ لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث : ثلث من الغيبة ، وثلث من البول ، وثلث من النميمة(٦).

قال حنبل(٧) لأبي عبد الله في عذاب القبر فقال : هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها . كلما جاء عن النبي ﷺ إسناد جيد أقررنا به .

= وذكره في الهيثمي في «المجمع» ٢٠٧/١ — ٢٠٨ ، رواه الطبراني في «الأوسط» وأحمد ورجاله موثقون . والطيالسي (٨٦٧) . وقال العراقي ١٤٠/٣ لأحمد والطبراني بإسناد جيد . وقال الحافظ في «الفتح» ٣٨٤/١ أن رواية أبي بكرة عند أحمد والطبراني بإسناد صحيح . وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» ٦٦/١ .

(٣) أخرجه ابن حبان في «الإحسان» (٨٢٤) وقال : إسناده صحيح .

(٤) أخرجه البيهقي في «عذاب القبر» ص ٨٧ (١٢٣) وأخرجه ابن أبي شيبة ٣٧٦/٣ وأحمد ٤٤١/٢ وهذا إسناد جيد .

(٥) أخرجه البخاري ٦٠/١ و ٦١ ، وذكره السيوطي في «الدرُّ المنثور» ٩٦/٦ .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الغيبة والنميمة» (٥٢) .

(٧) «الروح» ص (٥٧) .

الغيبة من آفات اللسان الكبرى

قال تعالى : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه ... واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾ [الحجرات : ١٢] .

قال سيد رحمه الله(١): جاء النهي عن الغيبة في تعبير عجيب ، يبدعه القرآن إبداعًا .. يعرض مشهداً تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية . مشهد الأخ يأكل لحم أخيه .. ميتاً .. ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز ، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب !

ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه في الآية باستجاشة شعور التقوى ، والتلويح لمن اقترف من هذا شيئاً أن يبادر بالتوبة تطلعاً للرحمة : ﴿ **واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾ [الحجرات : ١٢] .

ويسري هذا النص في حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس ، وإلى أدب عميق في النفوس والقلوب ، ويتشدد فيه رسول الله ﷺ متمشياً مع الأسلوب القرآني العجيب في إثارة الاشمئزاز والفزع من شبح الغيبة البغيض .

لما اعترف ماعز بالزنا هو والغامدية ، ورجمهما رسول الله ﷺ بعد إقرارهما متطوعين وإلحاحهما عليه في تطهيرهما ، سمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ! ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار ، فقال : « **أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار** » قالا : غفر الله لك يا رسول الله ، وهل يؤكل هذا ؟ قال ﷺ : « **فما نلتما من**

---

(١) «في ظلال القرآن» ٥٣٥/٧ .

أخيكما آنفاً أشد أكلًا منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها »[1].

وقال ابن كثير[1]: الغيبة محرمة بالإجماع ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحة كما في الجرح والتعديل والنصيحة كقوله ﷺ ــ في الحديث الصحيح ــ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر : « **ائذنوا له وبئس أخو العشيرة** » وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد خطبها معاوية وأبو الجهم : « **أما معاوية فصعلوك وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه** » وكذا ما جرى مجرى ذلك ، ثم بقيتها على التحريم الشديد وقد ورد فيها الزجر الأكيد ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما قال عز وجل : ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه** ﴾ [الحجرات : ١٢] . أي كما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا ذاك شرعاً فإن عقوبته أشد من هذا ، وهذا من التنفير عنها والتحذير منه كما قال ﷺ في العائد في هبته : « **كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه** » وقد قال : « **ليس لنا مثل السوء** » وقد ثبت في « الصحاح » قوله في خطبة حجة الوداع : « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ..** » الحديث .

وعن أنس قال : كانت العرب يخدم بعضهم بعضاً في الأسفار ، وكان مع أبي بكر وعمر رجلًا يخدمهما ، فنام ، واستيقظا ولم يهيء طعاماً فقال : إن هذا لنئومٌ بينكم فأيقظاهُ فقالا : ائت رسول الله ﷺ ، فقل له ، إن أبا بكر وعمر يقرآنك السلام ، وهما يستأدمانك فأتاهُ فقال ﷺ : « **أخبرهما أنهما قد ائتدما** » ففزعا ، فجاء إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، بعثنا نستأدمك فقلت ائتدما فبأي شيء ائتدمنا ؟ فقال : « **بأكلكما لحم أخيكما ، إني لأرى لحمه بين ثناياكم** » فقالا : يا رسول الله ، فستغفر لنا قال : « **هو فليستغفر لكما** »[3]

وعن جابر قال : كنا مع النبي ﷺ في سفر فهاجت ريح منتنة فقال رسول الله

---

(١) رواه ابن كثير في «التفسير» ٢١٣/٤ وقال : إسناده صحيح .
(٢) «تفسير القرآن العظيم» ٢١٣/٤ .
(٣) أخرجه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» بإسناد حسن (١٨٦) .

ﷺ : «إن ناساً من المنافقين اغتابوا ناساً من المسلمين فلذلك هاجت هذه الريح»[1].

وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الرجل إذا كان يغتاب الرجل في الدنيا أتي يوم القيامة ميتاً فقيل له : كما أكلت لحمه حياً فكله ميتاً»[2].

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، قلت لجبريل ، من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[3]

وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من قال في المؤمن ما ليس فيه أسكنه الله في ردغة الخبال حتى يخرج مما قال»[4]

وعن أبي بَرْزةَ قال : قال رسول الله ﷺ : «يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم ، تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ، وإن كان في سترة بيته»[5]

وعن عمرة قالت : كنت عند عائشة فخرجت امرأةٌ وذيلها في البيت ، فقالت

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٣٣) ، وأبو الشيخ في «التوبيخ» (١٧٩) . وأخرجه الإمام أحمد ٣٥١/٣ قال في «المجمع» : ٩١/٨ رواه أحمد ورجاله ثقات .

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٦٧٧) ، وأبو الشيخ في «التوبيخ» (٢٠٩) والخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (١٩١) وإسناده حسن .

(٣) صحيح : أخرجه الإمام أحمد ١٨٠/٣ و ٢٢٤ و ٢٢٩ و ٢٣١ . وأبو داود (٤٨٧٨) ، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٦٥) وأبو الشيخ في «التوبيخ» (٢٠٥) ، وذكره ابن كثير في «التفسير» ١٢٢/١ ، والزبيدي في «الاتحاف» ١٥/٧ وقال : رواه الطيالسي . وأخرجه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (١٩٣) بإسناد صحيح .

(٤) أخرجه الإمام أحمد ٧٠/٢ ، وأبو داود (٣٥٩٧) ، والحاكم ٢٧/٢ وصححه وأقره الذهبي ، وأخرجه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (١٩٤) بإسناد لا بأس به .

(٥) أخرجه الإمام أحمد ٤٢٠/٤ ــ ٤٢١ و ٤٢٤ ، وأبو داود (٤٨٨٠) ، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٦٨) و (١٦٩) ، وأبو الشيخ في «التوبيخ» (٨٩) و (٩٠) و (٩٣) وله شاهد من حدي ابن عمر أخرجه الترمذي (٢١٠١) . وقال : حسن غريب ، وأخرجه ابن حبان (٥٧٣٣) وصححه وأخرجه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (١٩٦) بإسناد حسن .

امرأة : ما أطول ذيلها ، فقالت عائشة : اغتبتيها قومي فتحللي[١].

مرّ عمرو بن العاص على بغلٍ ميتٍ قد انتفخ فوقف عليه فقال : « **والله لأن يأكل أحدكم من هذا حتى يملأ جوفه خيراً له من أن يغتاب أخاه** »[٢] .

وعن عائشة قالت : حكيتُ عند رسول الله ﷺ إنساناً فقال : « **ما يسرني أني حكيتُ إنساناً وأن لي كذا وكذا** »[٣].

وعن أسامة بن شريك ، عن رسول الله ﷺ قال : « **يا عبادَ الله : وضع الله الحرج — أي الإثم والضيق — إلاّ من اقترض عِرض امرىء مسلم ظلماً فذاك الذي حرج وهلك** »[٤].

وعن البراء بن عازب ، عن رسول الله ﷺ قال : « **لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم** »[٥]

وعن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « **أتدرون ما الغيبة ؟** » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « **ذكرك أخاك بما يكرهُ** » قيل : أرأيت إن كان فيه ما أقول ؟ قال : « **إن**

---

(١) أخرجه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٩٨) بإسناد صحيح . وأخرجه أبو الشيخ في « التوبيخ » (١٩٧) .

(٢) أخرجه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (٢٠٠) بإسناد حسن .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٧٥) ، والترمذي (٢٦٢٣) وقال حسن صحيح . والترمذي أيضاً (٢٥٠٥) و(٢٦٢٤) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٢٨٣) ، وأبو الشيخ في « التوبيخ » (١٨٧) و(١٨٨) . وعزاه في « الكنز » ٥٨٨/٣ لابن ماجه .

(٤) حديث صحيح : أخرجه الطيالسي (١٧٤٧) ، وأحمد ٣١١/١ و٣٢٦/٣ و٢٧٨/٤ ، وأبو داود (٢٠١٥) و(٣٨٥٥) ، والترمذي (٢١٠٩) ، وابن ماجه (٣٤٣٦) والطبراني (٣٦٣) — (٤٦٧) و(٤٦٩) و(٤٧١) و(٤٧٢) في « الكبير » والحاكم ٣٩٩/٤ ..

(٥) أخرجه أبو يعلي في « مسنده » ٢/٩٥ . وأخرجه الطبراني في « التكبير » (١١٤٤٤) من حديث ابن عباس . قال في « المجمع » ورجالهما ثقات . وأخرجه الإمام أحمد ٤٢٠/٤ — ٤٢١ و٤٢٤ ، وأبو داود (٤٨٥٩) وأبو يعلي في « مسنده » ٢/٣٤٩ عن أبي برزة

كان فيه ما تقول فقد اغتبتهُ ، وإن لم يكن فيه فقد بهته»(1)

الغيبة : وهي ذكرك أخاك بما يكره .

البهت : هي ذكرك أخاك بما يكره وإن كان فيه .

قال في « النهاية » : الغيبة أن تذكر الإنسان في غيبته بسوء وإن كان فيه .

وقال النووي في « الأذكار » : تبعاً للغزالي : ذكر المرء بما يكره سواء كان في بدن الشخص أو دينه أو دنياه أو نفسه أو خلقه أو ماله أو والده أو زوجه أو خادمه أو حركته أو طلاقته أو عبوسته أو غير ذلك مما يتعلق به ذكر سُوء سَواء ذكر باللفظ أو بالرمز أو بالإشارة « ذكرك أخاك بما يكره » شامل لذكره في غيبته وحضرته . **« أخاكِ »** أي أخا الدين دليل على أن غير المؤمن تجوز غيبته .

قال ابن المنذر : في الحديث دليل على أن من ليس بأخ كاليهودي والنصراني وسائر أهل الملل ومن قدر أخرجته بدعته عن الإسلام لا غيبة له .

عن ابن شوذب قال : قال رجلٌ لابن سيرين : إني قد اغتبتك فاجعلني في حلٍ . قال : إني لأكرهُ أن أحلَّ لك ما حرم الله تعالى(2).

قال بعضهم : إذا رأيت من يغتاب الناس فاجهد جهدك ألا يعرفك ، فإن أشقى الناس معارفه .

ودخل رجل على عبد الملك بن مروان ، وكان معه جلساؤه ، فقال له : أريد أن أسر إليك أمراً ، فقال لأصحابه إذا شئتم فقوموا ، فلما تهيأ الرجل للكلام قال له عبد الملك : إياك أن تمدحني فأنا أعلم بنفسي منك ، ولا تكذبني فإنه لا رأي لكذوب ، أو تسعى إليَّ بأحد فإن السعاية من أفظع الجرائم ، وإن شئت أقلتك . قال : أقلني .

---

(1) أخرجه الإمام مالك في « الموطأ » ٢/٢٥٢ ، والإمام أحمد ٢/٢٣٠ و٣٨٤ و٣٨٦ ، ومسلم ٤/٢٠٠١ ، والترمذي (١٩٩٩) وقال حسن صحيح . والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٢٥) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٢٠٤) ، وأبو الشيخ في « التوبيخ » (١٨٩) ، والبيهقي في « السنن » ١٠/٢٤٧ ، والبغوي في « شرح السنة » ١٣/١٣٨ والدارمي في « سننه » ٢/٢٩٩ .

(2) أخرجه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٨٨) بسند صحيح . وأخرجه أبو الشيخ في « التوبيخ » (١٨٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » ٢/٢٦٣ .

وعن أبي هريرة قال : يبصر أحدكم القذى في عين أخيه وينسى الجذل في عينه .

وعن حفص بن عثمان قال : كان عمر بن الخطاب يقول : لا تشغلوا أنفسكم بذكر الناس ، فإنه بلاء وعليكم بذكر الله فإنه رحمة .

وعن عمران بن عبد الرحمن قال : قال عمر بن الخطاب : عليكم بذكر الله ، فإنه شفاء ، وإياكم وذكر الناس ، فإنه داء .

وعن صالح المزني قال : كتب سلمان إلى أبي الدرداء : أما بعد فإني أوصيك بذكر الله عز وجل فإنه دواء ، وأنهاك عن ذكر الناس فإنه داء .

وعن الحسن البصري أنه كان يقول : ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك وأحب العباد إلى الله عز وجل من كان هكذا .

وعن عبد الله قال : ما أحسب أحداً تفرغ لعيوب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه .

وعن كعب قال : الغيبة تحبط العمل .

وعن خصاف ، وخصيف ، وعبد الكريم بن مالك قالوا : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ، ولكن في الكف عن أعراض الناس .

وقال عبيدة السلماني(1): اتقوا المفطرين : الغيبة والكذب .

وقال مجاهد(2): المسلم يسلم له صومه يتقي الغيبة والكذب .

إذا كان الفطر ضد الصوم ، فإن الغيبة والكذب يجعلان الصائم كأنه مفطر لأنهما أي الكذب والنميمة تنقصان من الثواب وها هي المرأة الصوامة القوامة كانت تؤذي جيرانها فقال النبي ﷺ لا خير في صيامها ولا قيامها .

---

(1) أورده الزبيدي في « الاتحاف » ٥٣٨/٧ .

(2) أخرجه ابن الدنيا في « ذم الغيبة » (٤٩) .

ولنذكر عدة أحاديث نستطيع من خلالها أن نتبين ما يوافق هذه المعاني ..

فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **رب صائم ليس حظه من صيامه إلا الجوع والعطش ، ورب قائم ليس حظه من قيامه إلاّ السهر** »(٢).

وعنه عن رسول الله ﷺ قال : « **من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه** »(٣).

وعنه أيضاً مرفوعاً : « **قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ، والصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم** »(٤).

ومما لا شك فيه أن الغيبة والسباب يحطان من حسنات المؤمن ..

قال عدي بن حاتم : الغيبة رعي اللئام .

وقال ابن السماك : لا تعن الناس على عيبك بسوء غيبك .

وقال الشاعر :

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا ... فيهتك الله ستراً من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ... ولا تعب أحدًا منهم بمافيكا

وكان رقبة بن مصقلة جالساً مع أصحابه فذكروا رجلًا بشيء ، فطلع ذلك الرجل ، فقال بعض أصحاب مصقلة : ألا أخبره بما قلنا فيه لئلا يكون غيبة . قال : أخبره حتى يكون نميمة .

---

(٢) أخرجه الإما أحمد ، ٣٧٣/٢ ، والنسائي في « الكبرى » والحاكم ٤٣١/١ ، والبيهقي ٢٧٠/٤ وقال الحاكم : صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي ، وأخرجه ابن ماجه (١٦٩٠) والطبراني (١٣٤١٣) وقال في « المجمع » ٢٠٢/٣ ورجاله موثقون .
(٣) أخرجه الخمسة إلا مسلماً .
(٤) أخرجه الستة .

واغتاب رجل رجلًا عند قتيبة بن مسلم ، فقال له : أمسك عليك أيها الرجل ، فوالله لقد تلمظت بمضغة طالما لفظتها الكرام .

وعاب رجل رجلًا عند بعض الفضلاء فقال له : قد استدللت على كثرة عيوبك بم تكثر من عيوب الناس ، لأن طالب العيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها .

النميمة

قال تعالى : ﴿ولا تُطِعْ كل حلاف مهين همّاز مشاء بنميم﴾ .

قال الذهبي[1]: النمام : هو من ينقل الحديث بين الناس على جهة الافساد بينهم . هذا بيانها .

وأما أحكامها فهي حرام باجماع المسلمين ، وقد تظاهرت على تحريمها الدلائل الشرعية من الكتاب والسنة .

ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « **لا يدخل الجنة نمام** »[2].

قال الإمام أبو حامد الغزالي : إنما تطلق النميمة في الغالب على من ينم قول الغير إلى المقول فيه بقوله فلان يقول فيك كذا . وليست النميمة مخصوصة بذلك بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كره المنقول عنه أو المنقول إليه أو ثالث ، وسواء أكان الكشف بالقول أو الكتابة أو الرمز أو الإيماء أو نحوها ، وسواء كان من الأقوال أو الأعمال ، وسواء كان غيباً أو غيره ، فحقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه ، وينبغي للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس إلا ما في حكايته فائدة للمسلمين أو دفع معصية . قال : وكل من حملت إليه نميمة وقيل له قال فيك فلان كذا وكذا لزمه ستة أحوال :

الأول : أن لا يصدقه لأنه نمام فاسق وهو مردود الخبر .

الثاني : أن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح فعله .

الثالث : أن يبغضه في الله عز وجل فإنه بغيض عند الله والبغض في الله واجب .

---

(١) « الكبائر » ص ١٦٠ بتصرف .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي من حديث حذيفة بن اليمان .

الرابع : أن لا يظن في المنقول عنه السوء لقوله تعالى : ﴿**اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم**﴾ [الحجرات : ١٢] .

الخامس : أن لا يحمله ما حكى له على التجسس والبحث عن تحقيق ذلك ، قال الله تعالى : ﴿**ولا تجسسوا**﴾ .

السادس : أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكى نميمته .

وقد جاء أن رجلًا ذكر لعمر بن عبد العزيز رجلًا بشيء فقال عمر : يا هذا إن شئت نظرنا في أمرك ، فإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية : ﴿**إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**﴾ [الحجرات : ٦] . وإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية : ﴿**هماز مشاء بنميم**﴾ [القلم : ١١] . وإن شئت عفونا عنك . فقال : العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبداً .

ورفع إنسان رقعة إلى الصاحب بن عباد رحمه الله يحثه فيها على أخذ مال اليتيم وكان له مال كثير فكتب على ظهر الرقعة : النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة ، والميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمال ثمره الله ، والساعي لعنه الله(١).

وروي أن بعض السلف الصالحين زار أخاً له وذكر له عن بعض إخوانه شيئاً يكرهه ، فقال له : يا أخي أطلت الغيبة وأتيتني بثلاث جنايات : بغضت إليّ أخي ، وشغلت قلبي بسببه ، واتهمت نفسك الأمينة .

وكان بعضهم يقول : من أخبرك بشتم عن أخيك فهو الشاتم لك .

وجاء رجل إلى علي بن الحسين فقال : إن فلاناً شتمك وقال عنك كذا وكذا ، فقال : اذهب بنا إليه ، فذهب معه وهو يرى أنه ينتصر لنفسه ، فلما وصل إليه قال : يا أخي إن كان ما قلت فِيّ حقاً فغفر الله لي ، وإن كان ما قلت فيّ باطلًا فغفر الله لك .

وقيل في قوله تعالى : ﴿**حمالة الحطب**﴾ يعني امرأة أبي لهب ، إنها كانت تنقل الحديث بالنميمة . سمى النميمة حطباً لأنها سبب العداوة ، كما أن الحطب سبب لاشتعال النار .

---

(١) ذكرها ابن أبي شامة في كتابه « الروضتين » .

ويقال : عمل النمام أضر من عمل الشيطان لأن عمل الشيطان بالوسوسة وعمل النمام بالمواجهة .

حكاية : روي أن رجلًا رأى غلاماً يباع وهو ينادي عليه ليس به عيب إلا أنه نمام فقط ، فاستخف بالعيب واشتراه ، فمكث عنده أياماً ثم قال لزوجة سيده : إن سيدى يريد أن يتزوج عليك أو يتسرى ، وقال إنه لا يحبك فإن أردت أن يعطف عليك ويترك ما عزم عليه فإذا نام فخذي الموس واحلقي شعرات من تحت لحيته واتركي الشعرات معك ، فقالت في نفسها : نعم . واشتغل قلب المرأة ، وعزمت على ذلك إذا نام زوجها ، ثم جاء إلى زوجها وقال : سيدي إن سيدتي زوجتك قد اتخذت لها صديقاً ومحباً غيرك ومالت إليه ، وتريد أن تخلص منك ، وقد عزمت على ذبحك الليلة ، وإن لم تصدقني فتناوم لها الليلة وانظر كيف تجيء إليك وفي يدها شيء تريد أن تذبحك به ، وصدقه سيده .

فلما كان الليل جاءت المرأة بالموس لتحلق الشعرات من تحت لحيته والرجل يتناوم لها فقال في نفسه : والله صدق الغلام بما قال ، فلما وضعت المرأة الموس وأهوت إلى حقله قام وأخذ الموس منها وذبحها به ، فجاء أهلها فرأوها مقتولة فقتلوه ، فوقع القتال بين الفريقين بشؤم ذلك العبد المشئوم .

فذلك سمى الله النمام فاسقاً في قوله تعالى : **﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾** [الحجرات : ٦] ..

عن أبي وائل قال : بلغ حذيفة عن رجل أنه ينم الحديث فقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا يدخل الجنة نمام** » .

وفي رواية قال : « **لا يدخل الجنة قتات** » .

قال الأعمش : والقتات : النمام[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٦) ، ومسلم (١٠٥) ، وأحمد ٣٨٩/٥ و٣٩١ و٣٩٩ و٤٠٦ ، والطيالسي (٢٢٥١) ، وأبو داود (٤٨٥٠) ، والترمذي (٢٠٩٠) وابن حبان ٥٠٨/٧ ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٥٢) ، والبغوي في « شرح السنة » (٣٥٦٩) ، والبيهقي في « السنن » ١٦٦/٨ و٢٤٧/١٠ .

وعن منصور ، عن إبراهيم ، عن همام بن الحارث قال : قيل لحذيفة : إن هذا يرفع الحديث إلى عثمان ؟ فقال حذيفة : قال رسول الله ﷺ : « **إن الذي يرفع الحديث هو القتات** »(١).

وعن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث عن أبيه قال : سمعت أسقفاً من أهل نجران يكلم عمر بن الخطاب يقول : يا أمير المؤمنين احذر قاتل الثلاثة . قال : ويلك من قاتل الثلاثة ؟ قال : الرجل يأتي الإمام بالحديث الكذب فيقتلُ الإمامُ ذلك الرجل بحديث هذا الكذاب ، ليكون قد قتل نفسه ، وصاحبه ، وإمامه(٢).

وعن المستورد قال : قال رسول الله ﷺ : « **من أكل بأخيه المسلم أكلة أطعمه الله تعالى بها أكلةً من نار جهنم ، ومن اكتسى بأخيه ثوباً كساه الله مثله من نار جهنم ، ومن قام بمسلم مقام رياء وسمعةٍ ، أقامه الله يوم القيامة مقام سمعة ورياء** »(٣).

معنى الحديث : الرجل يكون صديقاً ثم يذهب إلى عدوه فيتكلم فيه بغير الجميل ليجيزه عليه بجائزة ، فلا يبارك الله له ، ومن قام بسبب أخيه المسلم من أهل المال والجاه مقاماً يتظاهر فيه بالصلاح والتقوى ، ليعتقد فيه ، ويصير إليه المال والجاه ، أقامه الله مقام المرائين ، ويفضحه في يوم الدين .

وعن عبد الله قال : إن محمداً ﷺ كان يقول : « **ألا أنبئكم بالعضة : هي النميمة ، القالة بين الناس** »(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤٢٧/١ ، ومسلم ٢٨/٨ ــ ٢٩ ، والدارمي ٢٩٩/٢ ــ ٣٠٠ .

وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ [الهمزة : ١] . قال : الهمزة : الطعان في الناس . واللمزة : الذي يأكل لحوم الناس .

قال مخلوف(٢): ويل : عذاب وهلكة . لكل همزة لمزة : أي مكثر من الهمز واللمز وهو الذي دأبه أن يعيب الناس ويثلم أعراضهم ويطعن فيهم ويمشي بينهم بالنميمة والإفساد . فالهمزة واللمزة بمعنى واحد وهما من باب ضَرَبَ ونَصَر وقيل : الهمزة الذي يعيب في الحضور ، واللمزة الذي يعيب في الغيبة وقيل : بالعكس ، وقيل : الهمزة الذي يضرب باليد ويغمز بالعين واللمزة الذي يلمز باللسان ومرجع هذه الأقوال إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب ..

ويقول الأشقر(١): الهمزة هو الذي يغتاب الرجل في وجهه . واللمزة الذي يغتابه من خلفه ، وقيل الهمزة الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ ، واللمز الذي يكسر عينه على جليسه ويشير بيده أو برأسه أو بحاجبه .

وقال سيد رحمه الله(٢): تعكس هذه السورة صورة من الصور الواقعية في حياة الدعوة في عهدها الأول ، وهي في الوقت ذاته نموذج يتكرر في كل بيئة .. صورة اللئيم الصغير النفس ، الذي يؤتى المال فتسيطر نفسه به ، حتى ما يطيق نفسه ، ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة ، القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار : أقدار الناس ، وأقدار المعاني ، وأقدرا الحقائق ، وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب .

كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر على كل شيء ، لا يعجز عن فعل شيء ، حتى دفع الموت وتخليد الحياة ، ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه إن كان هناك في نظره حساب وجزاء .

ومن ثم ينطلق في هوس بهذا المال يعده ويستلذ تعداده وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة ، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم ، ولمزهم وهمزهم .. يعيبهم بلسانه

(١) « صفوة البيان » ص ٨٢٣ .
(٢) « زبدة التفسير » ص ٨٢١ .
(٣) « في ظلال القرآن » ٦٦٢/٨ .

ويسخر منهم بحركاته ، سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم ، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم .. بالقول والإشارة ، بالغمز واللمز ، باللفتة الساخرة والحركة الهازئة !

وهي صورة لئيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان ، والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفعه الأخلاقي ، وقد نهى عن السخرية واللمز والعيب في مواضع شتى ، إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح مع الوعيد والتهديد ، يوحي بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله ﷺ وتجاه المؤمنين .. فجاء الرد عليها في صورة الردع الشديد والتهديد الرعيب ، وقد وردت روايات بتعيين بعض الشخصيات ولكنها ليست وثيقة ، فنكتفي نحن بما قررناه عنها .

والتهديد يجيء في ضورة مشهد من مشاهد القيامة يمثل صورة للعذاب مادية ونفسية ، وصورة للنار حسية ومعنوية ، وقد لوحظ فيها التقابل بين الجرم وطريقة الجزاء وجو العقاب . فصورة الهمزة اللمزة ، الذي يدأب على الهزء بالناس وعلى لمزهم في أنفسهم وأعراضهم ، وهو يجمع المال فيظنه كفيلًا بالخلود ، صورة هذا المتعالى الساخر المستقوي بالمال ، تقابلها صورة المنبوذ المهمل المتردي في الحطمة التي تحطم كل ما يلقى إليها ، فتحطم كيانه وكبرياءه . وهي نار الله الموقدة ، وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحي بأنها نار فذة ، غير معهودة ، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة ، وهي تطلع على فؤاده الذي ينبعث منه الهمز واللمز ، وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور .. وتكملة لصورة المحطم المنبوذ المهمل .. هذه النار مغلقة عليه ، لا ينقذه منها أحد ، ولا يسأل عنه فيها أحد ، وهو موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام ، وفي جرس الألفاظ تشديد : عدّده ، كلا ، لينبذن ، تطلع ، ممّددة .

وفي معاني العبارات توكيد بشتى أساليب التوكيد : ﴿ **لينبذن في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة ..** ﴾ فهذا الإجمال والإبهام ، ثم سؤال الاستهوال ، ثم الإجابة والبيان .. كلها من أساليب التوكيد والتضخيم .. وفي التعبير تهديد : ويل ، لينبذن ، الحطمة ، نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ، إنها عليهم مؤصدة ، في عمد ممددة .

وفي ذلك كله لون من التناسق التصويري والشعوري يتفق مع فعلة « الهمزة اللمزة » !

لقد كان القرآن يتابع أحداث الدعوة ويقودها في الوقت ذاته ، وكان هو السلاح البتار الصاعق الذي يدمر كيد الكائدين ، ويزلزل قلوب الأعداء ، ويثبت أرواح المؤمنين .

وإنا لنرى في عناية الله سبحانه بالرد على هذه الصورة معنيين كبيرين :

الأول : تقبيح الهبوط الأخلاقي وتبشيع هذه الصورة الهابطة من النفوس .

والثاني : المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة ، وإشعارهم بأن الله يرى ما يقع لهم ، ويكرهه ، ويعاقب عليه .. وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم ... اهـ .

قال الحكماء : لم يمش ماش ، شر من واش ، والساعي بالنميمة يهلك نفسه ، ومن سعى به ، ومن سعى إليه .

وحكى : أن عمرو بن معاوية بن عتبة بن أبي سفيان العتبي رأى رجلًا يسعى برجل عند صديق له ، فقال له : نزه سمعك عن استماع الخنا ، كما تنزه لسانك عن التكلم به ، فإن السامع شريك القائل ، وإنما نظر شر ما في وعائه فأفرغه في وعائك ، ولو ردت كلمة ساع إلى فيه ، لسعد رادها كما شقى قائلها ، والنمام شر من الساحر ، فإن النمام يفسد في الساعة الواحدة ما لا يفسد الساحر في المدة الطويلة .

وأتى رجل عبد الله بن عباس وهو والى البصرة من قِبل علي بن أبي طالب بنميمة ، فقال له : إن شئت سألنا عما جئت به فإن كنت صادقاً مقتناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن شئت أقلناك . فقال الرجل : إن شئت أن تفعل فافعل .

قال الشاعر :

تـوخ من الطـرق أوسـاطها ... وعـد عن الجـانب المشتبـه
وسـمعك صـن عن سـماع القبيـ ... ـح كصـون اللسـان عن النطـق به
فإنـك عند سـماع الحـديـ ... ـث شـريك لقائلـه فانتبـه

وقال بعضهم :

لا تقبلن نميمة بُلغتها ... وتحفظن من الذي أنباكها
إن الذي أهدى إليك نميمة ... سينم عنك بمثلها قد حاكها

وقال آخر :

تنح عن النميمة واجتنبها ... فإن النم يحبط كل أجر
يثير أخو النميمة كل شر ... ويكشف للخلائق كل سر
ويقتل نفسه وسواه ظلماً ... وليس النم من أفعال حر

المرخص بغيبتهم

عن عائشة رضي الله عنها قالت : استأذن رجلٌ على النبي ، ﷺ ، فقال : « **ائذنوا له فبئس ابن العشيرة ــ أو بئس رجل العشيرة ــ** » فلما أن دخل ، ألان له القول ، فلما خرج ، قلنا : قلت الذي قلتَ ، ثم ألنتَ له القولَ ؟ قال : « **أي عائشة ، شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة ، من ودعه ــ أو تركه ــ الناس اتقاء شره** »(١).

قال النووي(٢) : قال القاضي : هذا الرجل هو عيينه ابن حصن ولم يكن أسلم حينئذ وإن كان قد أظهر الإسلام فأراد النبي ﷺ أن يبين حاله ليعرفه الناس ولا يغتر به من لم يعرفه ، قال : وكان منه في حياة النبي ﷺ وبعده ما دل على ضعف إيمانه وارتد مع المرتدين وجيء به أسيراً إلى أبي بكر رضي الله عنه ووصف النبي بأنه بئس أخو العشيرة ، من أعلام النبوة لأنه ظهر كما وصف وإنما ألان له القول تأليفاً له ولأمثاله على الإسلام ، والمراد بالعشيرة قبيلته أي بئس هذا الرجل منها .

عن الأعمش ، عن إبراهيم قال : ثلاثة ليس لهم غيبة الظالم ، والفاسق ، وصاحب البدعة(٣).

الفاسق هو الذي تمرد على أوامر الله فليس له حرمة في عهده فهو غادر وكاذب غير صادق وخائن غير أمين فأي حرمة تكون له ، غير أن المؤمن لا يشتم ولا يسب فهو مؤمن في أخلاقه مع الكافر والمؤمن ولذلك مدح الله رسوله بأنه لو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله وما كانت له كلمة ونحن على أثر الرسول سائرون وبه مقتدون .

---

(١) أخرجه البخاري ٢٠/٨ ، ٢١ ، ومسلم ٢١/٨ ، وأبو داود (٤٧٧٠) ، والترمذي (٢٠٦٤) ، وعبد الرزاق في « الجامع » (٢٠١٤٤) وأحمد ٣٨/٦ ، ١٥٨ و١٥٩ .

(٢) « النووي على مسلم » ١٤٤/١٦ .

(٣) أورده السيوطي في « الدر » وعزاه إلى البيهقي ٩٧/٦ . انظر « الصمت » لابن أبي الدنيا (٢٢٣) و(٢٢٦) .

والمبتدع هو الذي أتى بشيء أو أمرٍ على غير مثال لكنه مع إتيانه مخالف لتعاليم الدين الحنيف لذا كان الحديث عنه ليس غيبة والهدف تقويم نفسه وإصلاح خطئه .

والظالم إذا ذكرته بما فيه أقلع وامتنع عن ظلمه ، والظلم ظلمات يوم القيامة وسيأتي في باب الظلم إن شاء الله .

المرخص غيبتهم ما جمعه ابن أبي شريف وهي ستة في قوله :

الذم ليس بغيبة في ستة مُتَظَلِّم وَمُعَرِّفٍ وَمُحَذِّر
ولمظهر فسقاً ومن يسعى إلى طلب الإعانة في إزالة منكر

قال الحسن : ليس بينك وبين الفاسق حرمة(١).

ولنطنب بعض الشيء في بيان الفسوق لنتبينه ونحذره :

أما « الفسق » فقد قال تعالى : ﴿**وأما الذين فسقوا فمأواهم النار**﴾ [السجدة : ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿**وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون**﴾ [الأعراف : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿**ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون**﴾ . [البقرة : ٩٩] .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿**ولقد أنزلنا إليك آيات بينات**﴾ الآية : أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوّتك وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بين إسرائيل والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم وبدّلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة فأطلع الله في كتابه الذي أنزله على محمد ﷺ ، فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه ولم يدعها إلى

---

(١) أورده السيوطي في « الدر المنثور » مطولاً بلفظ : « ثلاثة ليس لهم حرمة في الغيبة : فاسق معلن الفسق ، والأمير الجائر ، وصاحب البدعة المعلن بدعته » . وعزاه إلى البيهقي : ٩٧/٦ .

هلاكه الحسد والبغي إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصف من غير تعلم تعلمه من بشر ولا أخذ شيئاً منه عن آدمي ، كما قال الضحاك عن ابن عباس : يقول : فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم بما في أيديهم على وجهه ، يقول الله تعالى لهم في ذلك عبرة وبيان وعليهم حجة لو كانوا يعلمون .

وقال ابن اسحاق عن ابن عباس قال : قال ابن صوريا القطويني لرسول الله ﷺ : يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفة وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك فأنزل الله في ذلك من قوله : ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلاّ الفاسقون** ﴾ .

وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق وما عهد إليهم في محمد ﷺ : والله ما عهد إلينا في محمد وما أخذ علينا ميثاقاً . فأنز الله تعالى : ﴿ **أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم** ﴾ .

وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ **بل أكثرهم لا يؤمنون** ﴾ قال : نعم ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلاّ نقضوه ونبذوه ، يعاهدون اليوم ، وينقضون غداً .

وقال السدى: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ .

وقال قتادة : نبذه فريق منهم ، أي نقضه فريق منهم .

وقال ابن جرير : أصل النبذ الطرح والإلقاء ..

قال ابن كثير : فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقها ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة الذي في كتبهم نعته وصفته وأخباره وقد أمروا فيها باتباعه وموازرته ونصرته كما قال تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل** ﴾ [الاعراف : ١٥٧] .

وقال ههنا : ﴿ **ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم** ﴾ الآية . [البقرة : ١٠١] . أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم ، أي تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه . فهذه حالة من حالات الفسق الكثيرة ..

وأخرج ابن أبي الدنيا عن إبراهيم أيضاً أنه قال : كانوا لا يرونها غيبة ما لم يسم صاحبها .

ولذلك كان رسول الله ﷺ يقف على المنبر وينادي قائلا : ما بال أقوام يقولون كذا وكذا .. ويسمى الفعل ولا يذكر اسم صاحبه مراعاة لحرمته ، والهدف تقويم المعوج من الأخلاق ..

وأخرج ابن أبي الدانيا(١)، عن الصلت بن طريف قال : قلت للحسن : الرجل الفاجر المعلن بفجوره ذِكري له بما فيه غيبة ؟ قال : لا ولا كرامة .

من عادة المؤمن عند ارتكابه للذنب أن يستتر ويتوارى عن الناس ولاسيما أن الله سنده ، أما الفاجر الفاسق فهو معلن لذنبه بل ويجاهر بمعاصيه وهو بذلك ينشر المعصية ويشجع على عملها مثله إذ أن الفتنة نارٌ خامدة لعن الله من أشعلها . فالحديث عن الفاجر المقصود منه ليس غيبة إنما زجرٌ له وردع حتى يعود إلى رشده وصوابه ويتوب إلى الله .

---

(١) أورده الغزالي في « الاحياء » ١٣٣/٣ وفي « الاتحاف » ٥٥٧/٧ ، والبخاري في « الأدب المفرد » ص ٤٤٨ .

الغل والحسد والبغضاء

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبُهُ ولا يحقره ، التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرىءٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه ، وماله ، وعرضه** »(١).

لا يجوز للمسلم أن يكره أخاه المسلم بدون سبب شرعي ، فإن الكراهة تدعو إلى قسوة القلب ، واستحكام النفور ، وتحول بين مساعدة الناس بعضهم بعضاً ، والإسلام يدعو إلى المعاونة ، والمحبة ، والوئام .

ولا ينبغي له أن يحسد أخاه ، فإن الحسد داء دفين ومرض قديم ، يفتك بالصحة ، ويُقبر المودّة ، ويوقظ العداوة ويحيى الفتن ، ويورث الحاسد الآلام والأسقام ، ويحرمه لذة الحياة ، ولذا قال الله تعالى لرسوله الكريم : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد** ﴾ .

ويجدر بالمسلم إذا قابل أخاه ألا يعرض عنه ، فإن إعراضه عنه قد يدعو الآخر إلى أن يقابله بمثل فعله ، وفي هذا التقاطع والجفاء ، وذلك مكروه شرعاً ، بل الواجب إذا صادف الإنسان أخاه أن يسلم عليه ويحسن ملاقاته ، ويجمل مقابلته ، لتتم الألفة ويسود السلام .

قال عليه الصلاة والسلام : « **لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثٍ ، يلتقيان**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٢٧٧/٢ و٣٦٠ ، والبخاري ٨٨/٧ ومسلم (٢٥٦٤) ، وأبو داود ٢٧٨/٤ ، والترمذي ٣٢٩/٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»(١).

خلق الله جلت حكمته الناس من جنس واحد للتعارف لا للتناكر ، وللتواصل لا للتقاطع ، وللاجتماع لا للافتراق وللتعاون لا للتخاذل ، قال سبحانه : ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**﴾ [الحجرات : ١٣] .

لهذا علمنا رسول الله ﷺ أن الله سبحانه حرم علينا أن يهجر أحدنا أخاه المسلم ، فإنه تربطه به رابطتان : إحداهما رابطة الإنسانية ، وثانيتهما رابطة الديانة الإسلامية التي لا تُطاوِلُها رابطةٌ أخرى ، ولا تُدانيها صلةٌ سواها .

حرم علينا ذلك الهجر لما فيه من قطع الصلة بين المؤمنين ، وتفكيك عروة الإسلام الوثقى التي بينهم ، وذلك مؤد إلى ضعفهم وخذلانهم ، وتعطيل أحكام دينهم القويم ، وتمكين أعدائهم منهم ، وتسليطهم عليهم حتى يصبحوا أذلاء بعد العزة ، فقراء بعد الغنى ، جهالًا بعد العلم ، عبيداً بعد السيادة ، ويصير دينهم الحنيف معطلًا بعد نفاذه ، معيباً بعد سلامته وطهارته ، مضغةً في أفواه أعدائه والجاهلين به والذين لا يألونه خبالًا ، ولا سعياً في طمسه ومحوه : ﴿**ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾ [التوبة : ٣٢] .

زد على ذلك الأضرار العديدة الدنيوية من تمكين العداوة في نفوسهم ، ورسوخ البغضاء في قلوبهم ، فيحملهم ذلك على التشاحن والتطاحن ، ويجر بعضهم بعضاً إلى القضاء حتى تكتظ بهم دياره ويسأمهم الحكام والقضاة ، وإذ ذاك تتعطل مصالحهم وتكسد تجارتهم وتهلك مزارعهم ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فسر ﷺ الهجرَ ، فبيّن أنه الإعراض عند الالتقاء ، فيتولى كل منهما بوجهه عن أخيه ليشفيا بذلك أنفسهما ويُرضيا به شياطينهما ، وغاب عنهما أنه تمزيق لشملهما ، وتقطيع لأوصالهما ، وإغضاب لربهما ، واستنزال لمقته وسخطه .

بين هذا كما بين أن باب التوبة مفتوح ، وأن الله يقبل من رجع منهما إليه ، وأن

---

(١) أخرجه البخاري .

أفضلهما عند الله وأقربَهما إلى عفوه ورحمته هو أسرعُها إلى التوبة والإنابة والتسامح والمصافاة والبدء بالتحية والسلام .

أما الهجر فيما دون الثلاث فإنه جائز لا محذور فيه والحكمة الإلهية البالغة في ذلك أن الإنسان في اليوم الأول يسكن غضبه ، وفي الثاني يراجع نفسه ، وفي الثالث يعتذر لأخيه ، وما زاد على ذلك فإنه يكون قطعاً لحقوق الأخوّة التي ربط الله تعالى بها المؤمنين أصلح الله شأنهم .

ينبغي أن يكتسب كل إنسان من الصفات الفاضلة ، والمزيا الكاملة ، ما يحبب الناس فيه ، ويجعلهم يميلون إليه ، ميلهم إلى إخوانهم ، ليكونوا إخواناً متحابين متآلفين .

وقد جبل الإنسان على الغضب إذا صادف ما لا يلائمه ، ولا يكسر سورة غضبه إلا الهجر ، فإذا بدرت من أخيك بادرة ، وأوغرت صدك منه ، فلا يكون ذلك داعياً إلى هجره الدهر ، بل يجب ألا تزيد في هجره على ثلاثة أيام ، لأن هذه المدّة كافية لإذهاب غضب المسلم واستلال السخيمة من قلبه .

والغرض من هذا الحديث : الحث على المؤاخاة ، وإخلاص كل مسلم لأخيه(١)..

قال الحافظ ابن حجر(٢): الحسد تمني الشخص زوال النعمة عند مستحق لها أعم من أن يسعى في ذلك أولا ، فإن سعى كان باغياً ، وإن لم يسع في ذلك ولا أظهره ولا تسبب في تأكيد أسباب الكراهة التي نهى المسلم عنها في حق المسلم نظر فإن كان المانع له من ذلك العجز بحيث لو تمكن لفعل فهذا مأزور ، وإنْ كان المانع له من ذلك التقوى فقد يعذر لأنه لا يستطيع دفع الخواطر النفسانية فيكفيه في مجاهدتها أن لا تعمل بها ولا يعزم على العمل بها اهـ .

جاء في « محاضرات الأدباء » للأصبهاني : أن رجلًا توصل إلى إبليس فقال له : لي إليك حاجة ، إن عمى ذا ثروة وجاه وهو كثير الإحسان علي وعلى أهلي ، ولكن أريد

(١) انظر : « الدين الإسلامي » ٣١٠/٢ و٣٢١ بتصرف .
(٢) « فتح الباري » ٣٩٦/١٠ .

منك أن تعمل على إزالة نعمته حتى يكون كحالي ، فقال إبليس لأصحابه ! من أراد أن يرى من هو شر مني فلينظر إلى هذا .

قال المتنبي :

وأظلم أهل الأرض من بات حاسداً ‏ ‏ لمن بات في نعمائه يتقلب

وقال غيره :

إن شئت قتل الحاسدين تعمداً ‏ ‏ من غير مادية عليك ولا قود
وبغير سم قاتل وصوارم ‏ ‏ وعقاب رب ليس يغفل عن أحد
عظم تجاه عيونهم محسودهم ‏ ‏ فتراهمُ موتى النفوس مع الجسد

وقال عبد العزيز الأبرش :

ليس للحاسد إلا ما حسد ‏ ‏ وله البغضاء من كل أحد
وأرى الوحدة خيراً للفتى ‏ ‏ من جليس السوء فانهض إن قعد

وقال ابن المعتز :

اصبر على كيد الحسود ‏ ‏ فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها ‏ ‏ إن لم تجد ما تأكله

وقال المعري :

فلا تحسدن يوماً على فضل نعمةٍ ‏ ‏ فحسبك عارًا أن يقال حسودُ

وقال بعضهم :

وكل أداويه على قدر دائه ‏ ‏ سوى حاسدي فهي التي لا أنالها
وكيف يداوي المرء حاسد نعمة ‏ ‏ إذا كان لا يرضيه إلاّ زوالها

وقال رجل لخالد بن صفوان : إني أحبك . فقال خالد : وما يمنعك من ذلك ولست لك بجار ولا أخ ولا ابن عم ، يريد أن الحسد موكل بالأدنى فالأدنى .

قال علي أمير المؤمنين : لا راحة لحسود ، ولا إخاء لملول ، ولا محب لسيء الخلق .

وقال الحسن البصري : ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد ، نفَس دائم ، وحزن لازم ، وغم لا ينفذ .

قال الشاعر :

كل العداوات قد ترضى إماتتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال سليمان التيمي : الحسد يضعف اليقين ، ويسهر العين ، ويكثر الهم .

السخرية والاستهزاء

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾ [الحجرات : ١١ ، ١٢] .

قال ابن كثير : ينهى تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **الكبر بطر الحق وغمص الناس — ويروي : وغمط الناس** » والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم وهذا حرام فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له ولهذا قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرًا منهن** ﴾ فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ أي لا تلمزوا الناس ، والهماز اللماز من الرجل مذموم ملعون كما قال تعالى : ﴿ **ويل لكل همزة لمزة** ﴾ والهمز بالفعل واللمز بالمال ولهذا قال ههنا : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ كما قال : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم** ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً .

وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل بن حيان ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ أي لا يطعن بعضكم على بعض . وقوله تعالى : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ أي لا تداعوا بالألقاب وهي التي يسوء الشخص سماعها . أخرج الإمام أحمد عن أبي جبيرة بن الضحاك قال : فينا نزلت في بني سلمة ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت الآية .

وقوله تعالى : ﴿**بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان**﴾ أي بئس الصفة والاسم الفسوق وهو التنابز بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يتعاتون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ﴿**ومن لم يتب**﴾ أي من هذا ﴿**فأولئك هم الظالمون**﴾ ثم قال تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون**﴾ [الحجرات : ١١] .

قال ابن كثير(١): يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً فليجتنب كثير منه احتياطاً .

روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محملًا .

وأخرج ابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول : « **ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلاّ خيراً** » .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا** »(٢).

وأخرجه مسلم والترمذي عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تقاطعوا ولا**

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » ٢١٢/٤ .

(٢) أخرجه مالك ٢١٣/٢ ــ ٢١٤ ، وأحمد ٢٤٥/٢ و٢٨٧ و٤٦٥ و٥١٧ ، والبخاري (٥١٤٣) و(٦٠٦٦) ، ومسلم (٢٥٦٣) ، والترمذي (٢٠٥٥) .

وله طرق أخرى عند أحمد ٣١٢/٢ و ٣٤٢ و٤٧٠ و٤٨٢ و٤٩١ ــ ٤٩٢ و٥٠٤ و٥٣٩ والبخاري (٦٠٦٤) و(٦٧٢٤) .

وعزاه ابن كثير في « تفسيره » لأبي داود .

تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » .

وأخرج الطبراني عن حارثة بن النعمان قال : قال رسول الله ﷺ : « **ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة ، والحسد ، وسوء الظن** » فقال رجل وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال ﷺ : « **إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض** » .

وأخرج أبو داود عن زيد رضي الله عنه قال : أتى ابن مسعود رضي الله عنه برجل فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمراً فقال عبد الله إنا قد نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به ، سماه ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وأخرج الإمام أحمد عن دجين كاتب عقبة قال : قلت لعقبة إن لنا جيراناً يشربون الخمر وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم قال لا تفعل ولكن عظهم وتهددهم قال ففعل فلم ينتهوا ، قال فجاءه دجين فقال : إني قد نهيتهم فلم ينتهوا وإني داع لهم الشرط فتأخذهم فقال له عقبة ويحك لا تفعل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها** » .

ورواه أبو داود والنسائي من حديث الليث بن سعد به نحوه .

وعن معاوية قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « **إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم** » فقال أبو الدرداء : كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها . أخرجه أبو داود من حديث الثوري به .

وأخرج أبو داود أيضاً عن مرة وعمر بن الأسود والمقدام بن معد يكرب وأبي أمامة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال : « **إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم** » .

﴿ **ولا تجسسوا** ﴾ أي على بعضكم بعضاً ، والتجسس غالباً يطلق في الشر ومنه الجاسوس ، وأما التحسس فيكون غالباً في الخير كما قال عز وجل اخباراً عن يعقوب أنه قال : ﴿ **يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله** ﴾ وقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « **لا تجسسوا**

ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً » وقال الأوزاعي :
التحسس : البحث عن الشيء .
والتجسس : الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم .
والتدابر : الصرم . رواه ابن أبي حاتم عنه .

قال سيد رحمه الله(١): إن المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدي القرآن مجتمع له أدب رفيع ، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس ، وهي من كرامة المجموع ، ولمز أي فرد هو لمز لذات النفس ، لأن الجماعة كلها واحدة ، كرامتها واحدة .

والقرآن في هذه الآية يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب : ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ . وينهاهم أن يسخر قوم بقوم ، أي رجال برجال ، فلعلهم خير منهم عند الله ، أو أن يسخر نساء من نساء فلعلهن خير منهن في ميزان الله .

وفي التعبير إيحاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية ، التي يوزن بها الناس ، فهناك قيم أخرى ، قد تكون خافية عليهم ، يعلمها الله ، ويزن بها العباد ، وقد يسخر الرجل الغني من الرجل الفقير ، والرجل القوي من الرجل الضعيف ، والرجل السوي من الرجل المؤوف ، وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخام ، وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم ، وذو الصبية من اليتيم .. وقد تسخر الجميلة من القبيحة ، والشابة من العجوز ، والمعتدلة من المشوهة ، والغنية من الفقيرة .. ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس ، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين !

ولكن القرآن لا يكتفي بهذا الإيحاء ، بل يستجيش عاطفة الأخوة الإيمانية ، ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة من يلمزها فقد لمزها : ﴿**ولا تلمزوا أنفسكم**﴾ .. واللمز : العيب . ولكن للفظة جرساً وظلًا ، فكأنما هي وخزة حسية لا عيبة معنوية !

ومن السخرية واللمز التنابز بالألقاب التي يكرهها أصحابها ، ويحسون فيها سخرية وعيباً ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزري به ، ومن أدب المؤمن

(١) « في ظلال القرآن » ٥٣٢/٧

ألا يؤذي أخاه بمثل هذا ، وقد غير رسول الله ﷺ أسماء وألقاباً كانت في الجاهلية لأصحابها ، أحس فيها بحسه المرهف ، وقلبه الكريم بما يزرى بأصحابها ، أو يصفهم بوصف ذميم .

والآية بعد الإيحاء بالقيم الحقيقية في ميزان الله ، وبعد استجاشة شعور الأخوة ، بل شعور الاندماج في نفس واحدة ، تستثير معنى الإيمان ، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم ، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتنابز : ﴿ **بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** ﴾ . فهو شيء يشبه الارتداد عن الإيمان ، وتهدد باعتبار هذا ظلماً ، والظلم أحد التعبيرات عن الشرك : ﴿ **ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾ .. وبذلك تضع قواعد الأدب النفسي لذلك المجتمع الفاضل الكريم .

الحقد والشحناء

عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **تُفتحُ أبوابُ الجنةِ يومَ الاثنين ، ويومَ الخميس ، فيغفرُ فيهما لكل عبدٍ لا يشركُ بالله شيئاً ، إلا رجلًا كانتْ بينه وبين أخيه شحناءُ ، فيقالُ : انظروا هذين حتى يصطلحا** »(١).

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « **خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره** »(٢).

وعن أبي هريرة قال : إن رسول الله ﷺ وقف على ناسٍ جلوس فقال : « **ألا أخبركم بخيركم من شركم ؟** » — قالها ثلاثاً — فقال رجل : بلى يا رسول الله أخبرنا بخيرنا من شرنا فقال : « **خيركم من يُرجى خيره ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره** »(٣).

وعن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « **لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار** » [أخرجه الإمام أحمد وأبو داود بإسناد صحيح] .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم (٢٥٦٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد) وأبو داود ، والترمذي (٢٠٢٤) وقال في « تحفة الأحوزي » ١٦٩/٦ رواه البخاري في « الأدب المفرد » وأبو داود في « سننه » .

(٢) أخرجه الترمذي والدارمي قال في « المشكاة » (٤٩٨٧) وإسناده صحيح .

(٣) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح ، والبيهقي في « الشعب » .

الخصام والخصومة

الخصام : منه قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾ [البقرة : ٢٠٤] .

قال نوف البكالي ــ وكان ممن يقرأ الكتب قال ــ : إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل : قوم يحتالون على الدنيا بالدين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، يلبسون للناس مسوك الضأن ، وقولبهم قلوب الذئاب ، يقول الله تعالى : ﴿فعلي يجترؤن وبي يغترون حلفت بنفسى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران﴾ .

ومنها قوله تعالى : ﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، أوَ مَنْ يُنشؤا في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾ [الزخرف : ١٧ ، ١٨] .

جعلوا لله من قسمي البنات والبنين أخسهما وأردأهما وهو البنات كما قال تعالى : ﴿ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذاً قسمة ضيزي﴾ وقال : ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟﴾ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار . ثم ذكر تمام الإنكار فقال جلت عظمته : ﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ أي إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به ويتوارى من القوم من خجله من ذلك ، يقول تبارك وتعالى فكيف تأنفون أنتم من ذلك وتنسبونه إلى الله عز وجل ؟ ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿أو من ينشؤا في الحلية وهو في الخصام غير مبين ؟﴾ أي المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة وإذا خاصمت فلا عبارة لها بل هي عاجزة عييه ، أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم ؟ ...

ويأتي الاختصام بمعنى التشاجر كما في قوله تعالى : ﴿ **ما ينظرون إلاّ صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون** ﴾ [يس : ٤٩] .

قال ابن كثير : أي ما ينتظرون إلاّ صيحة واحدة وهذه والله أعلم نفخة الفزع ، ينفخ في الصور نفخة الفزع والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم فبينما هم كذلك إذ أمر الله عز وجل إسرافيل فنفخ في الصور ..

وقال تعالى : ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفةٍ فإذا هو خصيم مبين** ﴾ [يس : ٧٧] .

يأتي الاختصام هنا بمعنى الجحود والإنكار

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففته بيده ثم قال لرسول الله ﷺ : أيحيي الله هذا بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم** » .

وقوله تعالى : ﴿ **أو لم ير الإنسان** ﴾ للجنس يعم كل منكر للبعث ﴿ **أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾ أي : أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين .

أخرج الإمام أحمد عن بشر بن جحاش قال : إن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال رسول الله ﷺ : « **قال الله تعالى : يا بني آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة ؟** » [رواه ابن ماجه] . ولهذا قال تعالى : ﴿ **وضرب لنا مثلًا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ؟** ﴾ أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السماوات والأرض للأجساد والعظام الرميمة ونسى نفسه وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود ...

وقال تعالى : ﴿ **خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾ [النحل : ٤] .

يأتي معنى خصيم هنا : المخاصمة والتكذيب والمحاربة والمعنى : نبه الله سبحانه على خلق جنس الإنسان من نطفة ، أي مهينة ضعيفة كما تقدم ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً .

الخصومة :

لجاج في الكلام ليستوفي به مالًا أو غيره ويكون تارة ابتدءً وتارةً اعتراضاً وهي المحاجة وطلب القهر والغلبة ، قال عليه الصلاة والسلام : « **لا يحل للرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام** »(١).

قال العلماء : تحرم الهجرة بين المسلمين أكثر من ثلاث ليال بالنص وتباح في الثلاث بالمفهوم . وإنما عفى في ذلك لأن الآدمي مجبول على الغضب فسومح بذلك القدر ليرجع ويزول ذلك العارض عنه ، والتعبير في الحديث بالأخ فيه إشعار بالعليَّة(٢).

والهجرة هي مفارقة كلام المسلم لأخيه المسلم مع تلاقيهما وإعراضه عنه كلما اجتمعا ، وفي حديث ابن مسعود مرفوعاً عند الطبراني والبيهقي : « **إن من أشراط الساعة أن يمر الرجل بالمسجد لا يصلي فيه وأن لا يسلّم إلاّ على من يعرفه** » .

قال النووي : ما رأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة .

فإن قلت : لابد للإنسان من الخصومة لاستيفاء حقوقه ، فالجواب ما أجاب به الغزالي أن الذم إنما هو لمن خاصم بباطل أو بغير علم كوكيل القاضي فإنه يتوكل قبل أن يعرف أن الحق في أي جانب ، ويدخل في الذم من طلب حقاً لكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد والكذب للإيذاء أو التسلط على خصمه . وكذلك من يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره ، وكذلك من يخلط الخصومة بكلمات تؤذى

(١) أخرجه البخاري ٢٦/٨ ، ومسلم ٩/٨ ، وأبو داود (٤٩١١) ، والترمذي (٦٩٣٣) .
(٢) « زاد المسلم » ٣٦٤/٥ .

وليس له إليها ضرورة في التوصل إلى غرضه فهذا هو المذموم بخلاف المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على الحاجة من غير قصد عناد ولا إيذاء ، ففعله هذا ليس مذموماً وليس حراماً ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلًا ، لأن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدور وتهيج الغضب فإذا هاج الغضب حصل الحقد بينهما حتى يفرح كل منهما بمساءة الآخر ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه .

فمن خاصم تعرض لهذه الآفات وأقل ما فيها اشتغال القلب حتى أنه يكون في صلاته وخاطره معلقاً بالمحاجة والخصومة فلا يبقى حاله على الاستقامة ، والخصومة مبدأ الشر وكذا المراء والجدل كما أنها ليست من صفات المؤمنين لقوله ﷺ : « **إن المؤمن ليس باللعان ولا الطعان ولا الفاحش ولا البذيء** »(١) فينبغي على الإنسان أن لا يفتح عليه باب الخصومة إلا لضرورة لابد منها ، وعند ذلك يحفظ الإنسان لسانه وقلبه عن آفاتها .

قال ابن رجب الحنبلي في شرح حديث رسول الله ﷺ : « **أربع من كن فيه كان منافقاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر** »(٢).

إذا خاصم فجر : ويعني بالفجور أن يخرج عن الحق عمداً حتى يصير الحق باطلًا والباطل حقاً ، وهذا مما يدعو إليه الكذب كما قال النبي ﷺ : « **إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار** »(٣).

وفي « الصحيحين » عن النبي « قال : « **إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم** »(٤).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤٠٧/١ ، والترمذي (١٩٧٧) وقال : حسن غريب .
(٢) أخرجه البخاري ٣٠/٨ ، ومسلم ٥٦/١ ، وأبو داود (٤٦٨٨) ، والترمذي (٢٦٣٢) ، والنسائي في الإيمان باب (٢٠) ، والإمام أحمد ، ١٨٩/٢ .
(٣) أخرجه مسلم ٧٩/٨ ، وأبو داود (٤٩٨٩) ، والترمذي (١٩٧١) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد ٥٥/٦ ، والبخاري ٩١/٩ ، ومسلم ٧/٨ ، والترمذي (١٩٧٦) .

وقال ﷺ : « **إنكم لتختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضي على نحو مما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه ، إنما أقطع له قطعة من النار** »(١).

وقال ﷺ : « **إن من البيان لسحراً** »(٢) فإذا كان الرجل ذا قدرة عند الخصومة سواء كانت خصومته في الدين أو في الدنيا على أن ينتصر للباطل ، ويخيل للسامع أنه حق ، ويوهن الحق ويخرجه في صورة الباطل كان ذلك من أقبح المحرمات وأخبث خصال النفاق .

وعن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : « **من خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع** » .

وفي رواية : « **ومن أعان على خصومة بظلم فقد باء بغضب من الله** »(٣).

قال ابن دريد في معنى حديث : « **إن من البيان لسحرا** » : يريد أن البليغ يبلغ ببيانه ما يبلغه الساحر في لطافة حيلته(٤).

---

(١) أخرجه البخاري ٢٣٥/٣ و٩٩/٩ ، ومسلم ١٢٩/٥ ، وأبو داود ١٤/٤ ، والترمذي ٦٢٤/٣ ، وابن ماجه ٧٧٧/٢ .

(٢) أخرجه البخاري ١٠٧/١١ و٣٤٩/١٢ و١٥٦/١٣ ، ومسلم ١٥٨/٦ ، وأبو داود ٢٥٤/١٣ ، والترمذي ١٧٥/٦ ، وابن ماجه (٣٧٥٥) ، والدارمي ٣٦٥/١ ، وأحمد ٤٥٦/٣٠ و١٢٥/٥ ، وأبو نعيم في « الحلية » ٢٢٤/٣ و٢٦٩/٧ .

(٣) أخرجه أبو داود (٣٥٩٨) .

(٤) « المجتبى » ص ١١ .

المراء والجدال والمخاصمة

قال تعالى : ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرثَ والنسلَ والله لا يحبُ الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد**﴾ [البقرة : ٢٠٤ : ٢٠٦] .

قال السدي : نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي ، جاء إلى رسول الله ﷺ وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك .

وعن ابن عباس : أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه : ﴿**ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله**﴾.

وقيل : بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد وهو الصحيح .

وأخرج ابن جرير عن نوف البكالي وكان ممن يقرأ الكتب قال : إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل : قوم يحتالون على الدنيا بالدين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر يلبسون للناس مسوك الضأن ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله تعالى : فعلي يجترؤن ، وبي يغترون ، حلفت بنفسي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران .

قال القرطبي : تدبرتها في القرآن فإذا هم المنافقون فوجدتها ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه**﴾ الآية .

قال : وحدثني محمد بن أبي معشر أخبرني أبو معشر نجيح قال : سمعت سعيداً المقبري يذاكر محمد بن كعب القرظي . فقال سعيد : إن في بعض الكتب : إن عباداً

ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين ، يجترؤن الدنيا بالدين .

قال الله تعالى : عليّ تجترؤن وبي تغترون ؟ وعزتي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران . فقال محمد بن كعب : هذا في كتاب الله ، فقال سعيد : وأين هو من كتاب الله قال : قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا** ﴾ الآية . فقال سعيد : قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية فقال محمد بن كعب إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح كما قال ابن كثير .

وأما قوله : ﴿ **ويُشهد الله على ما في قلبه** ﴾ ومعناه : أن هذا وإن أظهر لكم الحيل لكن الله يعلم من قلبه القبيح كقوله تعالى : ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون** ﴾ هذا على قراءة من فتح الياء وضم الجلالة ، وأما على قراءة الجمهور وهي بضم الياء ونصب الجلالة ﴿ **ويُشهد الله على ما في قلبه** ﴾ ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالى : ﴿ **يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله** ﴾ الآية . هذا معنى ما رواه ابن اسحاق عن ابن عباس .

وقيل : معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم أن الذي في قلبه موافق للسانه وهذا المعنى صحيح وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وعزاه إلى ابن عباس وحكاه عن مجاهد والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وهو ألد الخصام** ﴾ الألد في اللغة : الأعوج وقوله تعالى : ﴿ **وتنذر به قوماً لداً** ﴾ أي : عوجاً وهكذا المنافق في حال خصومته يكذب ويزور عن الحق ولا يستقيم معه بل يفتري ويفجر كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر** » .

وأخرج البخاري عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم** »(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٥٥/٦ ، والبخاري ٩١/٩ ، ومسلم ٥٧/٨ ، والترمذي ٢١٤/٥ حديث (٢٩٧٦) ، والنسائي في القضاء باب (٣٤) .

وهكذا رواه عبد الرزاق عن معمر في قوله : ﴿ **وهو ألد الخصام** ﴾ عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن عائشة عن النبي ﷺ قال : « **إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم** » أي كثير الخصومة .

وقوله : ﴿ **وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد** ﴾ أي هو أعوج المقال ، سيء الفعال ، فذلك قوله وهذا فعله ، كلامه كذب واعتقاده فاسد ، وأفعاله قبيحة ، والسعي ههنا هو القصد كما قال إخباراً عن فرعون : ﴿ **ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله** ﴾ أي اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية : « **إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة والوقار** » فهذا المنافق ليس له همة إلاّ الفساد في الأرض وإهلاك الحرث وهو محل نماء الزروع والثمار والنسل وهو نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما .

وقال مجاهد إذا سعى في الأرض إفساداً منع الله القطر فهلك الحرث والنسل ﴿ **والله لا يحب الفساد** ﴾ أي لا يحب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك .

وقوله : ﴿ **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم** ﴾ أي إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله وقيل له اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالإثم أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير** ﴾ ولهذا قال في هذه الآية : ﴿ **فحسبه جهنم ولبئس المهاد** ﴾ أي هي كافيته عقوبة في ذلك(١).

وبعد الانتهاء من تفسير الآية نبين الآن ما هو المراء والجدل والمخاصمة .

---

(١) انظر : « تفسير القرآن العظيم » ٢٤٥/١ .

أما المراء : هو الطعن في كلام الغير لاظهار خلل فيه ، لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مرتبتك عليه .

وحد المراء : هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض .

فكل كلام سمعته إن كان حقاً فصدق به ، وإن كان باطلًا أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه .

أما الجدال : فهو ما يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها وهو عبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى التهور والجهل فيه .

والباعث على هذا : هو الترفع بإظهار العلم والفضل والتهجم على الغير بإظهار نقصه وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها .

أما إظهار الفضل فهو من قبيل تزكية النفس وهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء وهي من صفات الربوبية .

وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فإنه يقتضي أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وإنما قوتهما المراء والجدل ، والمواظبة على المراء والجدال قوة للصفات المهلكة وهذا يعني تجاوز حد الكراهية إلى المعصية لما فيه من إيذاء الغير .

ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ويقدح في قائله بكل ما يتصور له فيثور الشجار بين المتمارين كما يثور الهراش في الكبين يقصد كل منهما أن يعض صاحبه بما هو أعلم نكاية وأقوى في إفحامه وإلجامه .

وينقسم الجدل إلى قسمين :

أما الأول : فمنهي عنه وهو جدال أهل الباطل لأهل الحق ، قال تعالى : ﴿ **ما يجادل في آيات الله إلاّ الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ، كذبت قبلهم قوم**

نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ [غافر : ٤ ــ ٥] .

يقول تعالى : ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان إلاّ الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه .

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه بأن له أسوة من سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنه قد كذبهم أممهم وخالفوهم وما آمن بهم منهم إلاّ قليل فقال : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح** ﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿ **والأحزاب من بعدهم** ﴾ أي من كل أمة ﴿ **وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه** ﴾ أي حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل رسوله ﴿ **وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق** ﴾ أي ما حلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي .

أخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « **من أعان باطلًا ليدحض به حقاً فقد برئت منه ذمة الله تعالى وذمة رسوله** ﷺ » .

وقال تعالى : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبدَ الله وحده ونذرَ ما كان يعبدُ آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماءٍ سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطانٍ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ [الأعراف : ٧٠ ــ ٧١] .

قوله : أتجادلونني ، أي أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة وهي لا تضر ولا تنفع ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلًا ؟

وقال تعالى : ﴿ **ولقد صرفنا في هذا القرآنِ للناس من كل مثلٍ وكان الإنسان أكثرَ شيءٍ جدلًا ، وما منع الناسَ أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلاّ أن تأتيهم سنةُ الأولين أو يأتيهم العذابُ قُبُلًا ، وما نرسل المرسلينَ إلاّ مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أُنذروا هُزُوًا** ﴾ [الكهف : ٥٤ ــ ٥٦] .

قال ابن كثير : يقول تعالى : ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة .

أخرج الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة فقال : « **ألا تصليان ؟** » فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إليّ شيئاً ثم سمعته وهو مولّ يضرب فخذه ويقول : ﴿ **وكان الإنسان أكثر شيء جدلًا** ﴾ [الكهف : ٥٤] .

وأخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً كما قال أولئك لنبيهم : ﴿ **فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين** ﴾ وقال آخرون : ﴿ **ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين** ﴾ وقالت قريش : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ [الأنفال : ٣٢] . وقالوا أيضاً : ﴿ **وقالوا يا أيها الذي أنزل عليه الذكر إنك لمجنون ، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين** ﴾ [الحجر : ٦] . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين** ﴾ [الكهف : ٥٦] . أي قبل العذاب مبشرين من صدّقهم وآمن بهم ومنذرين لمن كذبهم وخالفهم ثم أخبر عن الكفار بأنهم ﴿ **ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا** ﴾ [الكهف : ٥٦] . أي ليضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل وليس ذلك بحاصل لهم ﴿ **واتخذوا آياتي وما أنذورا هزوا** ﴾ أي اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿ **هزواً** ﴾ أي سخروا منهم في ذلك وهو أشد التكذيب .

---

(١) وأخرجاه في « الصحيحين » .

وقال تعالى ذاماً من يجادل في الله بغير علم : ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد** ﴾ [الحج : ٣] .

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه متبعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد من الإنس والجن وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل يتركون ما أنزل الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء ولهذا قال في شأنهم وأشباههم : ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم** ﴾ [الحج : ٨] . أي يجادل بغيرعلم صحيح .

ولما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله : ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد** ﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقال : ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾ [الحج : ٨] .

أي بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح ، بل بمجرد الرأي والهوى مستكبر عن الحق إذا دعي إليه .

وقال تعالى : ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علمٍ ولا هدىً ولا كتاب منير** ﴾ [لقمان : ٢٠] .

يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم وما خلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد وجعله إياها لهم سقفاً محفوظاً وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم بل منهم من يجادل في الله أي في توحيده وإرساله الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم ولا مستند من حجة صحيحة ولا كتاب مأثور صحيح ولهذا إذا قيل لهؤلاء المجادلين في توحيد الله اتبعوا ما أنزل الله على

رسوله من الشرائع المطهرة لمن تكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ﴿ **قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا** ﴾ فأجابهم الله سبحانه ﴿ **أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

المجادلة وحي الشياطين :

قال تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

وقوله تعالى : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم** ﴾

قال ابن أبي حاتم عن ابن إسحاق قال : قال رجل لابن عمر : إن المختار يزعم أنه يوحى إليه . قال : صدق ، وتلا هذه الآية : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ الآية .

وعن أبي زميل قال : كنت قاعداً عند ابن عباس وحج المختار بن أبي عبيد فجاءه رجل فقال : يا ابن عباس ، زعم أبو إسحاق أنه أوحي إليه الليلة . قال ابن عباس : صدق ، فنفر وقلت : يقول ابن عباس صدق . فقال ابن عباس : هما وحيان : وحي الله ووحي الشيطان ، فوحي الله إلى محمد ﷺ ، ووحي الشيطان إلى أوليائه ، ثم قرأ : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ليجادلوكم** ﴾ قال ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : خاصمت اليهود النبي ﷺ فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله : ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق** ﴾ .

وأخرجه ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله الآية .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً وقولوا له فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب يعني الميتة فهو حرام فنزلت هذه الآية : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى**

أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ أي وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش .

وعن عكرمة ، إن مشركي قريش كاتبوا فارس على الروم وكاتبتهم فارس فكتبت فارس إليهم إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله فما ذبح الله بسكين من ذهب فلا يأكلونه وما ذبحوه هم يأكلونه فكتب بذلك المشركون إلى أصحاب رسول الله ﷺ فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل الله : **﴿وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾** ونزلت : **﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾** .

وقوله تعالى : **﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾** أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك كقوله تعالى : **﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله﴾** .

وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ما عبدوهم فقال : « **بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم** » .

والآيات في الجدال المحرم كثيرة وما يجادل بالباطل ليدفعوا به الحق إلاّ المتكبرون والفسقة والكفار والشياطين .. ومن هذه الآيات قوله تعالى : **﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله ..﴾** [الرعد : ١٣] .

﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ..﴾ [غافر : ٣٥] .

﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلاّ كبر ما هم ببالغيه ..﴾ [غافر : ٥٦] .

﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون﴾ [غافر : ٦٩] .

﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾ [الشورى : ٣٥] .

﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلاّ أساطير الأولين﴾ [الأنعام : ٢٥] .

﴿ **يجادلونك في الحق بعد ما تبين ..** ﴾ [الأنفال : ٦] .

﴿ **وقالوا ءَألِهَتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلاّ جدلاّ** ﴾ [الزخرف : ٥٨] .

القسم الثاني

وهو الجدل المباح بل الواجب المباح بل الواجب وذلك كمجادلة الأنبياء للكفار لإثبات الحق وإزهاق الباطل ، قال تعالى حكاية عن قوم نوح : ﴿ **قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثر جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ [هود : ٣٢] .

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه والبلاء موكل بالمنطق ، قالوا يا نوح قد جادلتنا ــ أي حاجحتنا ــ فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك فأتنا بما تعدنا من النقمة والعذاب ، ادع علينا بما شئت فيأتنا ما تدعو به إن كنت من الصادقين ، فأتاهم ما استعجلوا .

ومنها قوله تعالى : ﴿ **فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط** ﴾ [هود : ٧٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن ..** ﴾ [النحل : ١٢٥] .

بعض ما قيل في المراء والجدل :

عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : « **المراء في القرآن كفر** »(١).

وقال عليه الصلاة والسلام : « **اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة** » (٢)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٢٨٦/٢ ، وأبو داود (٤٦٠٣) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد ٢٥٦/٤ و٢٥٨ و٢٥٨ ــ ٢٥٩ و٢٥٩ و٣٧٧ و٣٧٩ ، والبخاري (١٤١٣) و(١٤١٧) و(٣٥٩٠) و(٦٠٢٣) و(٦٥٣٩) و(٦٥٤٠) و(٦٥٦٣) و(٧٤٤٣) و(٧٥١٢) ، ومسلم (١٠١٦) ، والنسائي ٧٤/٥ ــ ٧٥ ، والترمذي (٢٥٢٩) ، وابن ماجه (١٨٥) و(١٤٤٣) ، والدارمي (١٦٦٤) ، والطبراني ١٨٤/١٧ (١٩٥) و(٢٠٧) ــ (٢١٥) و(٢٢٠) ــ (٢٢٥) ، وابن خزيمة (٢٤٢٨) ، والبغوي في « شرح السنة » (١٦٣٨) ، وأبو نعيم ١٢٤/٤ و١٢٩ و١٦٤ و١٦٩ و١٧٠ و١٧١ ، والخطيب ٢٧٩/٧ و٤٢٠ و٤٦٩/١٠ ، وأخرجه أحمد أيضاً ١٣٧/٦ . انظر : « الصحيح المسند في الأمثال والحكم » للمؤلف .

وعن جابر قال : سمعت رسول الله لله يقول : « **إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم** »(١)

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **تعرض الأعمال في كل يوم** اثنين وخميس **فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرىء لا يشرك بالله شيئاً إلا امرؤ كانت بينه وبين أخيه شحناء . فيقول** : اتركوا **هذين حتى يصطلحا** » فيؤجل الله غفران ذنوبهما حتى يصطلحا(٢).

وقال مالك بن أنس : ليس هذا الجدال من الدين في شيء .

وقال أيضا : المراء يقسّي القلوب ويورث الضغائن(٣)

وقال ابن أبي ليلى : لا أماري صاحبي ، فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه(٤)

وقال عمر بن الخطاب : لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث ، لا تتعلمه تماري ، ولا لتباهي ، ولا لترائي . ولا تتركه حياءً من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا رضا بالجهل منه(٥)

---

(١) أخرجه مسلم ١٣٨/٨ ، والترمذي (١٩٣٧) .

(٢) أخرجه الإمام مالك في « الموطأ » ومسلم ١١/٨ — ١٢ .

(٣) انظر : « حياء علوم الدين » ١١٧/٣ .

(٤) انظر : « حياء علوم الدين » ١١٧/٣ .

(٦) انظر : « حيان علوم الدين » ١١٧/٣ .

الهمز واللمز

قال تعالى : ﴿ **ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون** ﴾ [التوبة : ٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلاّ جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ [التوبة : ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾ [الحجرات : ١١] .

وقال تعالى : ﴿ **ويلٌ لكل همزةٍ لمزة** ﴾ [الهمزة : ١] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تطع كل حلافٍ مهينٍ ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتدٍ أثيم ، عُتُلٍّ بعد ذلك زنيمٍ** ﴾ [القلم : ١٠ : ١٣] .

قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ **ومنهم من يلمزك في الصدقات** ﴾ أي : ومن المنافقين من يلمزك ، أي : يعيب عليك في قسم الصدقات إذا فرقتها ويتهمك في ذلك وهم المتهمون المأبونون وهم مع هذا لا ينكرون للدين وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ولهذا إن أعطوا من الزكاة رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ، أي يغضبون لأنفسهم .

قال ابن جرير : أخبرني داود بن أبي عاصم قال : أُتي النبي ﷺ بصدقة فقسمها ههنا وههنا حتى ذهبت ، قال : ووراءه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية .

وقال قتادة في قوله : ﴿ **ومنهم من يلمزك في الصدقات** ﴾ يقول : ومنهم من يطعن عليك في الصدقات ، وذكر لنا أن رجلًا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة فقال : يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت ، فقال نبي الله ﷺ : « **ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي ؟** » ثم قال نبي

الله : « **احذروا هذا وأشباهه فإن في أمتي أشباه هذا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم** » .

وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : « **والذي نفسي بيده ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكم إنما أنا خازن** » .

وهذا الذي ذكره قتادة يشبه ما رواه الشيخان من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له : اعدل فإنك لم تعدل . فقال : « **خبت وخسرت إن لم أكن أعدل** » ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً : « **إنه يخرج من ضئضئي هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء** » وذكر بقية الحديث .

فماذا جنى هذا الرجل من حصاد لسانه إلاّ الخسران المبين .

وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلاّ جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ قال : وهذا أيضاً من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بشيء يسير قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا ، كما روى البخاري عن أبي مسعود قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا مرائي وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغني عن صدقة هذا فنزلت : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين** ﴾ الآية .

وأخرج الإمام أحمد عن أبي السليل قال : وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال : حدثني أبي أو عمي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول : « **من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة** » قال : فحللت من عمامتي لوثاً أو لوثين وأنا أريد أن أتصدق بهما فأدركني ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتي ، فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلًا أشد منه سواداً ولا أصغر منه ولا أذم ببعير ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها ، فقال : يا رسول الله أصدقة ؟ قال : « **نعم** » قال : دونك هذه الناقة ، قال : فلمزه

رجل فقال : هذا يتصدق بهذه فوالله لهي خير منه ، قال : فسمعها رسول الله ﷺ فقال : « **كذبت بل هو خير منك ومنها** » ثلاث مرات ثم قال : « **ويل لأصحاب المئين من الإبل** » ثلاثاً قالوا : إلا من يارسول الله ؟ قال : « **إلا من قال بالمال هكذا وهكذا** » وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ثم قال : « **قد أفلح المزهد المجهد** » ثلاثاً . المزهد في العيش المجهد في العبادة .

وعن ابن عباس في هذه الآية قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام فقال بعض المنافقين والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء ، وقالوا إن الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع .

وقال العوفي عن ابن عباس إن رسول الله خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم فجمع الناس صدقاتهم ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر فقال يا رسول الله هذا صاع من تمر بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات فسخر منه رجال وقالوا إن الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعون بصاعك من شيء ، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ هل بقي أحد من أهل الصدقات ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « **لم يبق غيرك** » فقال له عبد الرحمن بن عوف : فإن عندي مائة أوقية من الذهب في الصدقات . فقال له عمر بن الخطاب أمجنون أنت ؟ قال : ليس بي جنون قال : أفعلت ما فعلت ؟ قال : نعم مالي ثمانية آلاف أما أربعة آلاف فأقرضها ربي وأما أربعة آلاف فلي فقال له رسول الله ﷺ : « **بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت** » ولمزه المنافقون فقالوا : والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء وهم كاذبون إنما كان به متطوعاً فأنزل الله عز وجل عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر فقال تعالى في كتابه : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات** ﴾ الآية .

وهكذا روي عن مجاهد وغير واحد وقال ابن إسحاق : كان من المطوعين من المؤمنين في الصدقات عبد الرحمن بن عوف تصدق بأربعة آلاف درهم وعاصم بن عدي أخو بني العجلان وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقة وحض عليها فقام

عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف وقام عاصم بن عدي وتصدق بمائة وسق من تمر فلمزوهما وقالوا ما هذا إلا رياء وكان الذي تصدق بجهده أبو عقيل أخو بني أنيف الأراشي حليف بني عمرو بن عوف أتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة فتضاحكوا به وقالوا : إن الله لغني عن صاع أبي عقيل .

وأخرج البزار عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً** » قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يارسول الله عندي أربعة آلاف ، ألفين أقرضهما ربي وألفين لعيالي فقال رسول الله ﷺ : « **بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت** » وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر فقال : يا رسول الله أصبت صاعين من تمر صاع أقرضه لربي وصاع لعيالي قال : فلمزه المنافقون وقالوا : ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء وقالوا : ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ فأنزل الله : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم** ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن أبي عقيل عن أبيه قال : بت أجر الجرير على ظهري على صاعين من تمر فانقلبت بأحدهما إلى أهلي يتبلغون به وجئت بالآخر أتقرب إلى رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته فقال : « **انثره في الصدقة** » قال : فسخر القوم وقالوا : لقد كان الله غنياً عن صدقة هذا المسكين ، فأنزل الله : ﴿ **الذين يلمزون المطوعين** ﴾ الآيتين .

وقوله : ﴿ **فيسخرون منهم سخر الله منهم** ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين لأن الجزاء من جنس العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً لأن الجزاء من جنس العمل .

وأما قوله : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ أي لا تلمزوا الناس ، والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى : ﴿ **ويل لكل همزة لمزة** ﴾ والهمز بالفعل واللمز بالقول كما قال تعالى : ﴿ **هماز مشاء بنميم** ﴾ أي يحتقر الناس ويهمزهم طاغياً عليهم ويمشي بينهم بالنميمة وهي اللمز بالمقال ولهذا قال ههنا : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ كما قال : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم** ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً .

وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿**ويل لكل همزة لمزة**﴾ الهماز بالقول واللماز بالفعل يعني يزدري الناس وينتقص بهم وقد تقدم . قال ابن عباس : همزه لمزه طعان معياب .

وقال الربيع بن أنس : الهمزة يهمزه في وجهه واللمزة من خلفه .

وقال قتادة : الهمزة واللمزة لسانه وعينه ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم .

وقال مجاهد : الهمزة باليد والعين ، واللمزة باللسان وهكذا قال ابن زيد .

وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿**ولا تطع كل حلافٍ مهين ، همازٍ مشاءٍ بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم**﴾ قال : وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترىء بها على أسماء الله تعالى واستعمالها في كل وقت في غير محلها قال ابن عباس : المهين الكاذب . وقال مجاهد : هو الضعيف القلب ، وقال الحسن : كل حلاف مكابر مهين ضعيف .

وقوله تعالى : ﴿**هماز**﴾ قال ابن عباس وقتادة يعني الاغتياب . ﴿**مشاء بنميم**﴾ يعني الذي يمشي بين الناس ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين وهي الحالقة وقد ثبت في الصحيحين من حديث مجاهد عن طاوس عن ابن عباس قال : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال : « **إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستتر من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة** » الحديث .

وأخرج الإمام أحمد عن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا يدخل الجنة قتات** » [رواه الجماعة إلاّ ابن ماجه] . يعني : نماماً .

وأخرج الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد بن السكن أن النبي ﷺ قال : « **ألا أخبركم بخياركم ؟** » قالوا بلى يا رسول الله قال : « **الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل** » ثم قال : « **ألا أخبركم بشراركم المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء العنت** » .

وقوله تعالى : ﴿**مناع للخير معتد أثيم**﴾ أي يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿**معتد**﴾ في تناول ما أحل الله له يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿**أثيم**﴾ أي يتناول المحرمات .

وقوله تعالى : ﴿**عتل بعد ذلك زنيم**﴾ أما العتل فهو الفظ الغليظ الصحيح الجموع المنوع .

أخرج الإمام أحمد عن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله ﷺ : « **ألا أنبئكم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أنبئكم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر** » .

وقال وكيع : « **كل جواظ جعظري مستكبر** » [أخرجاه في الصحيحين] .

وأخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار : « **كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع** »

قال أهل اللغة : الجعظري : الفظ الغليظ . والجواظ :الجموع المنوع .

وأخرج الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غنم قال : سئل رسول الله ﷺ عن العتل الزنيم فقال : « **هو الشديد الخلق المصحح الأكول الشروب الواجد للطعام والشراب الظلوم للناس رحيب الجوف** » .

وبهذا الإسناد قال رسول الله ﷺ : « **لا يدخل الجنة الجواظ الجعظري والعتل الزنيم** » .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « **تبكي السماء من عبد أصح الله جسمه ، وأرحب جوفه ، وأعطاه من الدنيا مقضماً فكان للناس ظلوماً قال : فذلك العتل الزنيم** » .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، ونص عليه غير واحد من السلف منهم : مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم أن العتل : هو المصحح الخلق الشديد القوي في المأكل والمشرب والمنكح وغير ذلك .

وأما الزنيم فقال البخاري عن ابن عباس : ﴿**عتل بعد ذلك زنيم**﴾ قال : رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة . ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها ، وإنما الزنيم في لغة العرب هو الدعي في القول قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة ومنه قول الشاعر :

زنيم ليس يعرف من أبوه بغي الأم ذو حسب لئيم

وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ زنيم ﴾ قال الدعي الفاحش اللئيم ، ثم قال ابن عباس :

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع

وقال العوفي عن ابن عباس : الزنيم : الدعي ، ويقال الزنيم رجل كانت به زنمة يعرف بها . ويقال هو الأخنس بن شريف الثقفي حليف بني زهرة وزعم أناس من بني زهرة أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهري وليس به .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس : أنه زعم أن الزنيم الملحق النسب .

وقال ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب أنه سمعه يقول في هذه الآية : ﴿ **عتل بعد ذلك زنيم** ﴾ قال سعيد : هو الملصق بالقوم ليس منهم .

وقال ابن أبي حاتم عن عامر بن قدامة قال : سئل عكرمة عن الزنيم قال : هو ولد الزنا .

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة في هذه الآية قال : يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء والزنماء من الشياه التي في عنقها هنتان معلقتان في حلقها .

وعن سعيد بن جبير قال : الزنيم الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها والزنيم الملصق . [رواه ابن جرير] .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال في الزنيم : نعت فلم يعرف حتى قيل زنيم . وقال : وكانت له زنمة في عنقه يعرف بها . قال : وقال آخرون : كان دعيا .

وعن أصحاب التفسير قالوا : هو الذي تكون له زنمة مثل زنمة الشاة .

وقال الضحاك : كانت له زنمة في أصل أذنه ، ويقال : هو اللئيم الملصق في النسب .

وعن ابن عباس : هو المريب الذي يعرف بالشر .

وقال مجاهد : الزنيم يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة .

وقال أبو رزين : الزنيم علامة الكفر .

وقال عكرمة : الزنيم الذي يعرف باللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها .

والأقوال في هذا كثيرة وترجع إلى ما قلناه وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر الذي يعرف به من بين الناس وغالباً يكون دعيا ولد زنافإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه ما لا يتسلط على غيره كما جاء في الحديث : « **لا يدخل الجنة ولد زنا** » وفي الحديث الآخر : « **ولد الزنا شر الثلاثة إذا عمل بعمل أبويه** » .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إن العبد يكتب مؤمناً أحقاباً ثم أحقاباً ثم يموت والله عليه ساخط ، وإن العبد يكتب كافراً أحقاباً ثم أحقاباً ثم يموت والله عليه راض ، ومن مات همازاً لمازاً ملقباً للناس كانت علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم من كلا الشفتين** » .

التناجي بالإثم والعدوان

قال تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين نُهُوا عن النجوى ثم يعودون لما نهو عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وإذا جاءُوك حَيَّوْكَ بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ، يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون ، إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [المجادلة : ٨ — ٩ — ١٠] .

قال مقاتل بن حيان : كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى فأنزل الله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال : كنا نتناوب رسول الله ﷺ نبيت عنده يطرقه من الليل أمر وتبدو له حاجة فلما كانت ذات ليلة كثر أهل النوب والمحتسبون حتى كنا أندية نتحدث فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « ما هذه النجوى ؟ ألم تنهوا عن النجوى ؟ » قلنا تبنا إلى الله يا رسول الله إنا كنا في ذكر المسيح فرقاً منه فقال : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي منه ؟ » قلنا بلى يا رسول الله قال : « الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل » .

وقوله تعالى : ﴿ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول﴾ أي يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم ﴿والعدوان﴾ وهو ما يتعلق بغيرهم ومنه معصية الرسول ومخالفته يصرن عليها ويتواصون بها . وقوله تعالى : ﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله﴾ .

قال ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا السام عليك يا أبا القاسم فقالت عائشة : وعليكم السام قالت : فقال رسول الله ﷺ : « **يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش** » قلت : ألا تسمعهم يقولون السام عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **أو ما سمعت أقول : وعليكم** » فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾

وفي رواية في الصحيح أنها قالت لهم : عليك السام والذام واللعنة وأن رسول الله ﷺ قال : « **إنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا** » .

وأخرج ابن جرير عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه إذ أتى عليهم يهودي فسلم عليهم فردوا عليه فقال نبي الله ﷺ : « **هل تدرون ما قال ؟** » قالو : سلم يا رسول الله قال : « **بل قال سام عليكم** » أي تسامون دينكم قال رسول الله ﷺ : « **ردوه** » فردوه عليه فقال نبي الله : « **أقلت سام عليكم** » قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : « **إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا عليك** » أي عليك ما قلت

وقوله تعالى : ﴿ **ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول** ﴾ أي يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام وإنما هو شتم في الباطن ومع هذا يقولون في أنفسهم لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن لأن الله يعلم ما نسره فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا فقال الله تعالى : ﴿ **حسبهم جهنم** ﴾ أي جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿ **يصلونها فبئس المصير** ﴾ .

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عمر أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سام عليكم ثم يقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ؟ فنزلت هذه الآية : ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير** ﴾ [إسناد حسن ولم يخرجوه] .

وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾ قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ ، إذا حيوه : سام عليك قال الله تعالى : ﴿ **حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير** ﴾ ثم قال الله تعالى مؤدباً عباده المؤمنين أن لا

يكونوا مثل الكفرة والمنافقين ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول**﴾ أي كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿**وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون**﴾ أي فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي أحصاها عليكم وسيجزيكم بها .

قال الإمام أحمد عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك قال فاني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطي كتاب حسناته وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين** » [أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة] .

ثم قال تعالى : ﴿**إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلاّ بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ أي إنما النجوى وهي المسارَّة حيث يتوهم مؤمن بها سوء ﴿**من الشيطان ليحزن الذين آمنوا**﴾ يعني إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿**ليحزن الذين آمنوا**﴾ أي ليسوءهم وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله .

وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن كما قال الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه** » وأخرج مسلم : « **إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه فإن ذلك يحزنه** » .

الريـــاء

قال تعالى : ﴿ يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلاّ قليلا ﴾ [النساء : ١٤٢] وقال تعالى : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون ﴾ [الماعون ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧] .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد في سبيل الله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جريء ، وقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال هو عالم ، وقرأت ليقال هو قارىء ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار »(١).

وقال ﷺ : « من سمع سمع الله به ، ومن يرائي يراءى به »(٢).

قال الخطابي : معناه من عمل عملًا على غير إخلاص إنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه جوزي على ذلك بانه يشهره ويفضحه ، فيبدو عليه ما كان يبطنه ويسره مع ذلك ، والله أعلم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اليسر من الرياء شرك »(٣) .

---

(١) أخرجه مسلم .
(٢) متفق عليه وأحمد والطبراني في « الكبير » والبيهقي في « الشعب » .
(٣) أخرجه الحاكم والطبراني .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، فقيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله يوم يجازي العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءونهم بأعمالكم فانظروا هل تجدون عندهم جزاء** »(١).

وقيل في قول الله تعالى : ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾ [الزمر : ٤٧] . قيل : كانوا عملوا أعمالاً كانوا يرونها في الدنيا حسنات بدت لهم يوم القيامة سيئات .

وقيل : إن المرائي ينادى به يوم القيامة بأربعة أسماء : يا مرائي ، يا غادر ، يا فاجر ، يا خاسر ، اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا(٢).

وقال الحسن : المرائي يريد أن يغلب قدر الله فيه هو رجل سوء ، يريد أن يقول الناس هو صالح ، فكفي يقولون وقد حل من ربه محل الرياء ؟ فلابد من قلوب المؤمنين أن تعرفه .

وقال قتادة : إذا راءى العبد يقول الله : انظروا إلى عبدي كيف يستهزىء بي .

وروي أن عمر بن الخطاب نظر إلى رجل وهو يطأطىء رقبته فقال : يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ، ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب .

وقيل إن أبا أمامة الباهلي أتى على رجل في المسجد وهو ساجد يبكي في سجوده ويدعو ، فقال له أبو أمامة : أنت أنت لو كان هذا في بيتك .

وقال علي بن أبي طالب : للمرائي ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده ، وينشط إذا كان في الناس ، ويزيد في العمل إذا أثني عليه ، وينقص إذا ذم به .

وقال الفضيل بن عياض : ترك العمل لأجل الناس رياء ، والعمل لأجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما . فنسأل الله المعونة والإخلاص في الأعمال والأقوال والحركات والسكنات إنه جواد كريم .

---

(١) أخرجه أحمد والبيهقي في « الشعب » والطبراني .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا .

ذو الوجهين

عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذو الوجهين ، الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ ، وهؤلاء بوجه** »(١).

من أكثر الناس شراً ، وأعظمهم ضرراً ، وأكبرهم ذنباً ، وأبعدهم من الله تعالى يوم القيامة ، المنافق : ذلك الذي يأتي الرجل فيتلطف له ويظهر له المودة والمحبة ، ويكيل القدح والذم لأعدائه ، حتى يبوح له بما في نفسه ، ويعرف خباياه ، ثم يذهب إلى عدوّه فيتودّد إليه ، ويتقرّب منه ، ويُظهر البغضَ لأعدائه والولاءَ له ، ثم ينقل إليه ما سمعه من المساوىء ، وعرَفَه من المقابح ، ليسمع منه ما سمع من عدوّه ، وبعد أن يملأ جعبته يذهب إلى الأول ، وينشر أمامه أراد ما في كنانته ، فيكون محضاء لنار الشر بينهما ، فتستحكم العداوة ويزداد النفور(٢).

فيجب على المسلم ترك النفاق والملق .

---

(١) أخرجه الإمام مالك ، والإمام أحمد ، والبخاري ٢١/٨ ومسلم (٢٥٢٦) ، وأبو داود ، والترمذي (٢٠٢٦) وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) انظر : « الدين الإسلامي » ١٩٦/١ و٣٢٣/٢

المنـــان

قال تعالى : ﴿ **الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مَنًّا ولا أذىً لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىً والله غنيٌّ حليم ، يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاءَ الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيءٍ مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ [البقرة : ٢٦٢ — ٢٦٤] .

قال ابن كثير(١): يمدح الله تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منا على من أعطوه فلا يمنون به على أحد ولا يمنون به لا بقول ولا فعل .

ثم قال تعالى : ﴿ **قول معروف ومغفرة** ﴾ أي : من كلمة طيبة ودعاء لمسلم وعفو وغفر عن ظلم قولي أو فعلي ﴿ **خير من صدقة يتبعها أذى** ﴾ .

وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المن في الصدقة ففي صحيح مسلم من حديث أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « **ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى ، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب** » .

وأخرج ابن مردويه عن أبي الدّرداء عن النبي ﷺ قال : « **لا يدخل الجنة عاق ولا منان ولا مدمن خمر ولا مكذب بقدر** »(٢).

وأخرج ابن مردويه وابن حبان والحاكم في « مستدركه » والنسائي من حديث عبد

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » ٣١٧/١ .
(٢) وأخرج أحمد وابن ماجه نحوه .

الله بن يسار الأعرج عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، ومدمن الخمر ، والمنان بما أعطى** » .

وأخرج النسائي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « **لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا عاق لوالديه ولا منان** » .

وأخرج الترمذي عن ابن عمر مرفوعاً : « **لا يدخل الجنة خب ولا بخيل ولا منان** » .

قال في « الترغيب » والخِب : هو الخداع الخبيث .

وقال الذهبي في « الكبائر » الخِب : هو المكر والخديعة .

قال : والمنان هو الذي يعطي شيئاً أو يتصدق به ثم يمن به ، وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : « **إياكم والمن بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر** » ثم تلا رسول الله ﷺ قول الله عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى** ﴾ » .

وسمع ابن سيرين رجلًا يقول لآخر : أحسنت إليك وفعلت وفعلت . فقال له ابن سيرين : اسكت فلا خير في المعروف إذا أحصي .

وكان بعضهم يقول : من مَنَّ بمعروفه سقط من شكره ، ومن أعجب بعمله حبط أجره .

أخبر تعالى أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المنّ والأذى فما بقى ثواب الصدقة بخطيئة المنّ والأذى ثم قال تعالى : ﴿ **كالذى ينفق ماله رئاء الناس** ﴾ أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس أو يقال إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ولهذا قال : ﴿ **ولا يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه قال الضحاك : والذي يتبع نفقته منا أو أذى فقال : ﴿ **فمثله كمثل صفوان** ﴾ أي الصخر الأملس ﴿ **عليه تراب فأصابه وابل** ﴾ وهو المطر الشديد

﴿ فتركه صلدًا ﴾ أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً أي أملس يابساً أي لا شيء عليه من ذلك التراب بل قد ذهب كله أي وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب ولهذا قال : **﴿ لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾** .

والمن لا يقتصر على الإنفاق فقط بل يتعداه إلى أمور كثيرة منها قوله تعالى : **﴿ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾** [الحجرات : ١٧] .

قال ابن كثير : يعني الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ يقول الله تعالى رداً عليهم : **﴿ قل لا تمنوا عليّ إسلامكم ﴾** فإن نَفْعَ ذلك إنما يعود عليكم ولله المنة عليكم فيه **﴿ بل الله يمنّ عليكم أنْ هداكم للإيمان إنْ كنتم صادقين ﴾** أي في دعواكم ذلك .

أخرج البزار عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك فقال رسول الله ﷺ : « **إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم** » ونزلت هذه الآية : **﴿ يمنون عيلك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾** .

قال الشافعي رحمه الله :

لا تحملن لمن يمن ... من الأنام عليك منه
واختر لنفسك حظها ... واصبر فإن الصبر جنه
منن الرجال على القلوب ... أشد من وقع الأسنة

وقال بعض الأعراب لرجل : إن فلانا يزعم أنه كساك . فقال : إن المعروف إذا من به كَفِر، وإذا ضاق قلبه اتسع لسانه .

وقال البلغاء : لا خير في المعروف إذا أحصى .

فيما يرخص من الحسد

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا حسد إلا في اثنتين : رجل أتاه الله تبارك وتعالى القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل ، وآناء النهار ، ورجل أتاه الله تبارك وتعالى مالًا ، فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار** »(١).

وعن عبد الله بن مسعود قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا حسد إلاّ في اثنتين : رجلٌ آتاه الله تعالى مالًا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله تبارك وتعالى حكمةً فهو يقضي بها ويعلمها** »(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٣٦/٢ و٨٨ و١٥٢ ، والبخاري (٥٠٢٥) و(٧٠٢٩) ، ومسلم (٨١٥) ، والترمذي (٢٠٠١) ، وابن ماجه (٤٢٠٩) ، وابن حبان ١٦٧/١ ــ ١٦٨ والطبراني في « الكبير » (١٣١٦٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ٢٢٧/١ و٣١١ ، وأبو داود (٣٩٠٥) ، وابن ماجه (٣٧٢٦) ، والخرائطي في مساويء الأخلاق » (٧٧٢) بإسناد حسن .

الدعاء بالويل والثبور عند المصيبة

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية** »(١).

وعن أبي موسى الأشعري ، أن رسول الله ﷺ : « **برئ من الصالقة والحالقة والشاقة** »(٢).

الصالقة : التي ترفع صوتها بالنياحة .

والحالقة : التي تحلق شعرها وتنتفه عند المصيبة .

والشاقة : التي تشق ثيابها عند المصيبة .

وكل هذا حرام باتفاق العلماء ، وكذلك يحرم نشر الشعر ولطم الخدود وخمش الوجه ، والدعاء بالويل والثبور .

وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من ميت يموت ، فيقوم باكيهم فيقول : واجبلاه ، واسنداه ، أو نحو هذا ، إلاّ وكل به ملكان يلهزانه : أهكذا كنت ؟** »(٣).

وعن أبي بردة قال : وجع أبو موسى الأشعري فغشي عليه رأسه في حجر امرأة من أهله فأقبلت تصيح برنّة ، فلم يستطع أن يرد عليها ، فلما أفاق قال : أنا بريء مما برئ منه رسول الله ﷺ ، إن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة والحالقة والشاقة(٤).

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٠٣) وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٦٦٤) وذكره في « صحيح الترغيب والترهيب » . وأخرجه أيضاً ابن ماجه .

(٤) أخرجه البخاري والنسائي وابن ماجه .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : **« اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في الأنساب والنياحة على الميت »**(١).

وعن أبي سعيد الخدري قال : **« لعن رسول الله ﷺ النائحة والمستمعة »**(٢).

وعن أم عطية قالت : أخذ علينا رسول الله ﷺ في البيعة أن لا ننوح(٣).

وعن أنس بن مالك أن عمر لما طُعِن أعولت عليه حفصة ، فقال لها عمر : يا حفصة أما سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« إن المُعْوَلَ عليه يُعذب ؟ »** فقالت : بلى(٤).

وذكر لعائشة أن عبد الله يقول : إن الميت ليعذب ببكاء الحي قالت : يغفر الله لأبي عبد الرحمن ، أما أنه لم يكذب ، ولكنه نَسِيَ أو أخطأ ، إنما مر رسول الله ﷺ على يهودية يُبكى عليها ، فقال : **« إنهم يبكون عليها وإنها لتعذَّبُ في قبرها »**(٥).

وعن ابن أبي مُلَيكة ، قال : حضرتُ جنازة أبان بن عثمان ، فجاء ابن عمر ، فجلس ، وجاء ابن عباس ، فجلس ، فقال ابن عمر : ألا تنهى هؤلاء عن البكاء ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه »** فقال ابن عباس مُجيباً له : قد كان عمر يقول بعض ذلك ، خرجنا مع عمر حتى إذا كنا بالبيداء إذا راكب في ظل شجرة ، فقال : يا عبد الله بن عباس ، انظر الراكب ، فجئت فإذا صهيب معه أهلُه ، فقال لي : ادعُ لي صُهيباً ، فصحبه حتى دخل المدينة ، فأُصيبَ

(١) أخرجه مسلم .
(٢) أخرجه أبو داود .
(٣) أخرجه البخاري .
(٤) أخرجه الطيالسي ص ٤ و٨ و١٠ ، وأحمد ٢٦/١ و٣٦ و٣٩ و٤٥ و٤٧ و٥٠ و٥١ و٥٤ ، وعبد الرزاق (٦٦٨٠) و(٦٦٩٢) ، وابن أبي شيبة ٣٨٩/٣ و٣٩١ ، والبخاري (١٢٩٠) و(١٢٩٢) ، ومسلم (٩٢٧) ، والترمذي (١٠٠٢) ، والنسائي ١٦/٤ — ١٧ ، وابن ماجه (١٥٩٣) ، والبيهقي في « السنن » ٧١/٤ و٧٢ ، وفي « اثبات عذاب القبر » (١٣١) و(١٣٢) ، وابن حبان (٣٢٣٢) .
(٥) أخرجه مالك ٢٣٤/١ ، وأحمد ١٠٧/٦ ، والبخاري (١٢٨٩) ، ومسلم (٩٣٢) ، والترمذي (١٠٠٦) ، والنسائي ١٧/٤ — ١٨ ، وابن ماجه (١٥٩٥) ، والبيهقي في « السنن » ٧٢/٤ ، وفي « عذاب القبر » (٨٨) .

عمرُ ، فقال : واأخاه ، واصاحباه فقال عمر : يا صهيب لا تبكي ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يعذب الميت ببكاء أهله عليه** » فذكر ذلك لعائشة ، فقالت : والله ما تحدثون عن كذابين ولا مُكذبين ، وإنّ لكم في القرآن ما يكفيكم عن ذلك : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ ولكن رسول الله ﷺ قال : « **إن الله يزيد الكافر ببكاء أهله عليه** »(١).

وعن النعمان بن بشير قال : أغمي على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته تعدد عليه فتقول : واكذا واكذا ، فقال حين أفاق : ما قلت شيئاً إلاّ قيل لي أنت كذا أنت كذا(٢).

وقال ﷺ : « **النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب** »(٣).

وقال ﷺ : « **إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة ولهو ولعب ومزامير شيطان ، وصوت عن مصيبة خمش في وجوه وشق في جيوب ورنة شيطان** »(٤).

وقال الحسن : صوتان ملعونان مزمار عند نغمة ورنة عند مصيبة .

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إن هذه النوائح يجعلن صفين في النار فينبحن في أهل النار كما تنبح الكلاب** »(١).

وعن الأوزاعي : أن عمر بن الخطاب سمع صوت بكاء فدخل ومعه غيره ، فمال عليهن ضرباً حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها ، وقال : اضرب فإنها نائحة

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦٦٧٥) ، والشافعي في « المسند » ٥٥٨/١ ، والبخاري (١٢٨٦) و(١٢٨٧) و(١٢٨٨) ، ومسلم (٩٢٧) و(٩٢٨) و(٩٢٩) ، والنسائي ١٨/٤ ـــ ١٩ ، والبيهقي ٧٣/٤ ، وابن حبان (٣١٣٦) ، والبغوي (١٥٣٧) .
(٢) أخرجه البخاري .
(٣) أخرجه مسلم وابن ماجه من حديث أبي مالك الأشعري .
(٤) انظر : « الكبائر » ص ١٨٤ .
(٥) أخرجه الطبراني في « الأوسط » .

ولا حرمة لها ، إنها لا تبكي بشجوكم إنها تهرق دموعها لأخذ دراهمكم ، وإنها تؤذي موتاكم في قبورهم ، وأحياكم في دورهم لأنها تنهي عن الصبر وقد أمر الله به ، وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه(١)

قال الشيخ علي محفوظ(٢): روى مسلم عن ابن عمر مرفوعاً : « **إن الميت ليعذب ببكاء الحي عليه** » ورواه البخاري بلفظ : « **إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه** » وروى البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من نيح عليه فإنه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة** » .

وأخذ يعدد بالأحاديث إلى أن ذكر حديث عمر : « **إن الميت ليعذب ببعض بكاء أهله عليه** » قال : ويدل أيضاً أنه ليس المراد مطلق البكاء . ففي منصف ابن أبي شيبة من حديث عائشة قالت : « **حضر رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر سعد بن معاذ فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر وإني لفى حجرتي** » .

وجه الاستدلال بهذا الحديث : تقرير النبي ﷺ على البكاء وعدم إنكاره عليهما ، فإن قيل : المكلف لا يعذب بفعل غيره ، نقول : ذهب أكثر العلماء إلى تأويل هذه الأحاديث لمخالفتها للعمومات القرآنية .

ويمكن أن يكون المعنى التعذيب تألم الميت بما يقع من أهله من النياحة وغيرها ، فإنه يرق لهم وذلك أن الأرواح تتألم من المؤلمات وتفرح باللذات في البرزخ كما كانت في الدنيا .

ومنها وهو أحسن الوجوه : أن معنى التعذيب توبيخ الملائكة للميت بما يندب به أهله أو النائحة : كواعضداه ، وواناصراه ، وواكاسياه ، فحينئذ يتوجه السؤال إلى هذا الميت على لسان بعض الملائكة فيقال له : أنت كما يقال ، كنت كاسياً ومطعماً وناصراً إلى غير ذلك .. والغرض من هذا السؤال توبيخ النائحين وتكذيبهم بأن من نسبتم له هذه الخصال يتبرأ منها ولا يسعه في هذا الموطن إلا هذه البراءة وإلا نزل به الويل الشديد .

---

(١) انظر : « الزواجر » .
(٢) « الإبداع في مضار الابتداع » ٢٢٤/٢ .

ويؤيده ما رواه الإمام أحمد : « **الميت يعذب ببكاء الحي إذا قالت النائحة واعضداه واناصراه واكاسياه جلد الميت وقال : أنت عضدها أنت ناصرها أنت كاسيها** » .

قال الشيخ الألباني(١): أما إذا وصى في حياته بعدم النوح فلا يعذب بذلك والله أعلم .

قال الذهبي(٢): واعلم أن النياحة رفع صوت بالندب ، تعديد النائحة بصوتها محاسن الميت ، وقيل : هو البكاء عليه مع ذكر محاسنه .

قال العلماء : ويحرم رفع الصوت بإفراط البكاء ، وأما البكاء على الميت من غير ندب ولا نياحة فليس بحرام لما روينا في صحيح البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ عاد سعد بن عبادة ومعه عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم ، فبكى رسول الله ﷺ ، فلما رأى القوم بكاء رسول الله ﷺ بكوا ، فقال : « **ألا تسمعون إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا أو يرحم** » وأشار إلى لسانه .

وروينا في صحيح البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ قال : « **يا ابن عوف : إنها رحمة** » ثم أتبعها بأخرى فقال : « **إن العين لتدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلاّ ما يرضي ربنا وانا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون** ».

وأما الأحاديث الصحيحة : إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه فليست على ظاهرها وإطلاقها بل هي مؤولة ، واختلاف العلماء في تأويلها على أقوال : أظهرها والله أعلم أنها محمولة على أن يكون له سبب في البكاء إما أن يكون قد أوصاهم به أو غير ذلك .

---

(١) « أحكام الجنائز » ص ٢٨ ــ ٢٩ .

(٢) « الكبائر » ص ١٨٤ .

وقد سبق رد عائشة رضي الله عنها على حديث ابن عمر وفي الباب أحاديث كثيرة منها : حاجب بن عمر عن بكر بن عبد الله المزني أنه اشتكى قال : فأتيته أنا والحكم نعوده فتذاكرنا الميت يُعَذب ببكاء أهله عليه ، فقال بكر بن عبد الله : قال أبو هريرة لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ : أينطلق رجل غازياً في سبيل الله فيقتل في قُطر من أقطار الأرض شهيداً فتبكيه امرأة سفيهة جاهلة ، فيعذّب ببكائها عليه ؟ فقال الرجلُ لأبي هريرة : صدق رسول الله ﷺ وأبطل أبو هريرة(١).

وإنما كان للنائحة هذا العذاب واللعنة لأنها تأمر بالجزع وتنهى عن الصبر ، والله ورسوله قد أمر بالصبر والاحتساب ، ونهيا عن الجزع والسخط . قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

قال عطاء عن ابن عباس : يقول : إني معكم أنصركم ولا أخذلكم قال الله تعالى : ﴿ ولنبلونكم ﴾ أي لنعاملنكم معاملة المبتلي لأن الله يعلم عاقبة الأمور فلا يحتاج إلى الابتلاء ليعلم العاقبة ولكنه يعاملهم معاملة من يبتلي ، فمن صبر أثابه على صبره ومن لم يصبر لم يستحق الثواب ، وقول الله : ﴿ بشيء من الخوف والجوع ﴾ قال ابن عباس : يعني خوف العدو ، والجوع يعني المجاعة والقحط ، ﴿ ونقص من الأموال ﴾ يعني الخسران والنقصان في المال وهلاك المواشي ، ﴿ والأنفس ﴾ بالموت والقتل والمرض والشيب ، ﴿ والثمرات ﴾ يعني الحوائج ، وأن لا تخرج الثمرة كما كانت تخرج ، ثم ختم الآية بتبشير الصابرين ليدل على أن من صبر على هذه المصائب كان على وعد الثواب من الله تعالى فقال تعالى : ﴿ وبشر الصابرين ﴾ ، ثم نعتهم فقال : ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة ﴾ أي نالتهم نكبة مما ذكر ، ولا يقال فيما أصيب بخير مصيبة ﴿ قالوا إنا لله ﴾ عبيد الله فيصنع بنا ما يشاء ﴿ وإنا إليه راجعون ﴾ بالهلاك وبالفناء ، ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى انفراده بالحكم ، إذ قد ملك في الدنيا قوماً الحكم ، فإذا زال حكم العباد رجع الأمر إلى الله عز وجل .

(١) لابن أبي عمر ، قال البوصيري في « زوائد المسانيد » رواه مسدد ورجاله ثقات .

عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « **ما من مصيبة يصاب بها المؤمن إلاّ كفَّر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها** »(١).

وعن علقمة بن مرثد بن سابط عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من أصيب بمصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها أعظم المصائب** »(٢).

وقال رسول الله ﷺ : « **إذا مات ولد العبد يقول الله للملائكة قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : حَمَدَكَ واسترجَعَ . فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد** »(٣).

وعن رسول الله ﷺ قال : « **يقول الله تعالى : ما لعبدي عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسب إلاّ الجنة** »(٤).

وقال عليه الصلاة والسلام : « **من سعادة بني آدم رضاه بما قضى الله ، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله تعالى** » .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : إذا قبض ملك الموت عليه السلام روح المؤمن قام على الباب ولأهل البيت ضجة ، فمنهم الصاكة وجهها ، ومنهم الناشرة شعرها ، ومنهم الداعية بويلها . فيقول ملك الموت عليه السلام : مم هذا الجزعَ ، ومم هذا الفزع ؟ فوالله ما انتقصت لأحد منكم عمراً ، ولا ذهبت لأحد منكم برزق ، ولا ظلمت لأحد منكم شيئاً ، فإن كانت شكايتكم وسخطكم عليّ فإني والله مأمور ، وإن كان على ميتكم فإنه مقهور ، وإن كان على ربكم فأنتم به كافرون ، وإنّ لي بكم عودة بعد عودة حتى لا أُبقي منكم أحداً .

قال رسول الله ﷺ : « **والذي نفسي بيده لو يرون مكانه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم** » .

---

(١) أخرجه مسلم .
(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » .
(٣) أخرجه ابن حبان ، والترمذي وقال : حسن غريب .
(٤) أخرجه البخاري .

قال سعيد بن جبير : لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة ما لم تعط الأنبياء قبلهم ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ ، ولو أعطيته الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأعطيه يعقوب عليه السلام إذ يقول : ﴿يا أسفي على يوسف﴾ .

وعن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من قال عند المصيبة : ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلاّ آجره الله وأخلف له خيراً منها** » قالت : فلما توفي أبو سلمة قالت : قلتها فأخلفني الله ورسوله ﷺ(١).

وعن الشعبي أن شريحاً قال : إني لأصاب المصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات : أحمده إذ لم يكن أعظم منها ، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها ، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب ، وأحمده إذ لم يجعلها في دين .

وأما إذا سخط صاحب المصيبة ودعا بالويل والثبور ، أو لطم خداً ، أو شق جيباً ، أو نشر شعراً أو حلقة أو قطعة أو نتفه فله السخط من الله تعالى وعليه اللعنة رجلًا كان أو امرأة .

وقد روي أيضاً أن الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر ، وقد روي أن من أصابته مصيبة فخرق عليها ثوباً أو لطم خداً أو شق جيباً أو نتف شعراً فكأنما رمحاً يريد أن يحارب به . وقد تقدم أن الله عز وجل لا يعذب ببكاء العين ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا يعني ما يقوله صاحب المصيبة بلسانه ، يعني من الندب والنياحة . وقد تقدم أن الميت يعذب في قبره بما نيح عليه إذا قالت النائحة : واعضداه ، واناصراه ، واكاسياه ، حبذ الميت وقيل له أنت عضدها ؟ أنت ناصرها ؟ أنت كاسيها ؟ فالنواح حرام لأنه مهيج للحزن ودافع عن الصبر ، وفيه مخالفة التسليم للقضاء ، والإذعان لأمر الله تعالى .

---

(١) أخرجه مسلم .

إفشاء السر

قال عليه الصلاة والسلام : « **المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس . مجلس يسفك فيه دم حرام ، ومجلس يستحل فيه فرج حرام ، مجلس يستحل فيه مال من غير حق** »(١).

وقال عليه الصلاة والسلام : « **إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة** »(٢).

وعن عبد الله بن عمر أن عمر حين تأيمت بنته حفصة قال : لقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة فقلت : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر ؟ قال : سأنظر في أمري ، فلبثت ليالي ، ثم لقيني فقال : قد بدا لي لا أتزوج يومي هذا . فلقيت أبا بكر الصديق فقلت : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر ، فصمت أبو بكر فلم يرجع إليّ شيئاً فكنت عليه أوجد مني على عثمان ، فلبثت ليالي ثم خطبها النبي ﷺ فأنكحتُها إياه ، فلقيني أبو بكر فقال : لعلك وجدت علي ــ أي غضبت ــ حين عرضت عليّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً ؟ فقلت : نعم . قال : فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ ، إلا أني كنت علمتُ أن النبي ﷺ ذكرها ، فلم أكن لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ ولو تركها النبي ﷺ لقبلتها(٣).

وعن أنس قال : أتى عليَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان ، فسلم علينا ، فبعثني في حاجته ، فأبطأت على أمي ، فلما جئت قالت : ما حبسك ؟ فقلت : بعثني رسول الله ﷺ لحاجة ، قالت : ما حاجته ؟ قلت : إنها سر ؟ قال : لا تخبرنَّ بسرِّ رسول الله ﷺ أحداً . قال أنس : والله لو حدثت به أحداً لحدثتك به يا ثابت(٤).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٣/٣٤٢ ــ ٣٤٣ .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٦٨) ، والترمذي (١٩٥٩) وقال : حديث حسن .

(٣) أخرجه البخاري .

(٤) أخرجه البخاري ٨/٨٠ ، ومسلم ٧/١٢ ــ ١٣ ، والترمذي (٢٨٢٥) وابن ماجه (٣٧٧٥) والدارمي ٢/٢٨٢ ، ومالك ٢/٩٨٨ وأحمد ١/٤٦٢ .

أما إفشاء السر فخيانة كبيرة :

عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « **آية المنافق ثلاث : إذا حَدَّث كَذَبَ ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان** »(١).

وعن أبي بكر ، عن رسول الله ﷺ قال : « **آيات المنافق إذا حدث كذبَ وإذا ائتمن خان وإذا وعد أخلف** »(٢).

وعن ابن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « **أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر** »(٣).

وعن أنس ، عن رسول الله ﷺ قال : « **ثلاث من كنَّ فيه فهو منافق وإن صام وصلى وحج واعتمر وقال إني مسلم من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان** »(٤).

حاطب بن أبي بلتعة يفشوا سر المسلمين :

أخرج محمد بن إسحاق(٥) عن عروة بن الزبير وغيره قالوا : لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم ثم أعطاه امرأة ـــ قال محمد بن جعفر إنها من مزينة وقال غيره إنها سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب ـــ وجعل لها جعلًا على أن تبلغه قريشاً فجعلته في رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به ، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام فقال : « **أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد**

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي .
(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » انظر : « كنز العمال » برقم (٨٤٣) .
(٣) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي .
(٤) أخرجه رُسته في « الإيمان » وأبو الشيخ في « التوبيخ » .
(٥) « البداية والنهاية » ٤/٢٨٣ ـــ ٢٨٤ .

أجمعنا له من أمرهم» فخرجا حتى أدركاها بالحليفة حليفة بني أحمد فأنزلاها فالتمساه في رحلها فلم يجدا فيه شيئاً ، فقال لها علي : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك ، فلما رأت الجد منه قالت : أعرض فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه . فأتى به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ حاطباً ، فقال : «**يا حاطب ما حملك على هذا ؟**» فقال : يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ولا بدلت ولكنني كنت امرءاً ليسَ لي في القوم من أصل ولا عشيرة وكان لي بين أظهرهم ولد أهل فصانعتهم عليه . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق ؟ فقال رسول الله ﷺ : «**وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» .

وأنزل الله في حاطب : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة**﴾ [الممتحنة : ١] .

وأخرج البخاري عن علي بن أبي طالب قال : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد وقال : «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ضغينة معها كتابٌ فخذوه منها فذهبنا تعادىَ بنا خيلُنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب فقالت : ما معي من كتابٍ ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناسٍ من المشركين ممن بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : «ما هذا يا حاطب ؟»**» قال : لا تعجل عَلَيَّ يا رسول الله ، إني كنت امرأً من الأنصار ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني من النسب فيهم ، أن أصطنع إليهم يداً يحمون قرابتي ، وما فعلتُ ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن ديني ، فقال النبيُ ﷺ : «**إنه قد صدقكم**» فقال عمر : دعني يا رسول الله ، فأضرب عنقه ، فقال : «**إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدرٍ فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٨٠/١ و٢٩٦/٢ ، والبخاري ٥١٤/٨ ، ومسلم ١٦٥/٧ ـــ ١٦٦ ، والترمذي (٣٣٠٥) ، وأبو داود (٢٦٥٠) ، والدارمي في « الرقائق » .

ومع هذا الحرص الشديد على كتمان حركة المسلمين وعدم معرفتهم فإن رسول الله ﷺ بث عيونه وأرصاده ودورياته لتحول دون تسرب المعلومات عن حركته إلى قريش .

لقد تحرك المسلمون دون أن يعرف بخبرهم أحد ، جيش مؤلف من كل القبائل من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة دون أن تعرف قريش ودون أن يعرف حلفاؤها حتى يصل المسلمون الفاتحون إلى ضواحي مكة فيفلت الأمر من قريش وحلفائها ولا يجدون أمامهم غير الاستسلام .

وفي غزوة الخندق علم النبي ﷺ أن بني قريظة من يهود قد نكثوا عهدهم الذي كان بينهم وبين المسلمين ، وذلك بعد تطويق المدينة المنورة من عشرة آلاف مقاتل من قريش وغطفان وأشجع وسلم وبني أسد ، وكان موقف المسلمين محرجاً ، وكان عدد مقاتليهم ثلاثة آلاف مقاتل بعد أن نكثت بنو قريظة ، فبعث النبي ﷺ رجلًا من المسلمين إلى بني قريظة ليتأكد من انضمام بني قريظة إلى الأحزاب ، وأمره أن يلحن بالقول حين يعود إليه ولا يفصح في حالة نكث بني قريظة ، خوفاً على معنويات المسلمين من الانهيار ، وحتى يستكمل المسلمون إعداد الخندق وإكمال استعداداتهم العسكرية قبل أن ينتشر خبر بني قريظة بينهم .

وحين أكمل المسلمون ما أرادوه إعداداً وعدداً أخبرهم النبي ﷺ بما كان من أمر قريظة ليضعهم عند مسؤولياتهم الكاملة دفاعاً عن الإسلام .

ولو أن النبي ﷺ سمح بإذاعة نبأ نكث بني قريظة عهدها قبل أن يعد المسلمون كل متطلبات القتال لانهارت معنويات المسلمين لأن الخطر أصبح يهددهم من داخل المدينة المنورة ومن خارجها .

ثم جاء نعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني إلى النبي ﷺ معلناً إسلامه وأخبره أنه أسلم ولا يعلم قومه بإسلامه فقال النبي ﷺ : « **إنما أنت رجل واحد ، فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة** » وكتم النبي ﷺ إسلام نعيم ، فلم يعرف قومه ولا بنو قريظة عن إسلامه شيئاً .

وخرج نعيم حتى أتى بني قريظة ، وكان نديماً لهم في الجاهلية ، فقال لهم : عرفتم ودي إياكم ، وقد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد ، وليسوا كأنتم ، البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون أن تتحولوا منه وإن قريشاً وغطفان إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلو بينكم وبين محمد ، ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم حتى تناجزوا محمداً .

قال بنو قريظة : أشرت بالنصح ، ولست عندنا بمتهم . ثم خرج نعيم إلى قريش فقال لهم : بلغني أن قريظة ندموا وقد أرسلوا إلى محمد : هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالًا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم ؟ فأجابهم : أن نعم . فإن طلبت قريظة منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا لهم رجلًا واحداً .

وجاء نعيم غطفان فقال لهم : أنتم أهلي وعشيرتي ، وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم .

وأرسل أبو سفيان بن حرب وسادة غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان في ليلة سبت وطلبوا منهم الاستعداد للهجوم على المسلمين نهار السبت ، ولكن قريظة اعتذروا بأنهم لا يقاتلون يوم السبت ، ثم طلبت قريظة رهائن من قريش وغطفان قبل أن تشرع بأي هجوم .

قالت قريش وغطفان : لقد صدق نعيم . ولما رفض طلب قريظة بإعطائها رهائن من قريش وغطفان قالوا : لقد صدق نعيم . وتفرقت الأحزاب وزالت الثقة بينهم(١)...

قال تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ، واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأنّ الله عندهُ أجرٌ عظيم﴾** [الأنفال : ٢٧ — ٢٨] .

قال ابن كثير : قال عبد الرزاق بن أبي قتادة والزهري : أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ

(١) « سيرة ابن هشام » .

فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك وأشار بيده إلى حلقه ، أي إنه الذبح ، ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه خان الله ورسوله فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد حتى أنزل الله توبته على رسوله فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه وأرادوا أن يحلوه من السارية فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده فحله ، فقال : يا رسول الله إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة فقال : « **يجزيك الثلث أن تصدق به** » .

وأخرج ابن جرير عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ : « **إن أبا سفيان في موضع كذا وكذا فأخرجوا إليه واكتموا** » فكتب رجل من المنافقين إليه إن محمداً يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله عز وجل : ﴿ **لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم** ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

قا ابن كثير : والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء . والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية .

وقوله : ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ أي اختبار وامتحان منه لكم إذا أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه ...

وعن عامر بن مسروق قال : حدثتني عائشة أم المؤمنين قالت : إنا كنا أزواج النبي ﷺ عنده جميعاً لم تغادر منا واحدة فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تمشي ولا والله ما تخفي مشيتها من مشية رسول الله ﷺ فلما رآها رحب بها قال : « **مرحباً بابنتي ثم أجلسها عن يمينه ــ أو عن شماله ــ ثم سارّها فبكت بكاءً شديداً ، فلما رأى حزنها سارّها الثانية ، فإذا هي تضحك . فقلت لها : خصك رسول الله ﷺ بالسر من بيننا ثم أنت تبكين ، فلما قام رسول الله سألتها عما سارّك ؟ قالت : ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره ، فلما توفي قلت لها : عزمت عليك بما لي عليك من حق لما أخبرتني**

قالت : أما الآن فنعم ، فأخبرتني قالت : أما حين سارني في الأمر الأول فإنه أخبرني أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة ، وأنه قد عارضني به العام مرتين ، ولا أرى الأجل إلا وقد اقترب ، فاتقي الله واصبري ، فإني نعم السلف أنا لك . قالت : فبكيت بكائي الذي رأيت . فلما رأى جزعي سارني الثانية قال : « يافاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ؟ »(١) .

قال الحافظ(١): وفيه أنه لا ينبغي إفشاء السر إذا كانت فيه مضرة على المسر ، لأن فاطمة لو أخبرتهنّ لحزنّ لذلك حزناً شديداً .

أما حديث أنس والذي يقول فيه : أسرّ إليّ النبي ﷺ سرّاً فما أخبرت به أحداً بعده ولقد سألتني أم سليم فما أخبرتها به .

قال بعض العلماء : كأن هذا السر كان يختص بنساء النبي ﷺ وإلا فلو كان من العلم ما وسع أنسا كتمانه .

وقال ابن بطال : الذي عليه أهل العلم أن السر لا يباح به إذا كان على صاحبه منه مضرة .

قال النووي في حديث حاطب : وفيه هتك أستاد الجواسيس بقراءة كتبهم سواء أكان رجلًا أو امرأة وفيه هتكة ستر الفسدة إذا كان فيه مصلحة أو كان في الستر مفسدة وإنما يندب الستر إذا لم يكن فيه مفسدة ولا يفوت به مصلحة وعلى هذا تحمل الأحاديث الواردة في الندب إلى الستر ، وفيه أن الجاسوس وغيره من أصحاب الذنوب الكبائر لا يكفرون بذلك ، وهذا الجنس كبيرة قطعاً ، لأنه يتضمن إيذاء النبي ﷺ وهو كبيرة بلا شك لقوله تعالى : ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله** ﴾ [الأحزاب : ٥٧] .

وفيه أن لا يحد العاصي ولا يعذر إلاّ بإذن الإمام وفيه إشارة جلساء الإمام والحاكم بما يرونه كما أشار عمر بضرب عنق حاطب . ومذهب الشافعي وطائفة أن الجاسوس المسلم يعزر ولا يجوز قتله وقال بعض المالكية : يقتل إلاّ أن يتوب . وقال بعضهم : يقتل وإن تاب . وقال مالك : يجتهد فيه الإمام .

(١) أخرجه البخاري ٩٧/٨ ، ومسلم ١٤٢/٧ ــ ١٤٣ .

ناشر السر لا يعافى

عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين ، وإنَّ من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملًا ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف سر الله**» [متفق عليه] .

قذف المحصنات

قال تعالى : ﴿**إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمناتِ لعنُوا في الدنيا والآخرة ولهم عذابٌ عظيمٌ ، يوم تشهدُ عليهم ألسنتهم وأيدهم وأرجُلُهُم بما كانوا يعملون ، يومئذٍ يوفيهمُ الله دينَهُمُ الحقَّ ويعلمونَ أن اللهَ هو الحقُّ المبين**﴾ [النور : ٢٣ — ٢٥] .

قال ابن كثير(١): هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات خرج مخرج الغالب فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ولاسيما التي كانت سبب النزول وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما . وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية فإنه كافر لأنه معاند للقرآن ، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهي والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿**لعنوا في الدنيا والآخرة**﴾ الآية كقوله : ﴿**إن الذين يؤذون الله ورسوله**﴾ الآية . وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضي الله عنها ، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : نزلت في عائشة خاصة ، وكذا قال سعيد بن

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » ٢٧٦/٣ .

جبير ، ومقاتل بن حيان ، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة قالت : رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغني بعد ذلك ، قالت : فبينا رسول الله ﷺ جالس عندي إذ أوحي إليه ، قالت : وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات وإنه أوحي إليه وهو جالس عندي ثم استوى جالساً يمسح على وجهه وقال : « **يا عائشة أبشري** » قالت : فقلت بحمد الله لا بحمدك فقرأ : ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ...** ﴾ الآيات .

هكذا أورده وليس فيه أن الحكم خاص بها وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها وإن كان الحكم يعمها كغيرها ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله والله أعلم .

وقال الضحاك وأبو الجوزاء وسلمة بن نشيط : المراد بها أزواج النبي خاصة دون غيرهن من النساء .

وقال العوفي عن ابن عباس في الآية : يعني أزواج النبي ﷺ رماهن أهل النفاق فأوجب الله لهم اللعنة والغضب وباءوا بسخط من الله فكان ذلك في أزواج النبي ﷺ ثم نزل بعد ذلك : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ــ إلى قوله ــ فإن الله غفور رحيم** ﴾ فأنزل الله الجلد والتوبة فالتوبة تقبل والشهادة ترد .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : فسر سورة النور فلما أتى على هذه الآية ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات** ﴾ الآية . قال في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ وهي مبهمة وليست لهم توبة ثم قرأ : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ــ إلى قوله ــ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا** ﴾ الآية . قال : فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة قال فهمّ بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور ، فقوله وهي مبهمة أي عامة في تحريم قذف كل محصنة ولعنته في الدنيا والآخرة وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هذا في عائشة ومن صنع مثل هذا أيضاً اليوم في المسلمات فله ما قال الله تعالى ولكن عائشة كانت أماً في ذلك . وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح ويعضد العموم ما رواه بن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **اجتنبوا السبع الموبقات** » ، قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « **الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا**

بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات(١).

وقوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال إنهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً .

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « **إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد ويخاصم فيقال هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقول أهلك وعيشرتك فيقول كذبوا فيقال احلفوا فيحلفون ثم يصمهم الله فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ثم يدخلون النار** » .

وأخرج ابن أبي حاتم أيضاً عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : « **أتدرون مم أضحك ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : « من مجادلة العبد لربه يقول يارب ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول بلى ، فيقول لا أجيز علي إلا شاهداً من نفسي فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام عليك شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى فتنطق بعمله ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل** » [وقد رواه مسلم والنسائي أيضاً عن أنس به] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٢٠١/٢ ، والبخاري (٦٦٧٥) و(٦٨٧٠) و(٦٩٢٠) ، والترمذي (٣٠٢٤) ، والنسائي ٨٩/٧ ، و٦٣/٨ ، والبغوي في « شرح السنة » (٤٤) .

نشر أسرار الوقاع بين الزوجين

ويحرم على كل من الزوجين أن ينشر الأسرار المتعلقة بالوقاع ، فعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة لرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها** »(١).

وعن أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله ﷺ والرجال والنساء قعود فقال : « **لعل رجلًا يقول ما يفعل بأهله ، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها ؟** » فأَرَمَّ القوم ـــ أي سكتوا ولم يجيبوا ـــ فقلت : إي والله يا رسول الله إنهن ليفعلن ، وإنهم ليفعلون . قال : « **فلا تفعلوا ، فإنما ذلك مثل الشيطان لقي شيطانة في طريق فغشيها والناس ينظرون** »(٢).

تأمل قوله عليه السلام : « **فإنما ذلك مثل الشيطان لقي شيطانة ..** » وهذا وصف لمن ؟ إنه لمن يخبر عما يحصل من وقاع واستمتاع مع زوجته ، فما ظنك لو سمعت أسرار الوقاع والاستمتاع مع غير الأزواج ومع ذلك يتبجحون ويتفاخرون بالفحش والفسق والعصيان وأدهى من ذلك أن ترى بعينك ما تعرضه الأفلام مما تطيب به النفوس المريضة ، وتستمتع به القلوب الخاوية من الإيمان ، تعرض التكشف والعري والفجور ، تعرض الفتنة والضلال والإغواء . وإن فاتت الأفلام سواء كانت بالسينما أو الفيديو فلا تفوت المجلات وغيرها إضافة إلى الصور العارية المنتشرة هنا وهناك وبيان لوقائع النكاح بشكل تقشعر منه الأبدان ، وهم يجهلون حكم اقتناء الصور سواء كانت لمن يعظمون أو لمن يعشقون ، نقول لهؤلاء جميعاً : إن هذه خواطر وخيالات فالخاطر كالمار على الطريق فإن لم تستدعه وتتركه مر وانصرف عنك ، وإن استدعيته سحرك وخدعك وغررك ،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١/٦٧/٧ ، ومن طريقه مسلم ١٥٧/٤ ، وأحمد ٦٩/٣ ، وأبو نعيم ٢٣٦/١٠ و٢٣٦ ـــ ٢٣٧ ، وابن السني رقم (٦٠٨) والبيهقي ١٩٣/٧ ـــ ١٩٤ انظر : « آداب الزفاف » ص ٦١ ـــ ٦٢ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

وهو أخف شيء على النفس الفارغة الباطلة ، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة ، وقد ركب الله سبحانه في الإنسان نفسين : نفساً أمارة ، ونفساً مطمئنة ، وهما متعاديتان ، فكل ما خف على هذه ثقل على هذه ، وكل ما التذت به هذه تألمت به الأخرى ، فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها ، وليس لها أنفع منه ، وكذا ليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وإجابة داعي الهوى وليس عليها شيء أضر منه ، والملك مع هذه عن يمين القلب والشيطان مع تلك عن ميسرة القلب والحروب مستمرة لا تضع أوزارها الا أن تستوفي أجلها من الدنيا ، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والنفس الأمارة ، والحق كله يتحيز مع الملك والنفس المطمئنة والحروب دول وسجال ، والنصر مع الصبر ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العاقبة في الدنيا والآخرة . وقد حكم الله تعالى حكماً لا يبدل أبداً أن العاقبة للتقوى والعاقبة للمتقين .

فالقلب لوح فارغ والخواطر نقوش تنقش فيه ، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور وخدع وأماني باطلة وسراب لا حقيقة له ؟ فأي حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش ؟

وإذا أراد أن ينقش ذلك في لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع في محل مشغول بكتابة ما لا منفعة فيه ، فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم تستقر فيه الخواطر النافعة هذا بالنسبة للصور والخيالات سواء كانت خيالات مرئية كالتلفاز وغيره أو خيالات عابرة .

والتحدث عن هذه الحالات فيها تهيج للأعصاب وكأن كل من يسمع الرجل وهو يحدث ماذا فعل بزوجته يتخيل وكأنه هو الذي يفعل بها وذلك بإطلاقه خاليه حسب وصف هذا الشيطان وهذا التشبيه بوصفه « شيطان » هو الذي يناسبه فقد حذر رسول الله ﷺ عن إفشاء سر الزوجين لبعضهما وقال : « **فإنما ذلك مثل الشيطان لقي شيطانة في طريق فغشيها والناس ينظرون** » .

الشعر والمدح المذمومان

عن عائشة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إن أعظمَ الناس عند الله فرية لرجلٌ هاجى رجلًا فهجَا القبيلةَ بأسرها ، ورجلٌ انتفى من أبيه ، وزنَّى أمه** »(1).

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **لأن يمتلىءَ جوفُ رجلٍ قيحاً حتى يريه خيرٌ له من أن يمتلىء شعراً** »(2).

وعن المقداد بن الأسود ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب** »(3).

وعن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « **لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبده فقولوا : عبدُ الله ورسوله** »(5).

---

(١) عن ابن ماجهع (٣٧٦١) بإسناد صحيح ورجاله ثقات . وابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . انظر : « الكنز » برقم (٧٩٥٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة ، وأحمد ومسلم وابن ماجه عن سعد ، والطبراني في « الكبير » عن سلمان وعن ابن عمر .

(٣) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » ومسلم والإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن المقداد بن الأسود . وأخرجه البيهقي في « الشعب » عن ابن عمرو ، وأخرجه الحاكم في « الكنى » عن أنس .

(٤) أخرجه البخاري ٤/٢٠٤ .

الشعر المحمـــود

عن ابن عمرو ، عن رسول الله ﷺ قال : « **الشعر بمنزلة الكلامِ ، فحسنُه كحسن الكلام ، وقبيحُه كقبيح الكلام** »(١).

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **أشعر كلمةٍ تكلمت بها العرب كلمة لبيدٍ : ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطل** » .

وفي رواية : « **أصدق كلمةٍ قالها الشاعرُ كلمةُ لبيد ..** » وذكره(٢).

وعن ابن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إن من البيان لسحراً** »(٣).

وعن بريدة مرفوعاً : « **إن من البيان سحراً ، وإن من العلم جهلًا ، وإن من الشعر حكماً ، وإن من القول عيالًا** »(٤).

وعن الأسود بن سريع ، عن رسول الله ﷺ قال : « **أما ما أثنيت به على الله فهاتِه ، وأما ما مدحتني فيه فدعه** »(٥).

وفي رواية : أما إن ربكَ يحبُّ المدحَ(٦).

وعن أبي ، رسول الله ﷺ قال : « **إن من الشعر حكمةً** »(٧)

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » والبخاري في « الأدب المفرد » عن ابن عمرو . وأخرجه أبو يعلي في « مسلم » عن عائشة .

(٢) أخرجه مسلم والترمذي .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه .

(٤) أخرجه أبو داود عن بريدة ، وأخرجه أحمد وابن ماجه مختصراً عن ابن عباس .

(٥) أخرجه الطبراني في « الكبير » والحاكم .

(٦) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري في « الأدب المفرد » والنسائي ، والحاكم .

(٧) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه عن أبي . وأخرجه الترمذي عن ابن مسعود . وأخرجه الطبراني في « الكبير » وابن ماجه عن عمرو بن عوف وعن أبي بكرة ، وأخرجه أبو نعيم في « الحلية عن أبي هريرة . وأخرجه الخطيب عن عائشة وعن حسان بن ثابت . وأخرجه ابن عساكر عن عمر .

وعن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ : إن الله أنزلَ في الشعر ما أنزلَ . فقال رسول الله ﷺ : « **إن المؤمن من يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأنما ترمونهم به نضحُ النبل** »(١)

وعن أنس ، أن عمر قال لابن رواحة : بين يدي رسول الله ﷺ وفي حَرم الله تقول الشعر ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : « **خل عنه يا عُمر فلهي أسرعُ فيهم من نضْح النبل** »(٢).

وفي رواية : « **خل عنه يا عمر ، فوالذي نفسي بيه لكلامُه أشدُّ عليهم من وقع النبل** »(٣)

وعن حسان بن ثابت ، أن رسول الله ﷺ قال له : « **يا حسانُ أهجُ المشركين وجبريلُ معك ، إذا حارَبَ أصحابي بالسلاح فحارب أنت باللسان** »(٤).

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري في « تاريخه » وأبو يعلي في « مسنده » والطبراني في « الكبير » والبيهقي في « السنن » وابن عساكر .
(٢) أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح غريب وابن ماجه .
(٣) أخرجه أبو يعلي في « مسنده » .
(٤) أخرجه الخطيب في « تاريخه » وابن عساكر .

ضرر مدح الإنسان نفسه

دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك ، فقال له : من أنت ؟ وتجهم له كأنه لا يعرفه . فقال له الفرزدق : وما تعرفني يا أمير المؤمنين ؟ قال لا . قال الفرزدق : أنا من قوم منهم أوفى العرب ، وأسود العرب ، وأجود العرب ، وأحلم العرب ، وأفرس العرب ، وأشعر العرب .

قال أمير المؤمنين : والله لتبينن ما قلت أولأوجعن ظهرك ، ولأهدمن دارك !

قال نعم يا أمير المؤمنين : أما أوفى العرب فحاجب بن زرارة الذي رهن قوسه عن جميع العرب فوفى بها . وأما أسود العرب فقيس بن عاصم الذي وفد على رسول الله ﷺ فبسط له رداءه وقال : هذا سيد الوبر ، وأما أحلم العرب فعتاب بن ورقاء الرياحي . وأما أفرس العرب فالحريش بن عبد الله السعدي . وأما أشعر العرب فها أنا ذا بين يديك يا أمير المؤمنين !

فكدر الخليفة ما سمع من فخره ، وقال له ارجع على عقبيك فما لك عندنا شيء من خير .

التألي على الله

عند جندب البجلي ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إن رجلًا قال : والله لا يغفر الله لفلان ، قال الله : من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان ؟ فإني قد غفرت لفلان ، وأحبطت عملك** »(١).

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « **إذا سمعت الرجلَ يقول : هلك الناس فهو أهلكهم** »(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١) .

(٢) أخرجه الإمام مالك ، وأحمد ، ومسلم ، والبخاري في « تاريخه » وأبو داود

موالاة الكفار في السر والعلن

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، فترى الذي في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرةٌ فعسى الله أن يأتِيَ بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين** ﴾ [المائدة : ٥١ — ٥٢] .

قال ابن كثير : ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى الذين هم أعداء الإسلام وأهله قاتلهم الله ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال : ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ **فترى الذين في قلوبهم مرض** ﴾ أي شك وريب ونفاق يسارعون فيهم أن يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، أي يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك . عند ذلك قال الله تعالى : ﴿ **فعسى الله أن يأتي بالفتح** ﴾ قال السدي : يعني فتح مكة . وقال غيره يعني القضاء والفصل ﴿ **أو أمر من عنده** ﴾ قال السدي : يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى ﴿ **فيصبحوا** ﴾ أي الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿ **على ما أسروا في أنفسهم** ﴾ من الموالاة نادمين أي على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئاً ولا دفع عنهم محذوراً بل كان عين المفسدة فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين لا يدري كيف حالهم فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ويحلفون على ذلك ويتأولون فبان كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال تعالى : ﴿ **ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين** ﴾ .

ذكر السدي أنها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أُحد : أمّا أنا فإني ذاهب إلى ذلك اليهودي فآوي إليه وأتهوّد معه لعله ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث ، وقال الآخر : أما أنا فإني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام فآوي إليه وأتنصر معه ، فأنزل الله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ...** ﴾ الآيات .

وقال عكرمة : نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه ماذا هو صانع بنا فأشار بيده إلى حلقه أي الذبح . [رواه ابن جرير] .

وقيل نزلت في عبد الله بن أبي سلول كما قال ابن جرير عن عطية ابن سعد قال : جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله فقال عبد الله بن أُبي : إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالى فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أُبي : « **يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية يهدو على عبادة بن الصامت فهو لك دونه** » قال : قد قبلت فأنزل الله عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ الآيتين .

ثم قال ابن جرير عن الزهري قال : لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر فقال مالك بن الصيف : أغركم إن أصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال أما لو أسررنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يد أن تقاتلونا فقال عبادة بن الصامت : يا رسول الله إن أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم . كثيراً سلاحهم ، شديدة شوكتهم ، وإني أبرأ إلى الله ورسوله لا أبرأ من ولاية يهود إني رجل لابد لي منهم فقال رسول الله ﷺ : « **يا أبا الحباب أرأيت الذي نفست به من ولاية يهود على عبادة ابن الصامت فهو لك دونه** » فقال إذاً أقبل ، قال : فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ـــ إلى قوله تعالى ـــ **والله يعصمك من الناس** ﴾ .

القصـــاص

عن خباب مرفوعاً : « **إن بني إسرائيل لمَّا هلكوا قصُّوا** »(١).

افتراء الكاهن والمنجم وتصديقهم

قال تعالى : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول** ﴾ [الجن : ٢٦] .

قال ابن الجوزي : عالم الغيب هو الله عز وجل وحده لا شريك له في ملكه فلا يظهر : أي فلا يطلع على غيبه الذي لا يعلمه أحد من الناس إلاّ من ارتضى من رسول ، لأن الدليل على صدق الرسل إخبارهم بالغيب . والمعنى : أن من ارتضاه للرسالة أطلعه على ما شاء من الغيب ففي هذا دليل على أن من زعم أن النجوم تدل على الغيب فهو كافر والله أعلم .

قال رسول الله ﷺ : « **من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ** »(٢).

وروينا في الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح في أثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس بوجهه فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب » .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » والضياء انظر « صحيح الجامع » (٢٠٤١) .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة ، ورواه الحاكم وقال : صحيح على شرطهما ، وله شاهد من حديث جابر عند البزار .

وقال ﷺ : « من أتى عرافاً فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً »(١)

وعن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الملائكة تنزل في العنان ــ وهو السحاب ــ فتذكر الأمر قضي في السماء ، فيسترق الشيطان السمع فيسمعه فيوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم »(٢)

أشر الكبر من يتكبر على العباد بعلمه

والكبر والفخر والخيلاء والعجب والتيه من الكبائر ، قال تعالى : ﴿وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ [غافر : ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يتبختر في مشيه إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »(٣)

وقال عليه الصلاة والسلام : « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤهم الناس يغشاهم الذل من كل مكان »(٤).

وعن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال ذرة من كبر »(٥).

وقال تعالى : ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾ [لقمان : ١٨] .

وقال ﷺ : « قال الله تعالى : العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيها ألقيته في النار »(٦).

(١) أخرجه مسلم من حديث صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي ﷺ .
(٢) أخرجه البخاري .
(٣) أخرجه البخاري والنسائي .
(٤) أخرجه النسائي والترمذي .
(٥) أخرجه مسلم .
(٦) أخرجه مسلم .

وفي حديث الرسول ﷺ في اختصام الجنة والنار : « ... **وقالت النار أوثرت بالجبارين والمتكبرين** »[1] الحديث .

وقال الله تعالى : ﴿ **ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور** ﴾ [لقمان : ١٨] . أي لا تمل خدك معرضاً متكبراً . والمرح التبختر .

وقال سلمة بن الأكوع : أكل رجل عند رسول الله ﷺ بشماله قال : « **كل بيمينك** » قال : لا أستطيع ، قال : « **لا استطعت** » ما منعه إلاّ الكبر فما رفعها إلى فيه بعد[2].

وقال عليه الصلاة والسلام : « **ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر** »[3]

العتل : الغليظ الجافي . والجواظ : الجموع المنوع ، وقيل الضخم المختال في مشيه ، وقيل : البطين .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما من رجل يختال في مشيته ويتعاظم في نفسه إلا لقي الله وهو عليه غضبان** »[4]

وصح من حديث أبي هريرة : أول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط أي ظالم ، وغني لا يؤدي الزكاة ، وفقير فخور[5].

وفي صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ قال : « **ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المسبل ، والمنان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب** » والمسبل هو الذي يسبل إزاره أو ثيابه أو سراويله حتى يكون إلى قدميه لأنه

(١) أخرجه مسلم .
(٢) أخرجه مسلم .
(٣) أخرجه البخاري ومسلم .
(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » ورواته محتج بهم في « الصحيح » والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .
(٥) أخرجه ابن خزيمة وابن حبان في « صحيحيهما » .

ﷺ قال : « **ما أسبل من الكعبين من الإزار فهو في النار** »(١)

وأشر الكبر الذي **فيه** من يتكبر على العباد بعلمه ويتعاظم في نفسه **بفضيلته فإن** هذا لم ينفعه علمه فإن من طلب العلم للآخرة كسره علمه وخشع قلبه واستكانت نفسه ، وكان على نفسه بالمرصاد فلا يفتر عنها بل يحاسبها كل وقت ويتفقدها ، فإن غفل عنها جمحت عن الطريق المستقيم وأهلكته . ومن طلب العلم للفخر والرياسة وبطر على المسلمين وتحامق عليهم وأرادهم ، فهذا من أكبر الكبر ، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم .

الاستطالة على الضعيف والمملوك والجارية

قال رسول الله ﷺ : « **لا يدخل الجنة سيء الملكة** »(٢).

وفي الحديث : « **حسن الملكة يمن وسوء الملكة شؤم** » .

وكان رسول الله ﷺ عند خروجه من الدنيا في آخر مرضه يوصي بالصلاة ، وبالاحسان إلى المملوك ، ويقول : « **الله الله الصلاة وما ملكت أيمانكم** »(٣)

وفي « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال : « **من قذف مملوكه وهو بريء مما قاله جلد يوم القيامة حداً إلا أن يكون كما قال** »(٤).

وفي الحديث : « **للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف ما لا يطيق** »(٥).

قال بعض السلف : لا تضرب المملوك في كل ذنب ولكن احفظ له ذلك ، فإذا عصى الله فاضربه على معصية الله وذكره الذنوب التي بينك وبينه..

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .
(٢) أخرجه أحمد وأبو داود .
(٣) أخرجه أبو داود وابن ماجه عن علي بن أبي طالب .
(٤) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .
(٥) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

البغـــي

قال عليه الصلاة والسلام : « **إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد** »(١).

وفي الأثر : لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكاً .

وقال ﷺ : « **ما من ذنب أجدر أن يجعل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم** »(٢).

وقد خسف الله بقارون الأرض حين بغى على قومه ، فقد أخبر الله تعالى عنه بقوله : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم** ــ إلى قوله ــ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ [القصص : ٧٦ : ٨٠] . الآية .

قال ابن جريج : وأكثر أهل العلم على أن قارون ابن عم موسى عليه السلام ، وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي لكثرة ماله ، قال له قومه : ﴿ **لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين** ﴾ أي وعظه فيما هو فيه صالحوا قومه فقالوا على سبيل النصح والإرشاد : لا تفرح بما أنت فيه ــ يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿ **إن الله لا يحب الفرحين** ﴾ قال مجاهد : يعني الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم .

﴿ **وابتغ فيما ءاتاك الله الدار والآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ فعوضاً عن أن يبتغ في ماله وجه الله أخذ يبذر ماله في الإفساد في الأرض . قال ابن الجوزي في بغي قارون أنه جعل للبغية جعلًا على أن تقذف موسى عليه السلام بنفسها ففعلت ،

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه من حديث عياض بن حمّار .

(٢) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح ، وابن ماجه والحاكم وقال : صحيح الإسناد من حديث أبي بكر .

فاستحلفها موسى على ما قالت فأخبرته بقصتها مع قارون ، وكان هذا بغيه ، قاله ابن عباس .

قوله : ﴿**فخسفنا به وبداره الأرض**﴾ الآية ، لما أمر قارون البغية بقذف موسى على ما سبق شرحه غضب موسى فدعا عليه . قال مقاتل : فلما هلك قارون قال بنو إسرائيل إنما أهلكه موسى ليأخذ ماله وداره فخسف الله بماله وداره .

الظــلم

والظلم أنواع :

النوع الأول : ظلم الإنسان نفسه بتعديه حدود الله سبحانه وتعالى .. إما بالكفر وإما بالمخالفة بالتعدي على الشرع ..

قال تعالى : ﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً ..** ﴾ [البقرة : ٢٣١] .

إن الذي يمسك المطلقة ضراراً واعتداء يظلم نفسه فهي أخته من نفسه فإذا ظلمها فقد ظلم نفسه وهو يظلم نفسه بإيرادها موارد المعصية ، والجموح بها عن طريق الطاعة .

وقال تعالى : ﴿ **قال أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا** ﴾ [الكهف : ٨٧] .

أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوي وعقابه ، وأنهم بعد ذلك يردون إلى ربهم فيعذبهم عذاباً فظيعاً لا نظير له فيما يعرفه البشر ، أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن والمعاملة الطيبة ، والتكريم والمعونة والتيسير .

وهذا هو دستور الحكم الصالح ، فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم . والمتعدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء .. وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسناً ، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً ، ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة .. عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح

والإنتاج ، أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة ، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون ، فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد ، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد .

وقال تعالى : ﴿ **يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً** ﴾ [الطلاق : ١] .

فالحارس لهذا الحكم هو الله ، فأي مؤمن إذن يتعرض لحد يحرسه الله ؟ إنه الهلاك والبوار والذي يتعداه فقد ظلم نفسه .. ظلم نفسه لتعريضها هكذا لبأس الله القائم على حدوده يحرسها ويرعاها ، وظلم نفسه بظلم زوجه ..

وقال تعالى : ﴿ **وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** ﴾ [البقرة : ٥١] .

يذكرهم بانحدارهم إلى عبادة العجل بمجرد غيبة نبيهم الذي أنقذهم باسم الله ، من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب ويصف حقيقة موقفهم في هذه العبادة .. ومن أظلم ممن يترك عبادة الله ووصية نبيه ليعبد عجلاً جسداً ، وقد أنقذه الله ممن كانوا يقدسون العجول !

وقال تعالى : ﴿ **فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون** ﴾ [الأعراف : ١٦٢] .

لقد عفا الله عنهم بعد اتخاذهم العجل ، وعفا عنهم بعد الرجفة على الجبل ، ولقد أنعم عليهم بكل تلك النعم .. ثم هاهم أولاء تلتوي بهم طبيعتهم عن استقامة الطريق ، هاهم أولاء يعصون الأمر ، ويبدلون القول ، هاهم أولاء يؤمرون بدخول قرية بعينها وتباح لهم خيراتها جميعاً ، على أن يقولوا دعاء بعينه وهم يدخلونها ، وعلى أن يدخلوا بابها سجداً ، إعلاناً للخضوع لله في ساعة النصر والاستعلاء وفي مقابل طاعة الأمر

يعدهم الله أن يغفر لهم خطيئاتهم وأن يزيد للمحسنين في حسناتهم .. فإذا فريق منهم يبدلون صيغة الدعاء التي أمروا بها ، ويبدلون الهيئة التي كلفوا أن يدخلوا عليها .. لماذا ؟ تلبية للانحراف الذي يلوي نفوسهم عن الاستقامة ..

﴿ فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم ﴾

عندئذ يرسل الله عليهم من السماء عذاباً .. السماء التي تنزل عليهم منها المن والسلوى وظللهم فيها الغمام !

﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾

وهكذا كان ظلم فريق منهم — أي كفرهم — ظلماً لأنفسهم بما أصابهم من عذاب الله ..

وأعظم أنواع الظلم الشرك . قال تعالى : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : ١٣] .

والآيات في هذا الباب كثيرة...

النوع الثاني : أكل أموال الناس وأخذها ظلماً ، وقد يكون بالضرب والشتم والغش والتعدي والاستطالة على الضعفاء ..

قال تعالى : ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ﴾ [الشورى : ٤٢] .

وقال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾ [إبراهيم : ٤٢ — ٤٣] .

وقال تعالى : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

قال ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيامة » .[1]

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥٦٦٢) و(٥٨٣٢) و(٦٢٠٦) ، والبخاري (٢٤٤٧) ، ومسلم (٢٥٧٨) و(٢٥٧٩) والبخاري في « الأدب المفرد » (٤٧٥) و(٤٨٣) . عن ابن عمر مرفوعاً .

وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته** » ثم قرأ : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ..** ﴾(١) الآية .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيءٌ فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهم ، إن كان له عملٌ صالحٌ أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسناتٌ أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه** »(٢).

قال ابن مسعود : لا تكونوا إِمَّعَةً تقولون : إن أحسن الناس أحسنّا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤوا فلا تظلموا(٣).

ولما بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن قال : « **إياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب** »(٤).

وقال ﷺ عن ربه تبارك وتعالى إنه قال : « **يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا** »(٥)

وعن عبد الله بن أنيس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلًا بهما فيناديهم مناد بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، أنا الملك الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة أو أحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة أن أقصه حتى اللطمة فما فوقها ولا يظلم ربك أحداً** » قلنا : يا رسول الله كيف وإنما نأتي حفاة عراة ، فقال : « **بالحسنات والسيئات جزاء ولا يظلم ربك أحداً** »(٦)

---

(١) متفق عليه .
(٢) أخره البخاري .
(٣) انظر : « مشكاة المصابيح » (٥١٢٩) قال : وقد صح عن ابن مسعود موقوفاً .
(٤) أخرجه البخاري .
(٥) أخرجه الإمام مسلم والترمذي من حديث أبي ذر الطويل .
(٦) أخرجه الإمام أحمد بإسناد حسن كما قال المنذري ، وعزاه ابن القيم في « الصواعق » إلى أبي يعلى ، والبخاري في « الأدب المفرد » والضياء في « المختارة » والطبراني .

قال الذهبي[1]: يا راضياً باسم الظالم كم عليك من المظالم ، السجن جهنم والحق الحاكم ، ولا حجة لك فما تخاصم ، القبر مهول فتذكر حبسك ، والحساب طويل فخلص نفسك ، والعمر كيوم فبادر شمسك ، تفرح بمالك والكسب خبيث ، وتمرح بآمالك والسير حثيث . إن الظلم لا يترك منه قدر أنملة ، فإذا رأيت ظالماً قد سطا فنم له ، فربما بات فأخذت جنبه من الليل نملة ــ أي قروح في الجسد ..

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : « **من ضرب سوطاً ظلماً اقتص منه يوم القيامة** »[2].

ومما ذكر أن كسرى اتخذ مؤدباً لولده يعلمه ويؤدبه حتى إذا بلغ الولد الغاية في الفضل والأدب استحضره المؤدب يوماً وضربه ضرباً شديداً من غير جرم ولا سبب ، فحقد الولد على المعلم إلى أن كبر ومات أبوه فتولى الملك بعده فاستحضر المعلم وقال له : ما حملك على أن ضربتني في يوم كذا وكذا ضرباً وجيعاً من غير جرم ولا سبب ، فقال المعلم : اعلم أيها الملك أنك لما بلغت الغاية في الفضل والأدب علمت أنك تنال الملك بعد أبيك ، فأردت أن أذيقك ألم الضرب وألم الظلم حتى لا تظلم أحداً ، فقال : جزاك الله خيراً ثم أمر له بجائزة وصرفه .

ومن الظلم أخذ مال اليتيم وفي الحديث : « **اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب** »[3].

وفي رواية : « **إن دعاء المظلوم يرفع فوق الغمام ويقول الرب تبارك وتعالى : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين** »[4].

ومن الظلم المماطلة بحق عليه مع القدرة على الوفاء لما ثبت في الصحيحين أن

---

(١) « الكبائر » للذهبي ص ٧٦ .

(٢) أخرجه البزار والطبراني بإسناد حسن من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث ابن عباس .

(٤) أخرجه أحمد في حديث أبي هريرة ، والترمذي وحسنه ، وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان .

رسول الله ﷺ قال : « **مطل الغني ظلم** » وفي رواية : « **لَيّ الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته** »(٤).

أي يحل شكايته وحبسه .

ومن الظلم أن يظلم المرأة حقها من صداقها ونفقتها وكسوتها . فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة فينادى به على رؤوس الخلائق هذا فلان ابن فلان من كان له عليه حق فيأت إلى حقه ، قال : فتفرح المرأة أن يكون لها حق على أبيها أو أخيها أو زوجها ثم قرأ : ﴿ **فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ [المؤمنون : ١٠١] . قال : فيغفر الله من حقه ما شاء ولا يغفر من حقوق الناس شيئاً ، فينصب العبد للناس ثم يقول الله تعالى لأصحاب الحقوق : ائتوا إلى حقوقكم ، قال : فيقول الله تعالى للملائكة : خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل ذي حق حقه بقدر طلبته ، فإن كان ولياً لله وفضل له مثقال ذرة ضاعفها الله تعالى له حتى يدخله الجنة بها ، وإن كان عبداً شقياً ولم يفضل له شيء فتقول الملائكة : ربنا فنيت حسناته وبقي طالبوه ، فيقول الله : خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ، ثم صك له صكاً إلى النار .

وقال بعض العلماء : الظلم على ثلاثة أوجه : ظلم لا يغفره الله ، وظلم لا يتركه الله ، وظلم لا يعبأ به شيئاً ، فأما الظلم الذي لا يغفره الله فهو الشرك بالله ، وأما الظلم الذي لا يتركه الله : فمظالم العباد بعضهم بعضاً ، وأما الظلم الذي لا يعبأ الله به : فظلم العبد ما بينه وبين الله تعالى .

ومن الظلم أن يستاجر أجيراً أو إنساناً في عمل ولا يعطيه أجرته لما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « **يقول الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه العمل ولم يعطه أجرته** » .

وكذلك إذا ظلم يهودياً أو نصرانياً أو نقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً

(٤) أخرجه البخاري ومسلم .

بغير طيب نفسه فهو داخل في قوله تعالى : ﴿أنا حجيجه﴾ أو قال : « أنا خصمه » يوم القيامة .

ومن ذلك أن يحلف على دَيْنٍ في ذمته كاذباً فاجراً لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « **من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة** » قيل يا رسول الله وإن كان شيئاً يسيراً ؟ قال : « **وإن قضيباً من أراك** » .

وقد روي أنه لا أكره للعبد يوم القيامة من أن يرى من يعرفه خشية أن يطالبه بمظلمة ظلمه بها في الدنيا كما قال النبي ﷺ : « **لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء** »(١).

قال بعض الحكماء : الظلم على ثلاثة أوجه : ظلم لا يغفره الله ، وظلم لا يتركه الله ، وظلم لا يعبأ الله به شيئاً ، فأما الظلم الذي لا يغفره الله فهو الشرك بالله . وأما الظلم الذي لا يتركه الله فمظالم العباد بعضهم بعضاً . وأما الظلم الذي لا يعبأ الله به ، فظلم العبد ما بينه وبين الله تعالى .

قال القطب في « شرح الشهاب » : روي أن دعاء صنفين من الناس مستجاب لا محالة ، مؤمناً كان أو كافراً : دعاء المظلوم ، ودعاء المضطر ، لأن الله تعالى يقول : ﴿**أمَّنْ يجيب المضطر إذا دعاه**﴾ [النمل : ٦٢] . وفي الحديث : دعوة المظلوم مستجابة . إن قيل : أليس الله تعالى يقول : ﴿**وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال**﴾ [الرعد : ١٤] . فكيف يستجاب دعاؤهم ؟ قلت : الآية واردة في دعاء الكفار في النار ، وهناك لا ترحم العبرة ولا تجاب الدعوة ، وهذا الخبر الذي أوردناه يراد به في دار الدنيا فلا تدافع .

وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿**ويل للمطففين**﴾ [المطففين : ١] . هذا لمن طفف المكيال والميزان ، فما ظنك بمن أخذ ماله وأخرب داره وأوجع ظهره ، فيا معشر الظالمين الاعتبار ، ويا معشر الخاسرين الاعتذار .

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي وعن أبي هريرة .

كان يزيد بن حكيم يقول : ما هبت أحداً قط هيبتي رجلًا ظلمته ، وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله يقول لي : حسبي الله ، الله بيني وبينك ..

قال العلماء : كل من يأكل الحرام مثل المرابي وقاطع الطريق والسلطان الظالم فلا يجوز لأحد أن يحضر ضيافته ويأكل من ماله ولا يجوز قبول هديته وكذلك القاضي المرتشي لا يجوز حضور دعوته .

كما ويحرم بيع العنب من الخمار ، والسيف من قاطع الطريق .. فإن باع فثمنه حرام .

قال بعضهم :

عليك بالعدل إن أوليت مملكة ... واحذر من الظلم فيها غاية الحذر
فالملك يبقى مع الكفر الذميم ولا ... يبقى مع الجور في بدو ولا حضر

وأنشد بعضهم :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم يرجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقال بعضهم :

إذا ما الظلوم استوطأ الظلم مركباً ... ولج عتواً في قبيح اكتسابه
فكله إلى صرف الزمان وعدله ... سيبدو له ما لم يكن في حسابه

مراجع الكتاب

١ ــ آدب الزفاف . ناصر الدين الألباني .
٢ ــ الإبداع في مضار الإبداع .
٣ ــ اتحاف السادة المتقين . الزبيدي .
٤ ــ أحكام الجنائز . ناصر الدين الألباني .
٥ ــ إحياء علوم الدين . الإمام الغزالي .
٦ ــ الأدب المفرد . الإمام البخاري .
٧ ــ الأمثال . أبو الشيخ .
٨ ــ الأمثال . العسكري .
٩ ــ الإيمان . ابن منده .
١٠ ــ البداية والنهاية . ابن كثير .
١١ ــ تاريخ أصبهان . أبو نعيم .
١٢ ــ تاريخ بغداد . ابن الخطيب .
١٣ ــ تاريخ دمشق . ابن عساكر .
١٤ ــ التاريخ الكبير . الإمام البخاري .
١٥ ــ تحفة الأوحوذي . المبار كفوري .
١٦ ــ تحفة الأشراف . المزي .
١٧ ــ الترغيب والترهيب . المنذري .
١٨ ــ تفسير القرآن العظيم . ابن كثير .
١٩ ــ تقريب التهذيب . ابن حجر .
٢٠ ــ تهذيب التهذيب . ابن حجر .
٢١ ــ جامع البيان . ابن جرير .
٢٢ ــ الجامع لأحكام القرآن . القرطبي .

٢٣ ـ جمع الجوامع .	السيوطي .
٢٤ ـ حلية الأولياء .	أبو نعيم .
٢٥ ـ الدر المنثور .	السيوطي .
٢٦ ـ دلائل النبوة .	البيهقي .
٢٧ ـ الدين الإسلامي .	حسن منصور .
٢٨ ـ ذم الغيبة .	ابن أبي الدنيا .
٢٩ ـ الـــروح .	ابن القيم الجوزية .
٣٠ ـ الزهـــد .	ابن المبارك .
٣١ ـ الزواجـــر .	ابن حجر الهيثمي .
٣٢ ـ زبدة التفسير .	الأشقر .
٣٣ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة .	ناصر الدين الألباني .
٣٤ ـ سنن الترمذي .	الترمذي .
٣٥ ـ سنن أبي داود .	أبو داود .
٣٦ ـ سنن سعيد بن منصور .	سعيد بن منصور .
٣٧ ـ السنن الكبرى .	البيهقي .
٣٨ ـ سنن ابن ماجه .	ابن ماجه .
٣٩ ـ سنن النسائي .	النسائي .
٤٠ ـ سيرة ابن هشام .	ابن هشام .
٤١ ـ شرح الأربعين النووية .	النووي .
٤٢ ـ شرح الأربعين النووية .	ابن دقيق العيد .
٤٣ ـ شرح السنة .	البغوي .
٤٤ ـ شرح النووي على مسلم .	النووي .
٤٥ ـ الشـــريعة .	الآجرى .
٤٦ ـ شعب الإيمان .	البيهقي .
٤٧ ـ شياطين الإنس والجن .	عكاشة عبد المنان الطيبي .
٤٨ ـ صحيح البخاري .	الإمام البخاري .

٤٩ ـ صحيح الترغيب .	ناصر الدين الألباني .
٥٠ ـ صحيح الجامع .	ناصر الدين الألباني .
٥١ ـ صحيح ابن حبان .	ابن حبان .
٥٢ ـ صحيح ابن خزيمة .	ابن خزيمة .
٥٣ ـ صحيح مسلم .	الإمام مسلم .
٥٤ ـ صفوة البيان .	مخلوف .
٥٥ ـ الصمت .	ابن أبي الدنيا .
٥٦ ـ الصواعق المرسلة .	ابن قيم الجوزية .
٥٧ ـ الضعفاء .	للعقيلي .
٥٨ ـ الطبقات الكبرى .	ابن سعد .
٥٩ ـ عذاب القبر .	البيهقي .
٦٠ ـ العظمة .	أبو الشيخ .
٦١ ـ العلل الواهية .	ابن الجوزي .
٦٢ ـ عمل اليوم والليلة .	ابن السني .
٦٣ ـ فتح الباري .	ابن حجر .
٦٤ ـ الفهرست لألفاظ القرآن .	
٦٥ ـ الفردوس .	الديلمي .
٦٦ ـ في ظلال القرآن .	سيد قطب .
٦٧ ـ الكامل .	لابن عدي .
٦٨ ـ الكبائر .	الذهبي .
٦٩ ـ كشف الأستار .	البزار .
٧٠ ـ كنز العمال .	التقي الجندي .
٧١ ـ كنوز السنة .	
٧٢ ـ مجمع الزوائد .	الهيثمي .
٧٣ ـ مساوىء الأخلاق .	الخرائطي .
٧٤ ـ المستدرك .	الحاكم .

٧٥ ـ مسند الإمام أحمد .	الإمام أحمد .
٧٦ ـ مسند الشهاب .	القضاعي .
٧٧ ـ مسند ابن أبي شيبة .	ابن أبي شيبة .
٧٨ ـ مسند الطيالسي .	الطيالسي .
٧٩ ـ مسند أبي يعلي .	أبو يعلي .
٨٠ ـ المسند في الأمثال والحكم .	عكاشة عبد المنان الطيبي .
٨١ ـ مشكاة المصابيح .	التبريزي .
٨٢ ـ مصباح الزجاجة .	البوصيري .
٨٣ ـ مصنف ابن أبي شيبة .	ابن أبي شيبة .
٨٤ ـ مصنف عبد الرزاق .	عبد الرزاق .
٨٥ ـ المطالب العالية .	ابن حجر .
٨٦ ـ المعجم الأوسط .	الطبراني .
٨٧ ـ المعجم الصغير .	الطبراني .
٨٨ ـ المعجم الكبير .	الطبراني .
٨٩ ـ معرفة السنن والآثار .	البيهقي .
٩٠ ـ مفيد العلوم ومبيد الهموم .	الخوارزمي .
٩١ ـ مكارم الأخلاق .	الخرائطي .
٩٢ ـ المنتخب .	عبد بن حميد .
٩٣ ـ الموطأ .	الإمام مالك .
٩٤ ـ نوادر الأصول .	الحكيم الترمذي .
٩٥ ـ نيل الأوطار .	الشوكاني .

فهـرس الموضوعـات



صدر حديثا

- ❁ صحيح الدعاء المستجاب — احمد عبد الجواد
- ❁ الاصابة بالعين وعلاجها وما يدفع به الانسان السحر والشيطان — عكاشة عبد المنان
- ❁ السبعة الذين يظلهم الله — عكاشة عبد المنان
- ❁ تفسير الصحابه سماته ، خصائصه ، مصادره ، قيمته العلمية — د . محمد عبد الرحيم
- ❁ دعاء الرسول باللغة العربية والفرنسية — اعداد عبد الله حجاج، ترجمة سمير علوان
- ❁ وصايا الرسول باللغة العربية والفرنسية — اعداد فؤاد شاكر، ترجمة سمير علوان
- ❁ قصة المرأة المسلمة باللغة العربية والفرنسية — اعداد عبد الله حجاج، ترجمة سمير





مكتبة التراث الاسلامى
ت : ٣٩١١٣٩٧ ـ ٣٩٢٥٦٧٧ ـ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦